

نيقولو باربارو

الفتح الإسلامى للقسطنطينية

يوميات الحصار العثمانى

١٤٥٣م

دراسة وترجمة وتعليق :
دكتور حاتم عبد الرحمن الطحاوى

9

نيقولو باربارو

الفتح الإسلامى للقسطنطينية

يوميات الحصار العثمانى

١٤٥٣ م

دراسة وترجمة وتعليق
دكتور / حاتم عبد الرحمن الطحاوى
كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى
٢٠٠٢م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
ĒIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

هذه هى الترجمة الكاملة لكتاب

Nicolo Barbaro

Diary of The Siege of Constantinople 1453

Trans. by J. R. Jones, Jericho , New York, 1969. (78 Pages)

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهوارى

د . شوقى عبد القوى حبيب

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبوطالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

- ٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع - تليفون - فاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher: EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St., Alharam - A.R.E. Tel : 3871693

الإهـــداء

إلى ... نهلة

«عـيــــــــــونك ســـود

رصـــــاص مكمّن فى بارود»

... من مجرودة طحاوية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هناك حوادث فارقة قليلة فى التاريخ الإنسانى، منها الفتح الإسلامى للقسطنطينية فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى / التاسع الهجرى. ووجه الأهمية التى يكتسبها هذا الحدث التاريخى الفذ أنه حوَّل «مدينة قنسطنطين» إلى «عاصمة الإسلام» (إسلامبول) .

ولم يكن هذا مجرد تغيير فى اسم مدينة؛ وإنما كان تغييرًا فى مجرى التاريخ الإنسانى بأسره، إذ إن المدينة التى بناها الإمبراطور الرومانى قنسطنطين الكبير فى ثلاثينيات القرن الرابع الميلادى لتكون «روما الجديدة» ، بعدما أعلن مناصرته للمسيحية واعترف بها ديانة مسموح بممارستها بعد عصر الاضطهادات ، كانت عوضًا عن «روما القديمة» التى كانت قاعدة الإمبراطورية الرومانية الكلاسيكية ومعقل الآلهة الوثنية . كما أن هذه المدينة صارت رمزًا لمحاولات الامبراطور جستنيان لإعادة بناء الإمبراطورية الرومانية فى الغرب والشرق تحت زعامة القسطنطينية . وقد ترك بها جستنيان كنيسة أيا صوفيا التى يبالغ المؤرخون الغربيون فى تقدير قيمتها. وبعد فشل مشروع جستنيان صارت القسطنطينية معقل المسيحية الشرقية وملاذها على الرغم من دخولها فى نزاعات دموية مع الكنائس الشرقية فى المناطق العربية حتى ظهور الإسلام. وحاول المسلمون، فى ظل الخلافة الأموية، عدة مرات فتح مدينة قنسطنطين دونما طائل . وبقيت المدينة مركزًا للحكم والحضارة التى عرفها المؤرخون باسم «الحضارة البيزنطية» عدة قرون حتى دهمها الصليبيون واستباحوها فى بدايات القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى .

وطوال تلك الفترة كانت القسطنطينية على علاقة بالمنطقة العربية تتراوح بين التفاعل والاحتكاك الحضارى الإيجابى من ناحية، والعداء والمواجهات العسكرية من ناحية أخرى. وتبادل الطرفان التجارة والعلم والحرب والحكم ... والرعايا فى مناطق التخوم والثغور . وشاءت التطورات التاريخية أن تنمو إحدى الإمارات التركية لتكون دولة إقليمية عظمى على حساب دولة سلاطين المماليك من ناحية، والدولة البيزنطية من ناحية أخرى. وتجمعت لهذه القوة البازغة كل عناصر القوة التى أخذت تتسرب من دولة سلاطين المماليك والدولة البيزنطية. وكان حتميًا أن تبتلع ممتلكاتهما وأن تستولى على عاصمتيهما .

وفى سنة ١٤٥٣م رفرفرت رايات العثمانيين على القسطنطينية وبعدها بحوالى سبعين سنة، أو أقل قليلاً، رفرفرت الرايات ذاتها على القاهرة لتنبئ عن مولد عصر جديد من التوازنات العسكرية والسياسية، وهناك فى الغرب الأوربى، من بحر ايجة فى الشرق حتى بحر الشمال فى الغرب، انكمشت أوربا ترقب فى خوف ذلك العملاق الذى قبع على ضفاف البسفور والدردنيل يمد ذراعه صوب أوربا فى شرقها ووسطها حتى دار الزمن دورته .

وعلى الرغم من عشرات الكتب التى كتبت حول موضوع الفتح العثمانى للقسطنطينية فإن رواية شهود العيان لهذا الحادث التاريخى الفذ تبقى لها جاذبيتها ، وعلى الرغم من أهمية هذا الحادث الفذ فى تاريخ المسلمين، فإن ستاراً من النسيان - وربما التناسى- قد أُسدل على هذا الحدث الذى لايعرف تفاصيله ومقدماته ونتائجه كثير من المسلمين من العامة والمثقفين. وبسبب تطورات التاريخ الثقافى السلبية فى أنحاء العالم الإسلامى ظل هذا الحدث أسير إطار الإنحيازات الغربية ضد المسلمين وتاريخهم.

ومع أن إسلامبول (استنبول) ظلت قاعدة العالم الإسلامى طوال عدة قرون ؛ فإن ما أطلقه المؤرخون الغربيون من «شائعات تاريخية» حول العثمانيين لقى آذانًا فارغة فى كثير من أنحاء العالم الإسلامى إبان فترة الاستعمار الغربى.

من هنا تأتى أهمية هذه الترجمة والدراسة التى يقدمها الدكتور حاتم الطحاوى عن يوميات حصار العثمانيين للقسطنطينية حتى فتحوها سنة ١٤٥٣م كما رواها أحد شهود العيان. وتمتاز هذه الدراسة بالعمق والموضوعية الواجبة فى البحث التاريخى كما تمتاز الترجمة بأنها الأولى فى لغة العرب من ناحية، وبسلاسة وبساطة محببة تكشف عن جهد كبير بذله الدكتور حاتم الطحاوى، المدرس بجامعة الزقازيق ، فى سبيل إخراج صورة حية لحدث نادر المثال فى التاريخ الإنسانى من ناحية أخرى . ولعلها كانت مفارقة ساخرة من التاريخ أن يفقد المسلمون قاعدتهم فى الأندلس بأقصى الغرب الأوربى فى السنوات الأخيرة من القرن الذى شهد فتح المسلمين لقاعدة المسيحية الشرقية فى أقصى الشرق الأوربى.

وإننى شخصياً أشعر بسعادة غامرة وأنا أقدم هذا العمل الجميل إلى قراء العربية فى كل مكان ، وتفخر دار عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية أن تقدم هذا الكتاب المذهل ضمن باقتها من الإصدارات التى نرجو أن تسهم فى تنمية الوعى بتاريخنا ودورنا فى خدمة الإنسانية. والله الموفق والمستعان .

دكتور قاسم عبده قاسم

مقدمة الترجمة الإنجليزية

عندما سقطت مدينة القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين ١٤٥٣م ، شغف من تبقى على قيد الحياة أنذاك برواية ما جرى . حدث هذا فى الوقت الذى تاقت فيه الشعوب الأوربية إلى الاستماع لقصة سقوط المدينة ، بآذان صاغية . ووصلت إلينا عدة مصادر قام بعض شهود العيان بتسجيلها حول ذلك الحدث. على أنه لايوجد مصدر تاريخى أكثر تفصيلاً ودقة من هذا المصدر المترجم بين أيدينا الآن .

كان نيقولو باربارو، الطبيب والجراح، وأحد أفراد الأسر النبيلة بمدينة البندقية، موجوداً ابان الحصار العثمانى للقسطنطينية. ويتصف التقرير الذى سجله لنا بالتحيز لمواطنيه البنادقة، إلى الحد الذى جعله يتيه فخراً وزهواً بأعمالهم حدث ذلك فى الوقت الذى لم يكن فيه هذا التقرير عادلاً فيما يتعلق بما ذكره عن أعمال الجنوية والبيزنطيين .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن هذا التقرير الذى تمت صياغته على شكل يوميات، يدلنا على ما جرى من أحداث كبرى مرتبة زمنيًا . الأمر الذى جعله أعظم فائدة من أى مصدر معاصر ، ويمكن الوثوق والاعتماد على هذه اليوميات بشكل تام.

وبالنسبة للترجمة الإنجليزية ، فلقد أحجمت عن ترجمة المصطلحات التقنية، كأنواع السفن، والموازين، والمقاييس . لعدم وجود معادل لها فى اللغة الإنجليزية وقمت بايرادها فى الكتاب حسب لغتها الأصلية.

وكذلك الحال، فلم أجر أية محاولة لتغيير أسماء الذين تم ذكرهم فى هذا الكتاب ، أو أسماء الأماكن التى أوردتها كما هى حسب الهجاء اليونانى أو التوسكانى. وقمت فى نفس الوقت بالمحافظة على أسلوب نيقولو باربارو الذى يتصف بالتكرار إلى حد ما .

ويعد هذا العمل فى غاية الأهمية بالنسبة للمؤرخين على وجه الخصوص، لأنه يقدم صورة واقعية وصريحة لما حدث . ولهذا فقد تركت قوائم الأسماء التى وردت فى الكتاب دون تغيير.

لقد قمت بهذه الترجمة عن النص الوارد فى طبعة إ. كورنت E. Cornet الصادرة فى ڤيينا ١٨٥٦م. ولم يكن ممكنًا بالنسبة لى أن أعتمد على المخطوط الأصلى الموجود فى مكتبة مارشيانا Bibliotica Marciana بمدينة البندقية .

والحقيقة أن النسخة الخاصة بكورنت ، كانت واضحة ودقيقة بشكل كبير. ومن المحتمل أننا لم نكن لنحرز تقدمًا كبيراً إذا ما قمنا بالاعتماد على المخطوط الأصلى . كما أن الفراغات التى ظهرت فى عدد من السطور ، كانت غير ذات أهمية .

أن بعض التعليقات التى ظهرت بخط اليد فوق المخطوط الأصلى، والتى يزعم أنها لماركو باربارو Marco Barbaro ، المتخصص فى علم الأنساب، قد تم دمجها كملاحظات إضافية وحواشى فى نهاية الكتاب.

إن أفضل وأحدث تحليل للأحداث التاريخية التى قام باربارو بتسجيلها قد تم بواسطة البروفسور ستيفن رنسمان Steven Runciman فى كتابه عن سقوط القسطنطينية ١٤٥٣م، الصادر عن مطبعة جامعة كمبردج ١٩٦٥م، الذى أحال القارئ إلى معلومات إضافية وجديدة.

ويسلّم المترجم بوجوب تقديم وافر الشكر، والعرفان بالجميل، للمساعدة التى حصل عليها من قبل السيدة م.ج كارول M. G. Caroll، والدكتور ج. أندريونى G. Andrioni فى تحضير وإعداد هذا النص .

ج. ر. جونز

جامعة غرب استراليا

مقدمة الترجمة العربية

«لتفتحنَّ القسطنطينية . فلنعم الأمير
أميرها. ولنعم الجيش ذلك الجيش»

حديث شريف

واجه المسلمون فى طريقهم لبناء الدولة الإسلامية الجديدة قوتين كبيرتين، هما دولة الفرس، ودولة الروم (الإمبراطورية البيزنطية) . وعلى حين نجحوا مبكرًا فى حسم صراعهم مع القوة الأولى، عبر معركة القادسية ١٤هـ - ٦٣٥م، ودخولهم للعاصمة المدائن ١٦هـ - ٦٣٧م (١)، فقد اكتفوا بانتزاع ممتلكات بيزنطة فى شمال الشام بعد عدة معارك أهمها اليرموك وأجنادين ١٦-١٧هـ / ٦٣٦-٦٣٧م(٢) ثم فتح كل من فلسطين ١٥هـ / ٦٣٦م(٣)، ومصر ٢٠هـ/ ٦٤٠م (٤).

وظل حلم القضاء على دولة الروم يراود الخلفاء الراشدين ، دون محاولة جدية لتحقيقه، غير أن الأمر انتقل من مساحة الحلم إلى حيز الواقع الميدانى على عهد الخلافة الأموية، بعد أن اشتد عود الدولة الإسلامية الفتية، وبعد تزايد خبرة إرسال الحملات البريه، وفن القتال البحرى لدى المسلمين، نتيجة فتح الشام، وفلسطين ومصر ، فكان قرار القيام بحملات عسكرية أنه أجل فتح القسطنطينية ، عاصمة الامبراطورية البيزنطية.

١- البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر) فتوح البلدان، تحقيق عبدالله وعمر الصباغ ، بيروت ، ١٩٨٧م، ص٣٥٦ : الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، تحقيق محمد أبو الفضل ، القاهرة ، ١٩٧٩، ص٤٨٠-٥٢٩ · ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن الشيبانى) الكامل فى التاريخ ، ج٢ ، تحقيق يوسف الدقاق ، بيروت ، ١٩٨٧، ص٢٩٩ .

٢- ابن أعثم (أبى محمد أحمد بن أعثم الكوفى)، الفتوح ، ج١ ، بيروت، د.ت ، ص٢١٨-٢٤٤ : الطبرى، المصدر السابق ، ج٣ ، ص٣٩٤-٤١٤ ، ٤١٥-٤١٨ ، ٦٠٥-٦٠٧ .

٣- البلاذرى ، المصدر السابق ، ص٢٣١-٢٤٩ : الطبرى، المصدر السابق ، ج٣ ، ص٦٠٧-٦١٣ : ابن الأثير ، المصدر السابق، ج٢ ، ص٣٤٧ .

٤- البلاذرى ، المصدر السابق، ص٢٩٨ : الطبرى، المصدر السابق، ج٤ ، ص١٠٤-١١٠ : ابن الأثير، المصدر السابق ، ج٢، ص٤٠٥ .

أرسل الأمويون حملتين فى الأعوام ٤٨هـ / ٦٦٨م، ٥٤-٦٠هـ / ٦٧٤-٦٨٠م[١] لمهاجمة القسطنطينية ، ونجحت الحملة الثانية فى فتح جزيرة بالقرب من القسطنطينية تدعى أرواد، واستقر فيها المسلمون لسبع سنوات .

وأرسل الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ / ٧١٥-٧١٧م) أخاه مسلمة على رأس حملة بحرية كبرى لفتح القسطنطينية ٩٧هـ- ٧١٦م. واتخذت الحملة طريقها تجاه المدينة بعد أن اقتحمت مدن سارديس Sardis وبرجامة Pergamus ثم أبيدوس Abydus ، لتقف فى الخامس عشر من أغسطس ٧١٧م أمام القسطنطينية ، حيث قام المسلمون بضرب حصارهم البحرى حولها ، والذى استمر لمدة عام كامل[٢].

وأصاب الفشل فى النهاية حملة مسلمة به عبد الملك[٣] لعدة أسباب ، أهمها قوة الاستحكامات البيزنطية، ومعاناة المسلمين من شتاء القسطنطينية القارس، والأمراض التى تفشت بين جنود الحملة، وعلى رأسها مرض الطاعون، فضلاً عن مهارة البحرية البيزنطية.

وعلى الرغم من الفشل العسكرى الذى لحق بتلك الحملة، فإنها نجحت فى احراز نصر معنوى، بعد أن اشترط القائد المسلم مسلمة بن عبد الملك على الامبراطور البيزنطى ليو الثالث Leo III (٧١٧-٧٤٠م) ضرورة بناء مسجد داخل أسوار مدينة القسطنطينية[٤]، مقابل

١- الطبرى ، المصدر السابق، ج٥ ، ص٢٩٢ .

٢- الطبرى ، المصدر السابق، ج٦ ، ص٥٣٠-٥٣١ . وانظر أيضًا ذلك المصدر البيزنطى الهام :

Theophanes, The Chronicle of Theophanes. (6095-6305) (A.D 602-813) . Trans. by , Harry Turtledove , Pennsylvania , 1982 , pp. 88-90 .

ولهذا المصدر ترجمة جديدة ووافية انظر:

Theophanes, The Chrolicle of Theophanes Confessor , Byzantine and Near Eastern History AD 284 -813 . Translated with Introduction and Commentary by Cyril Mango and Roger Scot , With Assistance of Goffrey Greater , Oxford, 1997; pp. 538-550.

وأنظر أيضًا الفصل القيم الذى كتبه أ.د. وسام فرج فى كتابه «العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى » ، الاسكندرية ، ١٩٨١م، ص١١٩-١٧٥ .

٣- وسام فرج ، المصدر السابق ، ص١٧٤ -١٧٥ . Theophans , Op. cit , p. 90 .

٤- على الرغم من عدم ذكر المؤرخ البيزنطى ثيوفانس لهذا المسجد، ورفض أ.د. وسام فرج ص١٧٣ لمسألة قبول البيزنطيين شرط مسلمه بضرورة بناء مسجد بالقسطنطينية اعتمادًا على أنه من الصعب على الطرف الخاسر أن يملى شروطه . فإن تاكيد أحد أهم المصادر البيزنطية اللاحقة على وجود هذا المسجد ، وأن «مسلمة الذى قاد حملة على القسطنطينية هو الذى أمر ببناء مسجد للمسلمين فى المعسكر الامبراطورى=

انسحاب قواته من أمام أسوار المدينة . ووافق ليو على ذلك بعد أن انهكته عملية الدفاع عن القسطنطينية ، ولكى يضمن حمايتها لفترة أطول . وبعد موت الخليفة سليمان بن عبد الملك، أمر الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ/ ٧١٧-٧١٩م) بسرعة عودة الحملة إلى الشام(١)، فى العام ٩٩هـ / ٧١٨م .

وهكذا فشلت أهم الحملات الإسلامية لفتح القسطنطينية ، عاصمة الامبراطورية البيزنطية وترتب على ذلك زيادة ثقة البيزنطيين فى قدراتهم ، فاستطاع ليو الثالث بعد ذلك بعدة سنوات- وعبر التحالف مع دولة الخزر- ايقاع الهزيمة بالجيش الإسلامى بالقرب من عموريه ، فى معركة اكرونيون(٢) Acronion ١٢٢هـ- ٧٤٠م التى تمكن البيزنطيون بعدها من استعادة زمام المبادره الحربية من المسلمين ، حيث تحولوا بعدها من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم على الممتلكات الإسلامية براً وبحراً .

وانتقلت حالة العداء الإسلامى- البيزنطى إلى جدول أعمال الدولة العباسية الجديدة، وقام العباسيون أول الأمر بغارات عسكرية محدودة ، حيث اتجه جل اهتمامهم نحو تثبيت وجودهم فى السلطة، الأمر الذى دعى إلى الاهتمام بالجبهة الداخلية على حساب الجبهة الخارجية.

= انظر قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس ، ادارة الإمبراطور البيزنطية ، عرض وتحليل وتعليق محمود سعيد عمران ، بيروت، ١٩٨٠م، ص٨٣ . لهو أمر يدعو إلى الجزم بخضوع الامبراطور ليو الثالث لشرط مسلمه. وربما وافق ليو على ذلك بعد أن انهكته الحرب مع المسلمين ، ولكى يضمن حماية القسطنطينية لفترة أطول.

ويمكن اعتبار ذلك المسجد، ودار البلاط إلى جانبه بمثابة نواة الحى الإسلامى الذى كان بالقسطنطينية ، واستقر به التجار المسلمون فى القرن العاشر الميلادى. انظر: حاتم الطحاوى ، بيزنطة والمدن الإيطالية ، العلاقات التجارية ١٠٨١-١٢٠٤م، القاهرة ١٩٩٨، ص٣٦،٣٩ . كما أننى سبق أن ذكرت فى نفس الكتاب (ص٣٩ هامش٢) أن تاريخ المساجد فى القسطنطينية يستحق أن يخصص له ، فيما بعد- بحث منفرد يتناول أسباب وزمن وجودها ، وتأثيرها على العلاقات بين بيزنطة والقوى الإسلامية المختلفة . وهناك بحث جديد حول هذا الموضوع . انظر: محمد الوسيمى، جامع القسطنطينية الأول ودوره السياسى، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد (٦٠) عدد (٢)، أبريل ٢٠٠٠م، ص٣٩-٧٣

١- الطبرى ، المصدر السابق، ج٦ ، ص٥٥٣ : ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٩، طبعة وتوثيق عبد الرحمن الدتى، محمد غازى بيضون ، بيروت ، ١٩٩٨م، ص٣٢٨ .

٢- ابن كثير ، المصدر السابق، ج٩ ، ص٣٨٤-٣٨٧ : ابن الأثير، المصدر السابق ج٤ ، ص٤٥٦-٤٥٧ ، الطبرى، المصدر السابق ج٧ ، ص١٩١ . حيث يشير إلى مقتل عبدالله البطال فى هذه المعركة .

ويبدو أن العباسيين تعلموا من الفشل الأموى فى حصار القسطنطينية ، فلم يفكر خلفاء الدولة العباسية فى فتح القسطنطينية قدر تفكيرهم فى انتزاع الأراضى البيزنطية الواقعة جنوبى آسيا الصغرى[١].

ونجح الخلفاء العباسيون فى ارهاق الامبراطورية البيزنطية عسكريًا ، لدرجة أن الإمبراطوره ايرين Irene (٧٨٠-٨٠٢م) ، قامت بدفع الجزيه السنوية للإمبراطور هارون الرشيد فى العام ٧٨٣م[٢]، مقابل الحفاظ على الهدوء على الجبهة الجنوبية، حتى تستطيع التفرغ لاقامة علاقات وديه مع البابوية ومع مملكة الفرنجة .

وتحول ميزان القوى مرة أخرى لصالح الإمبراطورية البيزنطية على عهد الأسرتين العمورية والمقدونية ، فاستولى باسل الأول Basil I (٨٦٧-٨٨٦م) وليو السادس Leo VI (٨٨٦-٩١٢م) على الأراضى الإسلامية بين فرعى نهر الفرات ومنطقة الجزيرة كما استطاع رومانوس الأول Romanus I (٩١٩-٩٤٤م) التوغل فى أراضى الشام على حساب الأمير سيف الدولة الحمدانى، وهاجم مدينة الرها ٩٤٤م وقام باستعادة المنديل الذى يقال أن السيد المسيح قد جفف به وجهه فانطبعت ملامحه عليه [٣].

والحقيقة أن ظهور الأتراك السلاجقة على مسرح الأحداث ، قد اقتضى اعادة توزيع أدوار لعبة الحرب على الصعيد الإسلامى- البيزنطى. فبعد أن قبض السلاجقة على مقود الأمور فى الدولة العباسية الثانية، فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى بدأوا فى ممارسة دورهم التاريخى كحماة للخلافة العباسية التى أخذ دورها العسكرى فى الذبول. وساعد على ذلك نشأة ووجود الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى على تخوم الإمبراطورية البيزنطية. فبدأوا منذ ذلك الوقت فى التصدى للقوة العسكرية البيزنطية ، والدفاع عن أراضى الشام ، فضلاً عن تطلعهم الدائم لاقتطاع المزيد من الأراضى والممتلكات البيزنطية فى آسيا الصغرى.

١- الطبرى، المصدر السابق، ج٧ ، ص٤٩٧، ٥٠٠ .

٢- الطبرى ، المصدر السابق، ج٨ ، ص١٥٤ : Theophanes, Op. cit, p. 142

وهناك تحليل جيد للظروف التى دفعت الامبراطوره البيزنطيه إلى هذا ، انظر: موفق سالم نورى، العلاقات العباسية البيزنطية ١٣٢-٢٤٧هـ / ٧٥٠-٨٦١م، بغداد، ١٩٩٠م، ص١٩١-١٩٦

٣- ابن العبرى (أبى الفرج جمال الدين) تاريخ الزمان، ترجمة الأب اسحق أرمله ، بيروت ، ١٩٨٦، ص٥٧ .

واستطاع الأتراك السلاجقة فى العام ٤٦٣هـ - ١٠٧١م انزال هزيمة ساحقة بالامبراطورية البيزنطية فى موقعة مانزكرت Menzkirt [1]، حيث قاموا بتمزيق شمل الجيش البيزنطي، وأسر قائده الامبراطور رومانوس الرابع Romanus IV (١٠٦٨-١٠٧١م) ، وهو الأمر الذى أحدث زلزالاً فى المجتمع البيزنطى .

وكان من أبرز نتائج موقعة مانزكرت ، اجتياح السلاجقة الأتراك لآسيا الصغرى ، وبالتالى منع بيزنطة من الاستفادة من المورد الرئيسى للجيش البيزنطي، وهو جنود آسيا الصغرى الأشداء . بالإضافة إلى تحطيم الهيبة العسكرية البيزنطية، فضلاً عن تعرض بيزنطه لخسارة اقتصادية فادحة نتيجة فقدانها للعديد من الأراضى الزراعية الخصبة.

والحقيقة أنه لايمكننا أن نغفل أن الانتصار العسكرى الكبير فى مانزكرت ، قد أثار مخيلة الأتراك السلاجقة المسلمين، نحو تحقيق انجازات عسكرية كبرى، ومن ثم مهاجمة القسطنطينية ، والقضاء على الإمبراطورية البيزنطية.

١- عالجت العديد من المصادر البيزنطية والتركية والعربية الانتصار التركى الكبير على الامبراطورية البيزنطية فى مانزكرت . انظر Pesellus, M. F., Fourteen Byzantine Rulers The Chronographia of Michael Pesellus, Tran, by . Sewter E.R.A, London, 1966, pp. 355-59 .

الحسينى (صدر الدين على بن ناصر) ، زبدة التواريخ . أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، تحقيق محمد نور الدين، بيروت ، ١٩٨٦، ص١٠٧- ١١٥م : البندارى (الفتح بن على بن محمد البندارى الإصفهانى)، تاريخ دولة آل سلجوق ، بيروت ، د.ت ، ص٤٠-٤٤ .

ابن الأثير ، المصدر السابق، ج١٠ ، ص٢٠-٢١ : ابن القلانسى (ابويعلى حمزة) ، ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨م، ص٩٩ : ابن العبرى ، المصدر السابق، ص١٠٩ وانظر كذلك بعض الكتب التى صدرت باللغة التركية عن موقعة مانزكرت :-

Faruk Sumer Ali Sevim. Islam Kaynaklarina gore. Malazgırt Savas, Ankara, 1971 ; Semavı Eyice. Malazgirt Savasi Kaybeden. Romanos IV Diogenes, Ankara, 1971, Ali Sevım, Malazgırt, Maydan Savası, Ankara, 1971

وكانت هزيمة الامبراطور رومانوس الرابع فى مانزكرت سبباً فى تفوق الارستقراطية المدنية، الأمر الذى نتج عنه تدهور الأوضاع العسكرية بالشكل الذى سمح للسلاجقة بمزيد من التوغل فى الأقاليم الشرقية للإمبراطورية البيزنطية .

وعلى الرغم من فشل الأتراك السلاجقة فى التصدى لجنود الحملة الصليبية الأولى، بعد قيام الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنينوس Alexius Comnenus (١٠٨١-١١١٨م) بإنزالهم على الشاطئ الآسيوى ، وقيامهم بهزيمة السلاجقة فى معركة ضوروليوم (أسكى شهر) ١٠٩٧ (١)، فإن السلاجقة ظلوا على عدائهم الشديد للإمبراطورية البيزنطية ، الأمر الذى دفعهم فيما بعد إلى الحاق هزيمة أخرى مهينة بالإمبراطور مانويل كومنينوس (١١٤٣-١١٨٠م) فى ميريوكيفالون MyrioKephalon ١١٧٦م (٢). وهى الهزيمة التى اعترف الإمبراطور مانويل بأنها تشبه هزيمة مانزكرت السابقة. وكان من أهم نتائجها ضياع هيبة آل كومنينوس فى بيزنطة ، وضياع أمل الإمبراطورية فى استعادة ممتلكاتها فى آسيا الصغرى.

وحمل سلاجقة الروم (سلاجقة قونية) والأتراك الدانشمنديون (٣)، خلال القرنين الثانى

١- انظر: المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة وتقديم حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٥٨م، ص٣٨-٤٢ ؛ ريموند اجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة حسين عطيه ، الاسكندرية، ١٩٩٠م، ص٧٧،٧٨ ، فوشيه الشارترى، الوجود الصليبى فى الشرق العربى ، الاستيطان الصليبى فى فلسطين ، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ١٠٩٥-١١٢٧م ترجمة ودراسة وتعليق قاسم عبده قاسم، الكويت ، ١٩٩٣م، ص١١١-١١٥م؛ وليم الصورى ، الحروب الصليبية جـ١، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٩١م، ص٢٠٤-٢٠٥ .

٢- ابن الأثير، المصدر السابق، ج١١، ص٤١١ .

Choniates, N. O city of Byzantium, Annales of Niketas Choniates. Trans. by , Harry J. Magoulias, Detroit , 1981, pp. 101-107 ; kinnamos, J, Deeds of John and Manual Cmnenus, Trans by , Brand. ch , New York , 1976, p. 224 .

وعن موقعة ميريوكيفالون وأثرها الهام انظر المراجع التالية:

محمود سعيد عمران، السياسية الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور مانويل الأول ١١٤٣-١١٨٠م، الاسكندرية ، ١٩٨٥م، ص٣٥٠-٣٥٣ ؛ على عوده الغامدى ، معركة ميريا كيفالون ١١٧٦م مجلة كلية الشريعة ، جامعة أم القرى ، مكة ، ١٤٠٤ ، حسين عطيه ، معركة ميريا كيفالون ١١٧٦م ونهاية النفوذ البيزنطى فى آسيا الصغرى، مجلة كلية الآداب- جامعة طنطا .

Dölger, F. Regesten der kaiserurkunden des Ostromis Schen Reiches 565-1453 , 2- Teil 1025-1204 , Munchen , 1925 , p. 86 .

٣- عن ذلك انظر: ابن البيبى، مختصر سلجوق نامه (أخبار سلاجقة الروم) ، ترجمة محمد السعيد جمال الدين، الدوحة ١٩٩٤م ؛ على بن صالح المحاميد، الدانشمنديون وجهادهم فى بلاد الأناضول ، الاسكندرية ، ١٩٩٤م.

عشر والثالث عشر للميلاد عبء الكفاح ضد البيزنطيين حتى اختفاء امارة قونية وظهور عدد من الامارات التركية الصغيرة على الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، التى أخذت فى ذلك الوقت تقوم بتركيز اهتمامها نحو سياستها الأوربية .

وبشهادة المؤرخين الغربيين قامت معظم هذه الإمارات على عقيدة الجهاد ، وعمرت بواسطة المرابطين فى العالم الإسلامى. وكان جنودها يحاربون البيزنطيين من أجل ترسيخ فكرة الإيمان (١)، كما قامت امارة عثمان على وجه التحديد فوق موقع استراتيجى يتحكم فى الطرق القادمة من القسطنطينية إلى آسيا . وباعتبارهم ورثة للتقاليد الإسلامية والسلجوقية ، كانوا على دراية تامة بالنظم الإدارية، وهو الأمر الذى سمح فيما بعد لامارتهم الصغيرة بالتحول إلى امبراطورية مترامية الأطراف .

وتنتسب امارة عثمان إلى قبيلة القاى التركية، التى اضطرتها هجمات المغول على الهضبة التركيه إلى الهجرة من أواسط آسيا إلى أرمينيا ، حيث استقر العثمانيون بقيادة سليمان شاه على نهر الفرات ما بين أرضروم وأرزنجان فى العام ٦٢١هـ - ١٢٢٤م .

مكث العثمانيون بهذه المنطقة عشر سنوات قبل أن ينتقلوا برفقة سليمان شاه إلى مدينة أماسيا Amasya بالأناضول . وبعد وقت قصير أراد سليمان أن يعود إلى وطنه الأصلى فى التركستان . لكنه مات ودفن عند قلعة جعبر.

وتسبب موت سليمان شاه فى انقسام قبيلته ، فاتجه بعضها إلى خراسان بينما قاد ابنه أرطغرل البعض الآخر باتجاه آسيا الصغرى طالبًا الحماية من دولة سلاجقة الروم فى قونية ، حيث أقطعه السلطان علاء الدين كيقباد الأول (١٢١٩-١٢٣٦م) فى العام ١٢٣٢م المنطقة الواقعة حول سوجوت وجبال طومانيج وأرمينى بيله، كموطن ومرعى له وقبيلته(٢) .

١- ج . م. هسى، العالم البيزنطى، تقديم وترجمة وتعليق رأفت عبد الحميد، القاهرة ، ١٩٩٧م، ص١٨٧ .

٢- انظر : محمد فؤاد كوبريللى ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة ، ١٩٩٣م، ص١١٦-١١٧ . مع أنه يرى أن الارتباط العثمانى بقبيلة القاى لم يكن بالشئ المميز.

انظر أيضًا الكتاب القيم الذى قام الباحث التركى جمال كفادار بكتابته . Cemal kafadar, Between Two worlds, the Construction of the Ottoman States, London , 1995 , p. 122

حيث يشير إلى أن يازجى زاده Yazici Zade هو أول مصدر مكتوب ١٤٣٠م يربط العثمانيين بقبيلة القاى.

وهكذا قامت الاماره العثمانية الجديدة فى شمال غرب آسيا الصغرى بالأناضول وعلى تخوم الدولة البيزنطية .

وكان من الطبيعي أن يبدأ العثمانيون بعد ذلك فى مد يد العون للسلاجقة فى اغاراتهم على المدن والقلاع البيزنطية. كما استولى العثمانيون أيضًا فى عهد أرطغرل (١٢٣١-١٢٨٨م) على بعض القلاع والممتلكات البيزنطية. وبدأوا - نتيجة لموقعهم الجيوبوليتيكى الفريد- فى التفكير فى توسيع رقعة امارتهم الوليده على حساب جيرانهم البيزنطيين .

وعلى الصعيد البيزنطى ، كان الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوغس Michael VIII Palaeologos (١٢٥٨-١٢٨٢)[١] قد اغتصب العرش من أسرة لاسكارس Laskaris فى نيقيه فى العام ١٢٥٨م، مما دفعه إلى مواجهة معها أسفرت عن تسريحه لأعداد كبرى من القوات البيزنطية المرابطة على الحدود الآسيوية بسبب موالاتها لأسرة لاسكارس [٢]. وهو الأمر الذى دفعه أيضًا إلى فرض الضرائب الباهظة عل السكان[٣]، من أجل مواجهة المتطلبات العسكرية، وهو ما أدى إلى تحول القوات البيزنطية المرابطة على الحدود الآسيوية تجاه العثمانيين .

وكذلك الأمر فقد رأى السكان المحليون أن تحولهم إلى الأتراك العثمانيين سوف يجعل أمورهم المعيشية أفضل حالاً مما هى عليه تحت قيادة الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوغس. وأدى هذا الأمر فى نهايته إلى تحول ميزان القوى لصالح العثمانيين . ففى الوقت الذى ازدادت فيه هجماتهم عنفًا وضراوة ، خبت مقاومة البيزنطيين إلى درجة كبيرة.

١- عن الدور التاريخى الهام للإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوغس ،. انظر.

اسحق عبيد، الدولة البيزنطية فى عصر ميخائيل باليولوغس ١٢٦١-١٢٨٢م، بيروت ، د.ت :

٢- Pachymers ,G, De Michaele Palaeologus , vol , I. ed . Bekke in, C.S. H. B, Bonne, 1885, pp. 221, 244-250 .

محمد فؤاد كوبريللى ، المرجع السابق، ص١٢٦-١٢٧ . لكنه أشار إلى أن قوات الاكريتاى Akritai البيزنطية . التى قام ميخائيل الثامن باليولوغس بتسريحها ، كانت تدعى بالخرائطية، حسب المصادر الإسلامية .

٣- Pachymers , Op. cit, pp. 221-22 .

وبعد وفاة أرطغرل ، خلفه ابنه عثمان (١٢٨٨-١٣٢٦م) ، الذى وجد مسرح الأحداث مهيأ لكى يواصل العثمانيون قضم الممتلكات البيزنطية، عبر التحالف مع عدد من قادة المدن والقلاع البيزنطية فى آسيا الصغرى، وتأليبهم ضد السلطة البيزنطية، وضد بعضهم البعض، وفشلت الدفاعات البيزنطية فى ايقاف الزحف العثمانى[١]، لدرجة أنه لم يتبق لبيزنطة فى شمال غرب آسيا الصغرى سوى مدن بروسه ونيقيه ونيقوميديا، والأقاليم التابعة لها، فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى.

وكان من الطبيعى أن ينتهز السلطان عثمان تدهور الأحوال السياسية والعسكرية للإمبراطورية البيزنطية، وأن يفكر فى الاستيلاء على مدينة نيقيه. وهو الأمر الذى توقعه الامبراطور البيزنطى أندرونيكوس الثانى باليولوغس Andromeue II Palaeologos (١٢٨٢-١٣٢٩م) فحاول ايقاف تقدم العثمانيين داخل أراضى وممتلكات بيزنطة، واعتبر عثمان من أخطر أعدائه الأتراك ، واستجمع الامبراطور قواته للتصدى للقوات العثمانية ، لكن الأخيرين استطاعوا تشتيت شمل الجيش البيزنطى فى العام ١٣٠١م بالقرب من مدينة قويون حصار (بافيوم)[٢] إلى مسافة ليست بعيدة عن مدينة نيقوميديا . وساعد هذا الانتصار على استتباب الأمور للعثمانيين فى آسيا الصغرى .

ارتفعت معنويات العثمانيين بعد هذا النصر، وهو ما شجعهم على الزحف باتجاه مدينة نيقيه الشهيره، وقاموا بفرض الحصار عليها ، وعلى الرغم من فشل العثمانيين فى اقتحام المدينة ، فقد فرضوا الحصار عليها من أجل اجبارها على الاستسلام، وهو الأمر الذى لم يحدث آنذاك.

١- انظر المصدر العثمانى الهام لابن عاشق باشا :

Asik Pasa oglu Tarihi , Hazirlayan , A. Nihal Atsiz, Ankara, 1985, pp. 18-19 .

٢- Pachymers, Op. cit, p. 327 .

محمد فؤاد كوبريللى، المرجع السابق، ص١٦٢ .

انظر أيضاً : ناهد عمر صالح السياسة الخارجية للدولة البيزنطية فى عهد الامبراطور اندرونيقوس الثانى باليولوغس ١٢٨٢-١٣٢٨م. رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة القاهرة، ١٩٩٩م، ص٨٢ .

بعد أن أتت سياسة عثمان ثمارها على صعيد العلاقات مع السلطة البيزنطية، ومع قادة المدن البيزنطية، أدرك الأخيرون مدى خطورة عثمان على مدنهم، فقاموا بتكوين حلف يهدف إلى تقويض سياسة عثمان عن طريق اجباره على تغيير بوصلة سياسته من الهجوم إلى الدفاع. وتجمعت قوات هذا الحلف البيزنطي من أجل مهاجمة عثمان فى عاصمته ينى شهر، لكن عثمان أدرك هدف أعدائه، وقام بالقضاء على تلك المحاولة فى مهدها ٧٠٧هـ - ١٣٠٧ م.

ويمكن اعتبار ذلك العام بمثابة نقطة الأنطلاق الحقيقة لفتوحات عثمان الكبرى على حساب المدن والأراضى البيزنطية . إذ نجح عثمان فى ازاحة القوى العسكرية لقادة المدن، مما فتح أمامه الطريق للاستيلاء عليها ، وهو الأمر الذى جرى بوتيرة سريعة بعد العام ١٣٠٧م.

وتطلع عثمان نحو الاستيلاء على مدينة بروسا Brusa لأهميتها الاستراتيجية فقام بعدة محاولات - لم تلق نجاحًا- لحصارها والاستيلاء عليها فى الأعوام ٧١٨هـ- ١٣١٨م، ٧٢٠هـ- ١٣٢٠م، ٧٢٢هـ - ١٣٢٠م، ٧٢٢هـ- ١٣٢٢م، مما دعاه إلى فرض حصار نهائى عليها. وتم اجبارها على التسليم عام ٧٢٦هـ- ١٣٢٦م [١]. حيث أبدى عثمان قدرًا كبيرًا من التسامح مع سكان بروسا. وترك لهم حرية البقاء بها أو الرحيل .

وكان من أبرز نتائج استيلاء العثمانيين على مدينة بروسه أن رسخت أقدام تلك القوة العسكرية الجديدة فى آسيا الصغرى، فى الوقت الذى تدهورت فيه مكانة بيزنطة وبدأ للعيان أن نجمها فى أفول .

قام السلطان الجديد أورخان ابن عثمان (١٣٢٦-١٣٥٩م) باتخاذ مدينة بروسا عاصمة جديدة للعثمانيين . وبعد أن قام بالتقاط أنفاسه ولّى وجهه صوب الاستيلاء على مدينتى نيقيه[٢] (التى استعصت على الفتح منذ حين). ونيقوميديا، وبدأ استراتيجية عسكرية تهدف إلى قطع خطوط الإمدادات البيزنطية نحو المدينتين .

أدرك الامبراطور أندرونيكوس الثالث باليولوغس Andronicus III Palaeologos (١٣٢٨-١٣٤١) مرمى السلطان أورخان . فاتجه على رأس جيش بيزنطى لانقاذ مدينة نيقيه ١٣٢٩م، حيث واجه القوات العثمانية عند بيلكانو (مالتبه Maltepe) ، والتى الحقت به هزيمة

١- Asik Pasa, Op. cit, pp. 36-38 ; Nicole, D, The Last Centuries of Byzantium , London 1972, p. 154 .

٢- Asik Pasa, Op. cit, pp. 46-47 ; Nicol, Op. cit. p. 174 .

ساحقة ، ومزقت شمل القوات البيزنطية، لدرجة أن الإمبراطور أندرونيكوس نفسه لحقت به إصابة فى هذه المعركة . ولم يكتف العثمانيون بهذا النصر ، بل تعقبوا فلول الجيش البيزنطى عند فيلوكرين Philocren فى طريقه تجاه القسطنطينية ، وأعملوا فيه القتل والأسر.

كان من أهم نتائج انتصار العثمانيين على البيزنطيين فى بيلكانو وفيلوكرين ١٣٢٩م، أن سقطت مدينة نيقيه فى يد العثمانيين دون قتال ٧٣١هـ - ١٣٣١م. حيث أبدى أورخان- كأبيه سياسة تسامحيه ازاء سكان المدينة، وخيرهم بين البقاء فيها أو الرحيل عنها .

استمر السلطان أورخان فى التوغل داخل الأراضى البزينطية الباقية فى آسيا الصغرى، مما أدى ببيزنطة إلى عقد معاهدة سلام مع العثمانيين فى العام ١٣٣٣م (١).

وعلى الرغم من هذا فإن البحرية العثمانية لم تلتزم بهذا الأمر، وتطلعت فى العام ١٣٣٧م إلى مهاجمة سواحل مدينة القسطنطينية . غير أن الأسطول البيزنطى - وبسبب خبرته البحرية الطويلة على العثمانيين- تمكن من دحر واغراق السفن العثمانية المهاجمة .

كان من أهم نتائج تلك المغامرة البحرية الفاشلة، أن اتخذ السلطان، أورخان قراره بضرورة الاستيلاء على مدينة نيقوميديا، التى عانت من الحصار العثمانى، وسلمت فى النهاية دون قتال ١٣٣٧م(٢). ومرة أخرى سمح أورخان لسكانها بحرية البقاء أو الرحيل .

وهكذا استولى العثمانيون على آخر المدن البيزنطية شمال غربى آسيا الصغرى، ووصلت الجيوش العثمانية إلى شواطئ البوسفور .

وجد الامبراطور أندرونيكوس الثالث باليولوغس نفسه فى موقف عسكرى لايحسد عليه، فقد وصل أعداؤه العثمانيون إلى ساحل مضيق البوسفور ، وأصبحوا يواجهون الآن المدينة العظمى، القسطنطينية، مباشرة .

١- نصت المعاهده على أن يدفع الامبراطور البيزنطى أندرونيكوس الثالث باليولوغس ١٢٠ ألف هيبربيرون للعثمانيين، وأن تبقى الأراضى البيزنطية فى بيثينيا بآسيا الصغرى فى قبضة البيزنطيين مع اعتراف الامبراطور البيزنطى بالممتلكات العثمانية الجديدة فى آسيا الصغرى. وأن تكون مدة هذه المعاهدة عشرين عامًا . انظر:

وانظر أيضًا ، صلاح ضبيع ، العلاقات السياسية بين العثمانيين والامبراطورية البيزنطية فى عصر آل باليولوغس ١٢٦١-١٤٥٣م، رسالة دكتوراه لم تنشر ، جامعة جنوب الوادى ، مصر ، ١٩٩٨م، ص٩١-٩٢ .

٢- Asik Pasa , Op. cit, pp. 50-51 .

وفى محاولة منه لايقاف المد العثمانى نحو القسطنطينية، أصدر الامبراطور مرسومًا قضى فيه باعدام كل من يقوم بالمساعدة فى رسو أية سفينة عثمانية فى مضيق البوسفور أمام غاليبولى Gallipoli ، لأنه كان يأمل أن يستمر ذلك الحاجز الطبيعى حائلاً بينه وبين تطلعات السلطان أورخان والعثمانيين نحو العبور إلى أوربا، والاستيلاء على العاصمه القسطنطينية.

وعلى أثر وفاة الامبراطور أندرونيكوس الثالث باليولوغس ١٣٤١م، نشبت حرب أهلية بين أرملته الامبراطورة أنا Anna الوصية على ابنه يوحنا باليولوغس[١]، وبين يوحنا كانتاكوزينوس John Cantacuzenus الذى كان وصيًا عليه أيضًا . فلم تجد الإمبراطوره بدًا من الاستنجاد بالسلطان العثمانى أورخان، الذى قبل مساعدتها ، وفى نفس الوقت قام يوحنا كانتاكوزينوس بطلب المساعدة من أورخان مقابل أن يقوم بتزويجه من ابنته الأميره ثيودورا Theodora . فاختار أورخان أن يهبّ لمساعدة كانتاكوزينوس .

والحقيقة أنه من المفارقات التاريخية التى لايجب أن تغيب عن بالنا، أن العبور العثمانى الأول نحو القارة الأوربية كان بناء على طلب الامبراطور البيزنطى يوحنا السادس كانتاكوزينوس (١٣٤٧-١٣٥٥م) الذى استنجد بأورخان، فانتهز الأخير الفرصة وأمده بقوات تتألف من عشرة آلاف مقاتل ساهمت فى تثبيت كانتاكوزينوس على العرش البيزنطى ١٣٤٧م مع يوحنا باليوغولس ، فضلاً عن زواج أورخان من الأميرة ثيودورا [٢].

واجتمع الامبراطور يوحنا السادس كانتاكوزينوس مع السلطان أورخان فى نفس العام عند اسكوتارى Scutari ، وطلب منه – مرة أخرى– المساعدة فى حربه ضد الصرب. فاستجاب أورخان وأرسل له عشرين ألف مقاتل عثمانى ١٣٤٩م، ونجحت تلك القوة العثمانية بعد ذلك بثلاث سنوات ١٣٥٢م فى سحق الصرب فى معركة ايمبيثيون[٣] على نهر ماتيزا Matiza .

١- Doukas, Decline and Fall of Byzantium to the Ottaman Turks. Trans . by , Harry J. Magoulias . Detroit, 1975 , pp. 64 , 71 , 75 , 76 .

٢- Doukas, Op. cit, pp. 71-73 ; Nicol , Op. cit, p. 209 .

٣- Dolger , Op. cit., T.S, p 33 .

لكنه يحدد تاريخها بالعام ١٣٤٩م : انظر أيضًا ، صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص١٠٧-١٠٨ .

وهكذا استغل العثمانيون فرصة الحرب الأهلية البيزنطية للحصول على موطئ قدم لهم فى القاره الأوربية ، ذلك الموطئ الذى لم يقوموا بالتزحزح عنه قيد أنملة، حتى نجحوا فى النهاية فى الاستيلاء على العاصمة البيزنطية ١٤٥٣م.

على أية حال واصل العثمانيون سياسة الاستيلاء على الأراضى البيزنطية فى القاره الأوربية، فاستولوا على مدينة غاليبولى فى العام ١٣٥٤م(١)، ومنها انطلقوا نحو الاستقرار فى أراضى البلقان .

لم يجد الامبراطور يوحنا السادس كانتاكوزينوس أمامه سوى استخدام أسلوب المفاوضات مع السلطان العثمانى أورخان ، وابنه سليمان ، من أجل استعادة الأراضى البيزنطية التى استولى العثمانيون عليها ، لكن أورخان وابنه رفضا ذلك ، وتمسك العثمانيون بممتلكاتهم الجديدة فى أوربا .

وكان من نتيجة ذلك الرفض العثمانى أن اعتبر الشعب البيزنطى أن الامبراطور كانتاكوزينوس هو المسئول المباشر عن استقرار العثمانيين فى البلقان وهو الأمر الذى دفع الامبراطور إلى التنازل عن العرش البيزنطى أواخر العام ١٣٥٤م(٢).

ومن ناحية أخرى واصل سليمان ابن أورخان فتوحاته فى الأراضى البيزنطية فى البلقان ، وقام بالاستيلاء العديد من المدن والقلاع أهمها مدينة ديموطيقيا ١٣٥٧م(٣).

١- Asik Pasa, Op. cit, pp. 51-53 ' Dolger, Op. cit, T.S. p. 36 ; Nicol, Op. cit, pp. 253-254.

وحول الاختلاف على تاريخ استيلاء العثمانيين على المدينة انظر:

Charanis, p. On The Date of The Occupation of Gallipoli , by The Turk, in Social , Economic and Political Life in the Byzanatine Empire, London , 1973, pp. 113-117

٢- تنازل يوحنا السادس كانتاكوزينوس عن العرش البيزنطى فى الرابع من ديسمبر ١٣٥٤م . وانضم إلى سلك الرهبنة فى دير بيربليبتوس Peribleptos ، انظر

Doukas, Op. cot, p. 78

٣- Asik Pasa, Op. cit., p. 55 .

وازداد نجم العثمانيين صعوداً ، فبعد أن اعتلى السلطان مراد الأول (١٣٥٩-١٣٨٩م) العرش العثماني خلفًا لوالده أورخان ، استمرت الفتوحات العثمانية التى اجتاحت مدن (أدرنه) Adrianople [(١)]. وفيليبوبوليس Philipopolis فى الأعوام ١٣٦١م، ١٣٦٣م، الأمر الذى دعا الامبراطور البيزنطى يوحنا الخامس باليولوغس John V Palaeologos (١٣٥٥-١٣٧٦م) إلى ادراك خطورة موقفه، وخطورة وضع مدينة القسطنطينية ، فعقد اتفاقية سلام مع مراد الأول، اعترف فيها بالسلطان العثماني سيداً له [(٢)]. فى العام ١٣٦٢م.

تغاضت البابوية الكاثوليكية عن التوسع العثمانى فى أراضى وممتلكات الامبراطورية البيزنطية الارثوذكسية . وعندما اقترب التهديد العثمانى الإسلامى من الدول الأوربية التى تدين بالمذهب الكاثوليكي، والخاضعه لسلطة البابا الروحية، سعى البابا اربان الخامس Urban V (١٣٦٢-١٣٧٠م)[(٣)] لاعداد حملة صليبية ضد العثمانيين بقيادة أماديو السادس كونت سافوى Amadio VI of Savoy [(٤)]، لكن تلك الحملة - المباركة من البابوية والغرب- لم تنجح سوى فى استرجاع مدينة غاليبولى ١٣٦٦م[(٥)]، وبعض القلاع على بحر مرمرة .

١- Asik Pasa, Op cit, pp. 57-58 .

القرمانى (ابن العباس أحمد بن يوسف الدمشقى) أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ ، بيروت ، د.ت ، ص٢٩٩ .

Zachariadou, E, " The Conquest of Adrianople by The Turks" in , S.V , XII, 1970, pp. 211-217 .

٢- Nicol, Op. cit, p. 273 .

٣- هو سادس بابوات أفينيون Avignon . كان اسمه الحقيقى وليم دى جريمورد Guillaume de Grimoard . ودرس فى مونبليه وتولوز ومارسيليا . تم اختياره خليفة للبابا انوسنت الرابع بينما كان فى مهمة فى نابولى . قدم مساعدة للبيزنطيين ١٣٦٤م لمقاومة الأتراك : أنظر Kelly , J.N. Oxford Dictionary of Popes, Oxford, 1986, pp. 223-225 .

٤- منح البابا اربان الخامس أماديو السادس كونت سافوى حق الامتيازات المالية كأمير صليبى ، كالهبات والعشور والمساعدات المالية، طبقًا لما هو سائد فى كونتية سافوى وكافة الأراضى الموجودة تحت يده انظر : Atiya , A.S, The Crusades in the Later Middle Ages, London , 1938 , pp. 380-381 ; Nicol, Op. cit., p. 276 .

٥- Nicol, Op. cit, pp. 276-277 .

بعد نجاح العثمانيين فى اكتساح منطقة البلقان، أدرك البيزنطيون الخطر الداهم الذى يتربص بهم، وحاولت السياسة البيزنطية استمالة الغرب الأوربى من أجل الوقوف فى وجه الخطر العثمانى (١). وبدأ الامبراطور يوحنا الخامس باليولوغس فى تكثيف اتصالاته بالغرب اللاتينى عارضًا وحدة كنيستى القسطنطينية وروما. على حين ظلت غالبية الشعب البيزنطى تؤيد كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية فى رفضها سياسة يوحنا والاتحاد الكنسى ، وهو ما دفع البابوية إلى عدم تقديم أى دعم حقيقى للامبراطور البيزنطى .

وعلى أية حال ، بدأ العثمانيون بقيادة السلطان مراد الأول توسيع دائرة نفوذهم فى أوربا على حساب الامبراطور البيزنطية والصرب، وأكبر دليل على ذلك هو انتقال البلاط العثمانى من آسيا إلى تراقيا Trace ، واستقرار السلطان العثمانى فى العاصمة الجديدة أدرنه منذ العام ١٣٦٥م.

وبعد فشل رحلة الامبراطور يوحنا الخامس باليولوغس إلى الغرب من أجل استجداء المساعدة لانقاذ القسطنطينية ، أقدم على ما كان لابد وأن يقدم عليه ، فعقد معاهدة سلام مع السلطان مراد الأول فى العام ١٣٧٢م(٢) تعهد فيها بدفع جزية سنويه للسلطان العثمانى، والاعتراف به سيداً له، مع تقديم العون العسكرى له وقت الحاجة.

وهكذا أصبحت الامبراطورية البيزنطية - بمقتضى تلك المعاهدة- مرتبطة بالأتراك العثمانيين من الناحية العملية، وأصبح الامبراطور البيزنطى العريق مجرد تابع اقطاعى عليه أن يؤدى الالتزامات العسكرية نحو سيده العثمانى .

١- Nicol , Op. cit , p. 284 .

٢- Ibid, p. 287 .

لكن البروفسير نيقول يعتمد على ما ذكره المؤرخ البيزنطى خالكوكونديليس Chalcocandylas .

على أية حال فإن هذه المعاهدة نصت على أن يدفع الامبراطور يوحنا جزية سنوية للسلطان مراد الأول، وكذا تقديم الخدمة العسكرية له، وترك ابنه مانويل رهينة لديه، فضلاً عن السماح لكل من يرغب من العثمانيين بحرية الدخول إلى القسطنطينية كل ذلك مقابل أن يغض السلطان مراد الطرف عن الامبراطور يوحنا ، وأن يسمح له بحكم القسطنطينية وسالونيك وبعض الجزر فى بحر ايجه

وتوجد مناقشه جيده للأسباب الحقيقية التى جعلت الامبراطور البيزنطى لايجد أمامه مفراً سوى الخضوع للسلطان العثمانى، من أجل انتظار المسانده الغربية ، ومن أجل الحفاظ على وحدة الجبهة الداخلية، وحتى لايقوم ابنه اندرونيكوس بالثوره ضده. انظر: صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص١٣٨ .

ولم يكتف العثمانيون بهذا، فنجحوا في دحر الصرب مرتين الأولى عام ١٣٧١م[١]، والثانية في كوسوفو ١٣٨٩م[٢]، التي سميت بمرج الشحارير ، حيث خضع الصرب والبلغار بعدها للدولة العثمانية .

وانعكست العلاقة الطيبة بين السلطان مراد الأول والامبراطور يوحنا الخامس باليولوغس على ولديهما ساوجي شلبي، واندرونيكوس ، اللذان احتفظا معًا بعلاقات صداقة ومودة . وفكرا أيضًا في اعتلاء الحكم عبر القيام بثورتين ضد والديهما .

أدرك السلطان مراد أبعاد المؤامرة الخاصة به ، ونجح في القضاء على الثورة وقتل ابنه الطامح إلى العرش[٣]. وعلى الصعيد البيزنطي نجح الامبراطور اندرونيكس أيضًا في التصدي لطموحات ابنه، وزج به في السجن بعد أن سمل عينيه [٤].

وعلى الرغم مما جرى لأندرونيكوس الابن، فقد تمكن من الهرب من محبسه بعد ثلاث سنوات ١٣٧٦م، ولجأ إلى الجنويه في مستعمرة Galata غلطة التجارية [٥]. وعاود من هناك اتصالاته بالسلطان مراد طالبًا مساعدته في اقتحام القسطنطينية مقابل بعض التنازلات للعثمانيين. وبالفعل نجح أندرونيكوس -بفضل المساعدة العسكرية الكبيرة التي قدمها له السلطان مراد- في دخول القسطنطينية في منتصف عام ١٣٧٦م، حيث قام بالقاء القبض على والده الامبراطور يوحنا الخامس باليولوغس، وأخويه مانويل وتيودور [٦].

وكما سبق أن تمكن اندرونيكوس من الهرب من من سجنه ، تمكن أيضًا والده الامبراطور السابق يوحنا الخامس وولديه من الفرار بعد ثلاث سنوات من السجن ١٣٧٩م[٧]. وكما هي

١- Asik Pasa, Op. cit, pp. 59-60 .

٢- Ibid, p. 56 . Housley , N , The Later Crusades. from Lyons to Alcazar 1274-1580 , Oxford , 1992 , pp. 71 , 77 , 86 , Nicol, Op. cit, p. 300 .

٣- Doukas, Op. cit, p. 79 .

٤- Ibid, p. 80 .

٥- Loc. cit .

٦- Loc. cit .

٧- Loc. cit . الذي يذكر أن فترة سجنهما كانت سنتين .

وانظر أيضًا Nicole, Op. cit, p. 292 .

العادة توجهوا جميعًا لاستجداء المساعدة من السلطان مراد الأول، وعقد الطرفان معاهدة من أجل عودة يوحنا الخامس إلى العرش البيزنطي في مقابل تقديم العديد من الامتيازات والتنازلات للسلطان العثماني [١].

وهكذا تمكن يوحنا الخامس باليولوغس – بفضل المساعدة العسكرية العثمانية– من دخول القسطنطينية في منتصف عام ١٣٧٩م، وهرب ابنه أندرونيكوس –ثانية– إلى الجنوية في غلطة.

وبعد عامين من المفاوضات حول أحقية الأب والابن بالعرش البيزنطي، تم التوصل إلى صيغة تسوية في العام ١٣٨١م ، تقضي بأن يرث اندرونيكوس عرش والده بعد وفاته .

وأراد مانويل ابن الإمبراطور يوحنا الخامس أن يخرج من فكاك التبعية للسلطان العثماني، فقام العثمانيون بحصار مدينة سالونيك Thessalonic والاستيلاء عليها في أبريل ١٣٨٧م [٢]. حيث هرب مانويل من المدينة ، وسعى إلى الاختباء عند أحد أصدقائه من حكام المدن، لكنهم رفضوا جميعًا استقباله ، وحتى القسطنطينية نفسها رفضت استقباله خشية غضب السلطان مراد.

وهكذا لم يجد مانويل أمامه مفرًا من التوجه بنفسه إلى السلطان مراد في عاصمته بروسه، وتقديم فروض الطاعه والولاء لسيده العثماني.

ويمكننا أن ندرك من الأحداث السابقة مقدار النفوذ العثماني في القسطنطينية في الربع الأخير من القرن الرابع عشر الميلادي، وكيف كان السلطان مراد الأول هو الرقم الصعب في

١– نصت المعاهدة على أن يدفع الإمبراطور يوحنا الخامس باليوغولس ثلاثين ألف بيزانت كجزية سنوية للسلطان مراد الأول . وأن يقدم له – مع ابنه مانويل– فروض الطاعة والولاء تجاه سيدهم العثماني . وأن يقومون بتزويده بفرقة عسكرية بيزنطية بشكل سنوي للمساعده في حروب السلطان العثماني . وبالإضافة إلى ذلك يتنازل الإمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس عن مدينة فيلادلفيا للسلطان مراد. وتتبع أهمية هذه المدينة أنذاك من كونها آخر الممتلكات البيزنطية في آسيا الصغرى. عن ذلك انظر :

Charanis , p. An Important Short Chronicle of the Fourteenth Century, in Social , Economic and Political Life in the Byzantine Empire , pp. 335-362 .

٢– Nicol, Op. cit, pp. 296-298 ; Charanis, Op. cit, p. 359 .

معادلة التسوية السياسية بين العثمانيين والبيزنطيين. والحقيقة أن علاقة التبعية التى ربطت أفراد أسرة باليولوغس الحاكمة فى القسطنطينية ، بالسلطان العثمانى مراد الأول لم تنته إلاّ بوفاة الأخير فى معركة كوسوفو منتصف ١٣٨٩م.

اعتلى السلطان بايزيد الأول (١٣٨٩-١٤٠٢م) العرش العثمانى، بعد وفاة والده مراد الأول، واستمر فى متابعة السياسة العثمانية الرامية إلى التدخل فى الصراعات العائلية بين أفراد أسرة باليولوغس فى القسطنطينية، فأقدم بايزيد على مساعدة يوحنا السابع ابن اندرونيكوس الرابع فى دخول القسطنطينية ١٣٩٠م. لكن الامبراطور يوحنا الخامس تمكن من طرد يوحنا السابع وقواته من المدينة .

مارس السلطان بايزيد علاقة التبعية بين العرشين العثمانى والبيزنطى، فأصدر أوامره للامبراطور يوحنا الخامس بأن يرسل إليه ابنه الأمير مانويل على رأس قوة تتألف من مائة مقاتل بيزنطى، ولم يكن أمام الامبراطور الضعيف سوى تنفيذ تلك الأوامر ، فأرسل ابنه مانويل الذى ساعد السلطان بايزيد فى الاستيلاء على مدينة فيلادلفيا آخر معاقل البيزنطيين فى آسيا الصغرى .

استغل الامبراطور يوحنا الخامس غياب السلطان بايزيد فى آسيا الصغرى ، وقام باجراء بعض الاصلاحات والترميمات فى أسوار القسطنطينية[1]، الأمر الذى أثار غضب بايزيد، وهدد الامبراطور البيزنطى بسمل عينى ابنه مانويل الموجود لديه، إذا لم يقم بهدم التحصينات والترميمات التى قام بها فى أسوار المدينة [2].

وهكذا فلم يكن أمام يوحنا الخامس بدٌ من هدم ما قام به من اصلاحات ، ويبدو أن أن الامبراطور البيزنطى لم يستطع تحمل كل تلك المهانات الموجهة من قبل السلطان العثمانى ، فمات فى أوائل العام ١٣٩١م.

علم مانويل بوفاة والده ، وهو فى معسكر السلطان بايزيد فى آسيا الصغرى، فتسلل هاربًا من المعسكر العثمانى [3]، ووصل إلى القسطنطينية حيث اعتلى العرش البيزنطى (١٣٩١-١٤٢٥م) .

١- Doukas, Op. cit., p. 82 .

٢- Loc. cit .

٣- Loc. cit .

استمر السلطان بايزيد فى ممارسة علاقة التبعية مع الامبراطور الجديد مانويل، وأصدر إليه العديد من الأوامر، التى أبدى مانويل تذمره منها، الأمر الذى جعل السلطان العثمانى يوجه إليه رسالة ضمنها عبارته الشهيرة «إذا لم تكن راغباً فى تنفيذ أوامرى ، فأغلق عليك أبواب مدينتك (القسطنطينية)، واحكم داخلها ، فكل ما وراء الأسوار ملك لى»(١).

غير أن الإمبراطور مانويل أعلن رفضه وتذمره من العلاقة التى تضمن تبعيته للسلطان بايزيد، وعندها توجه السلطان العثمانى بقواته إلى تراقيا، ثم تقدم نحو القسطنطينية لحاصرتها(٢). ولم ينته الحصار إلاّ بعد رضوخ الامبراطور البيزنطى مانويل لمطالب بايزيد، والتى كان من ضمنها ضرورة انشاء مسجد جديد فى القسطنطينية .

وعادت العلاقات الطبيعية بين مانويل والسلطان بايزيد ، حيث قدم الأول على رأس قواته إلى آسيا ١٣٩١م لمساعدة بايزيد فى حروبه هناك .

وأمر السلطان بايزيد بضرورة عقد اجتماع فى مدينة سارديس Sardis فى نهاية ١٣٩٣م وبداية ١٣٩٤م ، قام فيه بجمع كافة حكام المدن التابعين له ، من أجل تكريس المزيد من تبعيتهم له، وتقديم المساعده العسكرية بشكل دائم(٣).

١- Doukas , Op. cit, p. 83 .

فى الحقيقة فإن السلطان العثمانى بايزيد كان يهدف إلى اذلال الامبراطور الجديد مانويل، إذ أرسل إليه طلب منه – على وجه السرعة– استقبال وتعيين قضاة مسلمين من أجل تسيير شئون التجار العثمانيين بالقسطنطينية الذين لايجب أن يمثلوا بين أيدى قضاة بيزنطيين بعد الآن. كما أنه يجب على الامبراطور تخصيص حى كامل فى القسطنطينية لاقامة هؤلاء التجار المسلمين الذين يحق لهم ممارسة شعائر دينهم حرية تامة . ولم ينس السلطان بايزيد تذكير مانويل بضرورة دفع الجزية السنوية التى قام أبوه يوحنا لخامس بدفعها، وأن يكرس فى النهاية تبعيته المطلقة للسلطان العثمانى .

واضطر مانويل – نتيجة لحرج موقفه– إلى قبول شروط السلطان بايزيد، فأقام محكمة إسلامية، وحيًا سلاميًا فى منطقة سيركجى Sirkeci تحت حراسة حامية عثمانية ، بالإضافة إلى موافقته على تشييد مسجد جديد فى الحى الإسلامى انظر: صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص١٦٥ .

٢- Asik Pasa, Op. cit, pp. 68-69 .

٣- Nicol, Op. cit, p 314 .

ومرة أخرى قرر الامبراطور مانويل التخلص من علاقة التبعية السلطان بايزيد ، فكان رد الأخير أن قام بحصار القسطنطينية ١٣٩٤م(١)، وبدأ فى تنفيذ تهديده السابق لمانويل ، إذ استولت قواته على جميع ممتلكات الامبراطور خارج أسوار المدينة. وبدا أن مسرح الأحداث قد أصبح مهيأً لسقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين هذه المرة.

ولم يكن أمام الامبراطور البيزنطى إلا أن يتوجه - كما فعل والده من قبل- نحو الغرب الأوربى، يناشده حماية القسطنطينية التى ظلت قرونًا طويلة حصن الأمان الشرقى للعالم الأوربى المسيحى (٢).

لكن مناشدة الامبراطور مانويل لم تثر فى الغرب سوى الشعور بالعطف، إذ ذهبت نداءاته ادراج الرياح، ولم تصله سوى تطمينات معنويه، ووعد - لم يتحقق أبدًا- بالمساعدة . ومكث الامبراطور فى باريس ينتظر وصول خبر سقوط القسطنطينية ، بين يوم وآخر ، فى الوقت الذى توجهت فيه سفارة من النبلاء البيزنطيين إلى آسيا الصغرى من أجل تسليم مفاتيح مدينة القسطنطينية للسلطان بايزيد الأول(٣).

١- Doukas , Op. cit, pp. 83-86 ' Asik Pasa Op. cit, pp. 68-70 .

٢- Doukas , Op. cit, p. 83 .

أرسل الامبراطور مانويل أولاً برسائله إلى البابا، وإلى ملك فرنسا وإلى حاكم المجر يخبرهم فيها بحصار القسطنطينية واقتراب سقوطها. فى أيدى أعداء المسيحية . وذلك قبل أن يغادر القسطنطينية فى العاشر ديسمبر ١٣٩٩م برفقة كبار النبلاء ورجال الدين البيزنطيين . وصل الإمبراطور إلى البندقية ١٤٠٠م، ثم إلى بافيا وميلان ، ومنها تحرك ركبه حتى الحدود الفرنسية ، حيث اصطحبته فرقة من الضباط أرسلها شارل السادس ملك فرنسا الذى رحب بالامبراطور البيزنطى فى باريس. وقام بترتيب اجتماعات له مع ملوك قشتالة وأراجون.

وفى نفس العام ١٤٠٠م، غادر مانويل فرنسا متجهًا إلى انجلترا عبر ميناء كاليه لمقابلة الملك هنرى الرابع . والحصول على نجدة عسكرية ثم غادر لندن فى منتصف العام ١٤٠١م إلى باريس مرة أخرى.

وعن وجود الامبراطور مانويل الثانى فى انجلترا انظر .

Nicole , D, A Byzantine Emperor in England . Manuel's Visit to London in 1400-1401:, in Byzantium : its ecclesiastical history and relations with Westen World . London , 1972 , pp. 204-225 .

٣- Barker, J.W, Manuel II Palaeologus, 1391-1425 . A Study in Later Byzantine Statesmanship, New Jersey , 1969, p. 215 .

وهكذا كانت القسطنطينية على وشك السقوط النهائى فى أيدى العثمانيين فى بداية القرن الخامس عشر الميلادى، لولا تدخل القدر ليزيد من عمر بيزنطه نصف قرن جديد. فقد تنامت قوة المغول فى نهاية القرن عشر تحت قيادة تيمور لنك Timerlane ، ولم يحاول السلطان العثمانى بايزيد أن يتجنب الاستفزازات المغولية حتى ينتهى مشروعه الحربى باسقاط القسطنطينية ، وربما فكر بايزيد فى القضاء على الخطر المغولى فى شرق السلطنه العثمانية ، على أن يعود بعد ذلك لمعاودة حصاره للقسطنطينية التى كانت آنذاك بلا حول ولا قوة بشكل فعلى. وهنا كان خطؤه القاتل .

على أية حال نجح تيمور لنك فى ايقاع هزيمة مروعة بالجيش العثمانى فى معركة أنقرة ١٤٠٢م، بل أنه تمكن من أسر السلطان بايزيد نفسه، الذى مات فى الأسر بعد عدة أشهر(١).

انعكست آثار هزيمة العثمانيين فى موقعة أنقرة على مسرح الأحداث داخل السلطنة العثمانية، وفى بيزنطه ، فقد مكّن الانتصار المغولى ، وزوال الخطر العثمانى عن القسطنطينية، الامبراطور مانويل من العودة إلى عرشه بالقسطنطينية كما اضطر الأمير سليمان ابن

١- تعد معركة أنقره ٨٠٤هـ / ١٤٠٢م من أهم المعارك العسكرية فى العصور الوسطى . لآثرها على كافة القوى بالمنطقة. عن ذلك انظر:

ابن عربشاه (ابى العباس شهاب الدين بن محمد الدمشقى) ، عجائب المقدور فى نوائب تيمور ، تحقيق فايز الحمصى ، بيروت ، ١٩٨٦، ص٢١٩-٢٣١ ؛ ابن العماد والحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ج٧، بيروت ، ب.ت، ص٤٧ .؛ ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج١٢ ، القاهرة ، د.ت ، ص٢٦٧-٢٦٨ ويذكر ابن تغرى بردى، أنها حدثت فى السابع والعشرين من ذى الحجة ٨٠٤هـ .

Asık Pasa, Op. cit, pp. 75-81 , Doukas , Op. cit, pp. 90-95 .

Nicol , Op. cit , pp. 329-330 ' M.M , Alexandrescu - Dersc, La Campagne de Timur en Anatolie 1402. London , 1972, pp. 68-79 .

انظر أيضاً : جوزيف داهموس ، سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحى الشاعر، القاهرة، ١٩٩٢، ص١٨١-٢٠٦ .

السلطان بايزيد على التوقيع على اتفاقية مهينة فى العام ١٤٠٣م ، مع يوحنا السابع باليولوغس، الامبراطور الشريك فى القسطنطينية[١].

جاء اختفاء السلطان بايزيد الأول مؤذنًا بنشوب حرب أهلية بين أبنائه [٢]، وقام الامبراطور مانويل بدور كبير فيها عن طريق تغذية روح الغيرة والكراهية بين الأخوة.

على أية حال ، انتهت تلك الحرب الأهلية بانفراد السلطان محمد الأول (١٤١٣-١٤٢١)[٣] بالعرش العثمانى وشهدت العلاقات البيزنطية العثمانية هدوءًا فى عهده مما سمح للامبراطورية البيزنطية بالتقاط أنفاسها . كما ارتبط بعلاقة صداقة مع الامبراطور البيزنطى لدرجة أنه أوصى- وهو على فراش الموت - بارسال اثنين من أبنائه ليكونا تحت وصاية الامبراطور البيزنطى .

بعد وفاة السلطان محمد الأول ، اعتلى العرش العثمانى ابنه مراد الثانى (١٤٢١-١٤٥١م)[٤]، فأرسل له الامبراطور مانويل رسالة تطالبه تنفيذ وصية والده، وارسال اثنين من إخوته للقسطنطينية ليكونا تحت وصاية الامبراطور .

وعندما رفض السلطان مراد الأول طلب الامبراطور مانويل ، قام الأخير بايقاظ الفتنة النائمة حول العرش العثمانى ، فأطلق سراح الأمير مصطفى الذى ادعى أنه ابن السلطان بايزيد ، وقدم له مساعدة عسكرية مكّنته من الاستيلاء على بعض الأراضى العثمانية فى

١- Dolger , Op. cit, p. 75 ; Dennis, S.J, The Byzantine - Turkish Treaty 1403" in, O.C.P, vol , XXXIII, 1967 , pp. 72-88 .

والحقيقة أن سليمان بن بايزيد – ونتيجة لحرج موقفه – قدم العديد من التنازلات لكل من الامبراطور يوحنا ، وجنوا، والبندقية والصرب. انظر ترجمة معاهدة ١٤٠٣م عند صلاح ضُبيع ، المرجع السابق، ص٢٠٢-٢٠٤ .

وقد أشار ابن تغرى بردى أيضًا إلى صلح سليمان مع البيزنطيين . انظر النجوم الزاهرة ، ج١٢ ، ص٢٦٩ .

٢- Asik Pasa , Op. cit, pp. 83-85 .

ابن عربشاه ، المصدر السابق ، ص٢٣٤-٢٣٦ ،

Doukas, Op. cit., pp. 100-103 , 105-106 .

٣- Asik Pasa, Op. cit, pp. 84-85 .

٤- Ibid, p. 93 .

القارة الأوربية، وهو الأمر الذى دفع السلطان مراد للتصدى له بجدية حتى تم القضاء عليه، وعلى دعواه .

وأراد السلطان مراد الأول معاقبة الامبراطور مانويل على دوره فى الفتنة السابقة، فأعلن عليه الحرب، وقام بحصار القسطنطينية ١٤٢٢م، حتى بدأ أن المدينة على وشك السقوط . فاستخدم الامبراطور مانويل سلاح الدبلوماسية البيزنطية مرة أخرى ، إذ فكر فى ضرورة جذب انتباه السلطان إلى جبهة أخرى. ونجح فى التحريض على ثورة تهدد الممتلكات العثمانية فى آسيا الصغرى. وهو ما اضطر السلطان مراد الأول إلى رفع الحصار عن القسطنطينية والتوجه نحو اخماد هذه الثورة . حيث استطاع السلطان العثمانى القضاء على تلك الثورة تمامًا(١).

وهكذا ظهر للجميع استعادة العثمانيين لعافيتهم المفقوده منذ هزيمة أنقره ١٤٠٢م. وبدأ العثمانيون فى اعادة تنظيم قواتهم واستعادة موقعهم السابق كخطر يهدد القسطنطينية باستمرار . وهو ما أفضى فى النهاية إلى قيام معاهدة بين السلطان مراد الثانى والامبراطور مانويل فى العام ١٤٢٤م(٢)، تنازل فيها الامبراطور عن جميع الامتيازات التى حصلت عليها بيزنطه طبقًا لمعاهدة ١٤٠٣م، التالية لمعركة أنقره مباشرة ، والتى تم توقيعها بين الأمير سليمان ويوحنا السابع .

كان من أهم نتائج معاهدة ١٤٢٤م أن عادت الأمور بين العثمانيين والبيزنطيين لما كانت عليه قبل العام ١٤٠٢م . وهو ما جعل الأنظار تتجه من جديد نحو القسطنطينية .. الهدف النهائى للعثمانيين .

اعتلى آخر الأباطرة البيزنطيين قسطنطين الحادى عشر Constantine XI العرش البيزنطى

١- Asik Pasa, Op. cit, pp. 94-99 .

٢- بعد أن قوى موقف العثمانيين عن ذى قبل نجح السلطان مراد الثانى- فى هذه المعاهدة- فى ارغام الامبراطور مانويل على دفع جزيه سنويه تقدر بثلاثمائة ألف دوكات Ducat ، وأن يسلم له المدن والقلاع البيزنطية بطول سواحل البحر الأسود، بالإضافة إلى الأراضى المحانية لنهر استريمون Strimon ، وجبل اثوس Athos، وسالونيك ، انظر: Doukas , Op. cit, p. 169 ; Nicol, Op. cit , p. 350

صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص٢٤٢ .

(١٤٤٨-١٤٥٣م) [١]، وكان سيئ الحظ، إذ ورث أوضاعًا سياسية واقتصادية وعسكرية مضطربه . ولم يكن أمامه الكثير ليقوم بفعله، سوى المحافظة على العلاقات الطيبه مع العثمانيين[٢]، والقيام - فى نفس الوقت- بالاستنجاد بالغرب الأوربى لانقاذ القسطنطينية.

وفى الوقت الذى ظل فيه السلطان مراد الثانى على علاقته الطيبه بالعرش البيزنطى، فإن الغرب الأوربى تقاعس فعليًا عن مد يد العون العسكرى للامبراطور ، إلاّ بعد أن تعلن كنيسة القسطنطينية الارثوذكسية اتحادها مع كنيسة روما الكاثوليكية، وهو الأمر الذى رفضه بطاركة القسطنطينية [٣]، والشعب البيزنطى حتى النهاية.

وبمجرد اعتلاء السلطان محمد الثانى (١٤٥١-١٤٨١م) للعرش العثمانى، بدأ فى العمل لتحقيق الانجاز الذى كان أبيه وأجداده على وشك تحقيقه أكثر من مرةُ ، وهو فتح القسطنطينية ، فاستهل عهده باتفاقية سلام مع الامبراطور قسطنطين الحادى عشر تعهد له فيها بعدم الاعتداء على القسطنطينية [٤]. كما عقد اتفاقيات بنفس المعنى مع سفراء بلغاريا ،

١- Nicol, Op. cit, p. 390-391 .

الذى يذكر أنه جرى تتويج قسطنطين الحادى عشر امبراطورًا فى ميسترا Mistra فى السادس من يناير ١٤٤٩م. ولم يدخل مدينة القسطنطينية سوى فى الثانى عشر من مارس ١٤٤٩ م.

٢- Nicol , Op. cit, p. 391 .

حيث يذكر أنه بمجرد دخول الامبراطور قسطنطين للقسطنطينية قام بارسال سفير للسلطان العثمانى مراد الثانى من أجل تقديم التحية والولاء، وكذلك من أجل بحث عقد اتفاقية سلام بينهما.

٣- اعترض البطريرك جورج اسكولاريوس George Scholarius على فكرة الاتحاد الكنسى، وعندما رأى أن الظروف السياسية ، والتهديد العثمانى للقسطنطيين سوف يؤدى فى النهاية إلى اقرار وحدة الكنائس على عير رغبة كنيسة القسطنطينية الارثوذكسية ، والشعب البيزنطى، لم يجد أمامه بدًا من الانزواء فى أحد الأديره ١٤٥٠م، ليصبح راهبا تحت اسم جيناديوس Ginnadios انظر : Nicol , Op. cit, p. 392 .

٤- Doukas, Op cit, pp. 191, 304 , not . 230 .

أرسل الامبراطور البيزنطى سفارة لتهنئة محمد بالجلوس على العرش العثمانى، ومطالبته بالابقاء على المعاهدات السابقة المبرمة بين البيزنطيين والعثمانيين ورحب السلطان محمد الفاتح بالسفاره البيزنطية ووعدهم خيرًا ، كما تعهد بأن يدفع لقسطنطين الحادى عشر ثلاثمائة ألف عمله فضيه (اسبيره) سنويًا من دخل القرى الموجوده على طول شواطئ نهر ستريمون Stryman ، للتكفل بنفقات الأمير العثمانى أورخان ابن عم السلطان الفاتح، وابن السلطان سليمان ، الذى كان يدعى أحقيته فى الحصول على العرش العثمانى .

والمجر والصرب والبندقية وراجوزة وجنوا غلطة [١]. ثم توجه بعد ذلك للأناضول من أجل القضاء على بعض الثورات التى نشبت ضده[٢].

بعد أن استتب الأمر للسلطان محمد الثانى، أخذ يتحين الفرصة لاعلان الحرب على بيزنطة، واحكام الحصار حول القسطنطينية . وانتهز وصول سفارة من قبل الامبراطور قسطنطين الحادى عشر تلح على زيادة ما يقوم بدفعه من نفقات مقابل اعاشة الأمير أورخان بن سليمان ، فاستثار ذلك غضب السلطان العثمانى ، وتبعه باعلان الحرب رسميًا على الامبراطورية البيزنطية .

بدأ محمد الفاتح استعداداته العسكرية بتشييد قلعة «الروملى» على الضفة الغربية للبوسفور ، وعلى مسافة ستة أميال من القسطنطينية باتجاه البحر الأسود، وهى القلعة التى ذكرت المصادر البيزنطية المعاصره أنه يمكن تسميتها ، «بقاطعة الرقبة» [٣]، بسبب وجودها فى موضع مقابل للقلعة العثمانية الموجودة على الضفة الشرقية للبوسفور والمعروفة باسم «أناضولو حصار» الأمر الذى مكن محمد الفاتح من فرض سيطرته على البوسفور، وعلى كافة السفن المتجهة من والى البحر الأسود. وفرض الضرائب عليها.

وخلال بضعة أشهر (مارس - أغسطس ١٤٥٢م) كان العثمانيون قد انتهوا من بناء قلعة الروملى (روملى حصار) . التى ساهمت بشكل كبير فى احكام الحصار البحرى على القسطنطينية .

وأدرك الامبراطور قسطنطين الحادى عشر مرامى السلطان العثمانى، فقام -بشكل يومى- بارسال السفارات والهدايا لمحمد الفاتح من أجل اثنائه عن استكمال بناء تلك القلعة[٤]، التى

١- Doukas, Op. cit, p. 191-193 .

٢- Asik Pasa, Op. cit, pp. 137-138 .

حيث يشير إلى نجاح محمد الفاتح فى القضاء على ثورة أبناء قرمان .

٣- Tursun Bey , Tarih - i- Ebül - Feth . Hazirlayan . by Mertol Tulum, Istanbul , 1977 , pp. 40-45 , Doukas, Op. cit p. 196 ; Asik Pasa, Op. cit, p. 137 ; Kritovoulos, History of Mehmed The Conqueror, Trans . by , C.T Riggs, Princeton, 1954, pp. 16-20 .

٤- Barbaro, N, Diary of The Seige of Constantinople 1453 . Trans. J. R, Jones, New York , 1969, p. 9 .

أدرك الامبراطور مدى أهميتها الاستراتيجية لدى حصار محمد الفاتح للقسطنطينية ، لكن السلطان العثماني رفض محاولات الامبراطور البيزنطي، بل إنه تمادى في اعلان عدائه لبيزنطه بعدما تم الانتهاء من تشييد قلعة الروملي، حيث أمر باستبقاء سفيرين للامبراطور البيزنطي، وأمر بضرب عنقيهما[١]، ايذاناً ببدء المواجهة العسكرية بينهما.

بذل قسطنطين الحادي عشر قصارى جهده في تجهيز دفاعات القسطنطينية، فقام بترميم أسوار المدينة، وتشييد الأبراج ، واقامة المتاريس، وجمع الأسلحة وتوزيع المقاتلين البيزنطيين على البوابات وأعلى الأسوار.

وأرسل الامبراطور البيزنطي إلى البابا نيقولا الخامس Nichola V (١٤٤٧-١٤٥٠م)[٢] يطلب مساعدته ، وحث الدول الأوربية المسيحية على انقاذ العاصمة البيزنطية ، لكن البابوية كان لها رأي آخر. إذ كانت تبحث عن مصالحها أولاً ، فبدلاً من أن يقوم البابا بارسال مساعدة عسكرية عاجلة، أرسل الكاردينال ايزيدور Isidore للقسطنطينية من أجل اتمام عملية الاتحاد الكنسي. قبل التفكير في انقاذ المدينة.

وتفيض المصادر البيزنطية واللاتينية، وكذلك نيقولو باربارو في كتابه الذي بين أيدينا ، بالحديث عن المشاورات ، وعملية التصويت التي جرت في كنيسة أيا صوفيا، حيث تم اعلان الاتحاد الكنسي بها في ديسمبر ١٤٥٢م.

١- Barbaro, Op. cit, p.9

ويعتبر باربارو أن اعدام محمد الفاتح لسفيري قسطنطين الحادي عشر بمثابة بداية أحداث الحرب المعلنة بينهما.

٢- كان ابناً لأحد الأطباء . ودرس في جامعة بولونيا بايطاليا تحت اسم توماسو بارنتوسيللي Tomma-so Parentucelli . حصل على الدكتوراه في القانون ، ثم قام بخدمة الأسقف نيقولو البرجاتي Niccolo Al-bergati لمدة عشرين عاماً، تولى مسئولية البابوية ١٤٤٧م، لكنه لم يكن يمتلك مشروعاً للإصلاح ، فوجه اهتمامه ناحية الثقافة والاهتمام بالمخطوطات . قام في العام ١٤٥٢م بتتويج فريدريك الثالث Frederick III امبراطوراً في كنيسة القديس بطرس في روما انظر:

Kelly , J. N, The Oxford Dictionary of Popes, Oxford, 1986, pp. 244-245 .

لم تلق وحدة الكنائس قبولاً لدى الشعب البيزنطي الارثوذكسي، ويومها قال الرجل الثاني في الامبراطورية البيزنطية القائد الأعلى Mega dux ، لوكاس نوتاراسLucas Nataras «أنني أفضل أن أرى عمائم الأتراك في القسطنطينية، على أن أرى قلنسوات رجال الدين اللاتين»(١).

حدث هذا في الوقت الذي ناشد فيه الامبراطور قسطنطين الحادي عشر أوربا المسيحية لساعدته، فلم تصله سوى امدادات بسيطه من مدينتي جنوا والبندقية. وكانت المساعدة الحقيقية التي تلقتها القسطنطينية هي وصول جيوفاني جستنياني Giovanni Giustiniani (٢)، القائد العسكري الجنوي الشهير ، إلى المدينة في يناير ١٤٥٣م، على متن سفينتين حربيتين كبيرتين، وبرفقته ٧٠٠ مقاتل، ٤٠٠ منهم من مدينة جنوا، والباقي من جزيرتي رودس وخيوس.

ولدى وصول جستنياني للقسطنطينية ، رحب به قسطنطين ترحيبًا حارًا، بل إنه عهد إليه بالمسئولية الأولى عن عملية الدفاع عن المدينة.

بدأت القوات العثمانية في التحرك من أجل تنفيذ الحصار البري والبحري على مدينة القسطنطينية . فتحركت القوات البرية يوم ٢٣ مارس من مدينة أدرنة ، تحت قيادة السلطان محمد الفاتح نفسه، كما غادر الأسطول البحري ميناء مدينة غاليبولي في نهاية مارس – أول أبريل، متجهًا صوب المياه الإقليمية للقسطنطينية، والحقيقة أن السفن العثمانية لعبت دورًا هامًا – سوف يأتي ذكره لاحقًا– في عملية اقتحام القسطنبينية ، جنبًا إلى جنب مع القوات البرية العثمانية ، خاصة تلك العناصر المكونة من الانكشارية والعزبان.

والحقيقة أن المدفعية العثمانية قد لعبت دورًا ضخمًا في دك أسوار مدينة القسطنطينية ١٤٥٣م، وإذا كانت أساليب الحرب قد عرفت استخدام المدفعية قبل ذلك بعدة عقود من الزمان، فإنه يمكن القول بأن العثمانيين قد أحدثوا نقلة نوعية ، في حجم وأنواع المدافع المستخدمة في الحرب، ومدى قذائفها ، وكمية الدمار التي تسببت فيها.

١– Doukas, Op. cit, p. 210 .

٢– Ibid, pp. 211-212 , 217-219 , Kritouvoulos , Op. cit pp. 69-70 , Sphrantzes, G. The Fall of the Byzantine Empire 1401-1477 , Tran , by , Manos , Philippides, Amherst, 1980, p. 103 .

كان محمد الفاتح يدرك مدى مناعة أسوار القسطنطينية ، ويعلم أنها السبب الرئيسى الذى منع أبيه وأجداده العثمانيين من اقتحام المدينة . كما كان الفاتح يدرك جيداً أن أجداده كثيراً ما طالبوا الاباطره البيزنطيين بعدم ترميم أسوار القسطنطينية فى حال تعرضها للسقوط ، أو وجود بعض الثغرات بها، من أجل أن تظل سهلة المنال للعثمانيين إذا ما ارتأوا مهاجمة المدينة فى أى وقت . ولعلنا نتذكر كيف أن السلطان بايزيد الأول قد أمر الامبراطور البيزنطى يوحنا الخامس باليولوغس بضرورة هدم التحصينات والترميمات الجديدة التى أقامها بأسوار القسطنطينية فى نهايات القرن الرابع عشر الميلادى(١).

وإيمانًا منه بضرورة التعامل بجدية مع أسوار القسطنطينية ، ولّى السلطان محمد الفاتح وجهه نحو ضرورة تطوير مدافعه ، الأمر الذى جعله يولى اهتمامه بضرورة التعامل مع المهندس اربان Urban ، أحد أهم صناع المدافع فى العالم آنذاك(٢)، والذى كان يعمل فى خدمة الامبراطورية البيزنطية ، لكنه - بحثًا عن أجر أكبر يليق بمهنته - تحول إلى اعدائهم العثمانيين، الذين اهتبلوا تلك الفرصة الذهبية وقام السلطان الفاتح بالاحتفاء بالمهندس أربان ومنحه الكثير من الأموال ، ومن السلطات التى تخول له صنع مدفع ضخم لم تعرفه العلوم العسكرية من قبل.

نجح اربان فى تحقيق ما عهد به إليه ، وانتهى من صناعة المدفع العثمانى العملاق، الذى يعود إليه الفضل فى اسقاط العديد من جوانب أسوار القسطنطينية وتعجب العثمانيون والبيزنطيون - على السواء - من قدرات هذا المدفع الذى أصاب المدافعين عن القسطنطينية بالذعر والهلع نتيجة للصوت الهائل الذى كان يخرج منه عند كل قذيفة، فضلاً عن حجم الخسائر الفادحة التى ألحقها بالأسوار .

على أية حال قام العثمانيون بإرسال المدفع العملاق(٣) باتجاه مدينة القسطنطينية فى الثانى

١- انظر . Doukas, Op. cit, p. 82 .

٢- Ibid , pp. 200-201 ; Kritovoulus , Op. cit, pp. 43-47 , Tursun Bey , Op. cit, p. 47 ; Riccherio, C, The Capture of Canstantinopl in The Year 1453 in, Jones (ed.) The Siege of Constantinople . Seven Centemporary Accounts. Amesterdam, 1972, p. 119 .

٣- يذكر المؤرخ البيزنطى دوكاس أن أربعمائة رجل، مائتين من كل جانب، كانوا يقومون بدفع المدفع =

من أبريل ١٤٥٢م[١]، على حين وصلت القوات العثمانية البرية للتمركز أمام أسوار المدينة فى السادس من أبريل ، وبدأت فى اتخاذ مواقعها، ونصب معسكرها، من أجل القيام بالهجوم النهائى، واسقاط القسطنطينية.

وبدأ الجنود العثمانيون – بناء على أوامر محمد الفاتح– فى تدمير كافة ضواحى القسطنطينية ، واصطحب السلطان كبار قادته لتفقد أسوار المدينة الممتده من بحر مرمره إلى خليج القرن الذهبى، من أجل التوصل إلى أضعف نقاط الأسوار لمهاجمتها بواسطة المدافع والجنود العثمانيين.

بعد أن انتهى السلطان وقادته من تفقد الأسوار البريه والبحرية للقسطنطينية [٢]، أصدر محمد الفاتح أمرًا إلى أبرز قادته : زاجانوس باشا Zaganos Pasha بضرورة حصار مدينة غلطه، تلك المستعمره التجاريه الجنويه، والمنطقة المحيطة بها حتى بوابة زيلو بورتا Xyloporta.

وقاد والى إقليم الأناضول، اسحق باشا ، ويرفقته محمود بك ميمنة القوات العثمانية التى رابطت تحت الأسوار الجنوبيه للقسطنطينية ، من بوابة القديس رومانوس إلى البوابه الذهبية على بحر مرمره . بينما قاد قراجه بك وآخرون ميسرة القوات العثمانية المرابطة أمام أسوار المدينة من بوابة زيلوبورتا حتى بوابة خاريسيوس. وتم تزويد تلك القوات بالعديد من المدافع بهدف التركيز على تلك المنطقة من الأسوار ، بعد أن تمت ملاحظة ضعفها وعدم تحصينها بشكل جيد[٣].

واتخذ السلطان محمد الفاتح ويرفقته خليل باشا موقعهم فى مواجهة المنطقة الوسطى من الأسوار ، التى امتدت من بابا خاريسيوس شمالاً حتى باب القديس رومانوس جنوبًا ويرفقتهم العديد من القوات البريه المؤلفه بشكل أساسى من الانكشارية والعزبان[٤].

= العملاق ، وحفظ توازنه، حيث كان مفككًا فوق ثلاثين عربة نقل . فضلاً عن وجود خمسين نجارًا ، ومائتين من مساعديهم من أجل تسوية الطرق، وعمل الكبارى والجسور اللازمة لمرور هذا المدفع عليه . انظر:

"Decline and Fall of Byzantium" , p. 207 .

١– وهو نفس اليوم الذى قام فيه البيزنطيون بغلق السلسلة فى مدخل خليج القرن الذهبى انظر:

Barbaro, Op. cit, pp. 24-25 .

٢– Kritovoulos, OP. cit, pp. 40-41 .

٣– Loc. cit .

٤– Kritovoulos, Op. cit , p. 42 .

وأصدر محمد الفاتح أوامره لقائد الأسطول البحرى العثمانى، بلطه أوغلو Balta Oglu بحصار السور البحرى للقسطنطينية ، الممتد من الباب الذهبى على بحر مرمره ، إلى ساحل مدينة غلطة ، فضلاً عن التصدى لمحاولات البحرية البيزنطية الرامية إلى كسر حلقات الحصار العثمانى للمدينة.

اتخذت القوات البيزنطية مواقعها داخل القسطنطينية بحيث توسط الإمبراطور قسطنطين قواته بعد أن تمركز عند بوابة خاريسيوس برفقة أعداد من فرسانه وأمرائه، على حين قاد القائد الجنوى جستنيانى ميمنة القوات المحاصرة بالقرب من بوابة القديس رومانوس. وتركزت جُلّ القوات البيزنطية والجنوية فى المسافة الواقعة بين بوابة خاريسيوس – حيث أضعف تحصينات الأسوار– إلى بوابة القديس رومانوس[1].

كما تولى العديد من القادة البيزنطيين والبنادقة مهمة الدفاع عن ميسرة الإمبراطور فى المنطقة الممتده من باب القديس رومانوس شمالاً حتى باب سليمبريا Slymbria جنوبًا، على حين عهد إلى القائد الأكبر نوتاراس، ويرفقته بعض القاده البيزنطيين من أسرة باليولوغس بمهمة الدفاع عن القسطنطينية بطول ساحل القرن الذهبى.

وراحت مدافع العثمانيين تدك أسوار مدينة القسطنطينية منذ الأسبوع الأول من شهر أبريل ١٤٥٣م، وترتب على قوة تأثير المدفعية العثمانية نتيجتين فى غاية الأهمية، الأولى ذات تأثير نفسى، إذ تسبب صوت المدافع فى إحداث حالة من الرعب والهلع والذعر لدى السكان البيزنطيين، إذا لم يسمعوا بمثل تلك الأصوات الهائلة من قبل ، والثانية ذات تأثير واضح على الأسوار، إذ دكت قذائف المدافع العثمانية الأسوار البريه للقسطنطينية بشكل مؤثر للغاية، مما ترتب عليه تهدم مساحة كبيرة من السور الخارجى، وسقوط بعض الأبراج الموجودة به.

بدآ جيوفانى جستنيانى والمدافعين عن المدينة فى ايجاد حل سريع لمسألة تهدم جدران الأسوار الخارجيه ، وذلك عن طريق سرعة ترميمها، وسد الثغرات التى أحدثتها القذائف العثمانية بها، واقامة سياج من الأوتاد ، ووضع العديد من الأوانى الخشبية المليئة بالرمال فوقها من آجل صد القذائف الجديدة.

١- Barboro , Op. cit., p. 28 .

فضلاً عن ذلك قام جستنياني ورفاقه بجمع كافة الشجيرات القصيرة من داخل مدينة القسطنطينية ووضعها مكان الثغرات الموجوده في الأسوار(١)، كما أقاموا خندقًا ثانيًا من أجل حمايتهم ، إذا ما تهدم السور الخارجي تحت وطأة القذائف العثمانية .

قام العثمانيون في النصف الثاني من أبريل بمحاولتين في البر والبحر لاقتحام المدينة، لكن جهودهما ذهبت سدىً . فقد أمر محمد الفاتح بردم الخندق الموجود أمام الأسوار البريه عند منطقة وادى ليكوس Licus (٢)، بالأحجار والرمال، والأخشاب . وهاجمت القوات العثمانية– مستترة بالليل– أسوار المدينة.

وعلى الرغم من المحاولات المستميتة للجنود العثمانيون ، والى استمرت حتى شروق شمس اليوم التالى، فقد نجح المدافعون البيزنطيون فى الدفاع عن مدينتهم ، ورد العثمانيين على أعقابهم ، بعد أن قاموا بتكبيدهم خسائر فادحه (٣).

ودفع هذا النصر البيزنطيين وحلفائهم الجنويه والبنادقة إلى الاهتمام باصلاح الأسوار وإلى التوجه بالشكر والدعاء للرب فى كنيسة أيا صوفيا .

وادراكًا من محمد الفاتح للأهمية الاستراتيجية لخليج القرن الذهبى، فقد وضعه ضمن أولوياته العسكرية القصوى، وسعى منذ البداية لاقتحامه والاستيلاء عليه. فأصدر أوامره لقائد الأسطول البحرى العثمانى بلطه أوغلو باقتحام السلسلة الموجودة فى مدخل القرن الذهبى، ومهاجمة السفن البيزنطية التى اتخذت أماكنها أمام السلسلة ، وخلفها حيث مدخل الخليج.

ودارت معركة بحرية عنيفة بين السفن العثمانية والسفن البيزنطية ، تمكنت الأخيرة خلالها من تحقيق النصر ، ومنع السفن العثمانية من اجتياز السلسلة .

كما تسببت البحرية العثمانية فى فشل جديد أثار حنق محمد الفاتح، بعد أن فشلت بعد ذلك بعدة أيام فى منع أربع سفن أوربية كبرى تحمل المؤن والامدادات من دخول القرن الذهبى(٤)، والوصول إلى القسطنطينية ، وهو الأمر الذى أدى بالفاتح إلى اقصاء وزير البحر العثمانى .

١- Barbaro , Op. cit, p. 36 .

٢- قام الربابنة البنادقة وبحارتهم بحفر ذلك الخندق فى الرابع عشر من مارس .، انظر:

Barbaro , Op. cit, pp. 23-24 .

٣- Barbaro , Ibid , p. 32 .

٤- Ibid , pp. 33-34 ; Kritovoulos, Op. cit, pp. 50-51 .

وترتب على ما حدث أن أدرك السلطان محمد الفاتح أن الأسطول العثمانى ان يتمكن من الولوج إلى خليج القرن الذهبى ، واحكام الحصار حول الاسوار البحرية للقسطنطينية ، ما دام الأسطول البيزنطى القوى يقف له بالمرصاد ، فضلاً عن وجود السلسلة الحديديه التى أحكمت اغلاق باب الخليج من ناحية مضيق البوسفور، ووجود السفن البيزنطية المتمركزة خلف السلسلة.

ولما كان من الضرورى أن تدخل السفن العثمانية إلى القرن الذهبى، فقد تفتق ذهن السلطان محمد الفاتح عن فكرة عبقرية . استطاع بها فى النهاية «إنزال» سفن الأسطول العثمانى إلى مياه القرن الذهبى.

ونستخدم التعبير «إنزال» عن قصد بعد أن قام العثمانيون بنقل العشرات من سفنهم من مياه البوسفور – وعبر الطريق البرى والتلال- بعد حركة التفاف رائعة ، إلى أن تم انزالها فى نهاية خليج القرن الذهبى ليلة الثانى والعشرين من أبريل ١٤٥٣م.

وتحقيقًا لهذه الفكرة العبقرية . فقد أمر الفاتح بتسوية الطريق البرى من البوسفور إلى القرن الذهبى، وعبر استخدام الألواح الخشبية المدهونة بالشحم، ودهن الأغنام . ثم دفع السفن العثمانية بواسطة الرجال، وجرها بواسطة الثيران والأبقار والرجال الأشداء ، وهو ما أدى إلى انزلاق السفن على الألواح الخشبية المدهونة ،بالإضافة إلى أن السفن كانت تُجَرّ وأشرعتها مفرودة. فساعدتها الرياح، كما لو كانت تسير فوق صفحة الماء.

وهكذا نجح العثمانيون فى انزال حوالى ٧٢ سفينة إلى مياه خليج القرن الذهبى بعد رحلة برية بلغ طولها ثلاثة أميال كاملة (١).

كان وقع هذا الانجاز العسكرى العثمانى على البيزنطيين مروعًا. إذ استيقظوا ذات صباح ليجدوا سفن الأسطول العثمانى فى نهاية خليج القرن الذهبى ، على حين كانت السفن البيزنطية والبندقية ما زالت مرابطة أمام وخلف السلسلة .

وقبل أن يفيق البيزنطيون من وقع المفاجأة ، كان عليهم ضرورة استيعاب ذلك الموقف العسكرى الجديد الذى هدد أسوارهم البحرية فى القرن الذهبى بشكل مباشر. وهو ما دعاهم

١- عن تلك الخطة الحربية الفذة . انظر المصادر المعاصرة التالية :

Tursun Bey , Op. cit, p. 52 ; Doukas, Op. cit, pp. 85-86 , Kritovoulos, Op. cit, pp. 55-58 .

إلى ضرورة نقل العديد من القوات المرابطة على الأسوار البرية للقسطنطينية من أجل الدفاع عن الأسوار البحرية. وهو ما عرض القوات المدافعة عن الأسوار البرية إلى ضغط شديد نتيجة النقص الذى حدث فى أعدادها بالمقارنة مع طول الأسوار.

لم يكتف العثمانيون بهذا، بل أمر محمد الفاتح بتشييد جسر من البراميل الخشبية يمتد من غلطه إلى القسطنطينية بعرض خليج القرن الذهبى، ليصل إلى أقرب مكان للأسوار البحرية(١) . وهو ما زاد من ارتباك البيزنطيين ، فقاموا بتحويل قواتهم باتجاه رأس الجسر الجديد . فضلاً عن مراقبة السفن العثمانية المرابطة فى القرن الذهبى، وهو ما ساهم فى ارباك خطط الدفاع البيزنطية ، وشتت جهودها فى الدفاع عن أسوار القسطنطينية فى عدة أماكن مختلفة ومتباعده عن بعضها البعض.

وعلى الرغم من حدوث بعض المناوشات والمطاردات البحرية بين السفن البيزنطية والسفن العثمانية داخل خليج القرن الذهبى، فإنها لم تسفر عن نجاح البيزنطيين فى تحجيم الخطر البحرى العثمانى ، الذى أصبح واقعًا لا مفر منه .

ويبدو أن الوضع العسكرى البيزنطى الحرج قد دفع الامبراطور قسطنطين الحادى عشر إلى ارسال سفارة للسلطان محمد الفاتح تطلب منه التراجع عن فكرة الاستيلاء على القسطنطينية مقابل دفع جزية سنوية كبيرة(٢).

كان رد السلطان الفاتح قاطعًا وحاسمًا ، بأنه لن يرجع عن هدفه بفتح القسطنطينية وأنه يهب نفسه من أجل هذا الأمر، ولو أدى إلى أن يكلفه حياته، كما عرض على الامبراطور الرحيل بسلام عن القسطنطينية مقابل منحه ملك البلوبونيز Plopones ، ومنح بعض الأراضى والممتلكات الأخرى لاخواته ورجاله . أما إذا لم يوافق على هذا العرض النهائى منه، سوف يأمر قواته بقتل الامبراطور ونبلائه ، فضلاً عن نهب وسلب كافة ممتلكات سكان القسطنطينية(٣).

١- Asık Pasa, Op. cit, p. 138 ; Doukas, Op. cit, pp. 219; Reccherio, Op. cit, p. 119 .

٢- يعتبر دوكاس هو المصدر التاريخى الوحيد الذى ذكر هذه السفارة، انظر:

Doukas , Op. cit, pp. 217-218 .

٣- Loc. cit .

وعندما لم يجد الامبراطور جديداً فى رد السلطان الفاتح، أخذ يبذل محاولاته الأخيرة فى الدفاع عن المدينة ، وقرر بأنه يجب أن يتخذ موقفًا إيجابيًا ازاء الأسطول البحرى العثمانى الذى استطاع «النزول» إلى القرن الذهبى . وذلك عبر تنفيذ خطة تهدف إلى إضرام النيران بالسفن العثمانية وتشتيت شملها ، حتى يستطيع البيزنطيون أن يمسكوا بزمام الأمور مرة أخرى.

استقر عزم الامبراطور وحلفاؤه البنادقة على ضرورة القيام بهجوم مباغت فى نهاية شهر أبريل ، لاحراق السفن العثمانية. وبالفعل بدأت سفن البنادقة بالاقتراب منها ، لكن السفن العثمانية فاجأتها باطلاق القذائف عليها، فضلاً عن مساعدة المدافع العثمانية لها، مما أدى إلى فشل الهجوم البندقى، وغرق العديد من السفن البندقية والبيزنطية ببحارتها [١].

أحدث فشل الخطة البيزنطية الراميه لمفاجأة السفن العثمانية واشعال النار فيها، احباطًا شديداً للمدافعين البيزنطيين والبنادقة ، الأمر الذى دعاهم إلى اتهام الجنوية سكان غلطه بالتواطؤ مع محمد الفاتح [٢]، وابلاغ العثمانيين بموعد الهجوم البحرى. واضطر الامبراطور قسطنطين الحادى عشر إلى احتواء هذا النزاع من أجل الحفاظ على تماسك جبهته الداخليه ، ومجابهة المحاولات العثمانية المتكررة لاقتحام القسطنطينية.

وطوال الوقت، كان الامبراطور البيزنطى ينتظر الأسطول الذى وعدت البندقية بإرساله لمساندة القسطنطينية . وعندما وجد الامبراطور أن الوقت يمضى سدىً ، وأن الاستعدادات العثمانية تتواصل، وأن العثمانيين قد بدأوا موجات الهجوم الأولى، لم يجد أمامه بدًا من ارسال سفينة بيزنطيه للبحث عن الأسطول البندقى المزعوم[٣].

ولما كان من الصعب على أية سفينة بيزنطيه أن تمر من حصار السفن العثمانية الرابضة أمام سلسلة القرن الذهبى. استخدم ربان تلك السفينة البيزنطية حيلة بسيطة لكى يشق طريقه، إذ رفعت سفينته العلم العثمانى، وارتدى بحارتها الزى العسكرى للبحرية العثمانية[٤].

١- Barbaro, Op. cit, pp. 39-42 , Leonard of Chios, "The History of the Loss and Captivity of the City of Constantinople", in , Jones (ed.) The Siege of Constantinople 1453 : Seven Contemporary Accounts, Amesterdam, 1972 , p. 24 .

٢- Barbaro, Op. cit, pp. 39-40 .

٣- Ibid, p. 44 .

٤- Loc . cit.

وهكذا استطاعت تلك السفينة أن ترحل بسلام إلى البوسفور ، ومنها إلى بحر مرمرة، لكنها لم تصادف الأسطول البندقى الذى لم يحضر إلا بعد سقوط القسطنطينية.

دفع السلطان الفاتح بقواته البريه لاقتحام القسطنطينية بعد مرور أسبوع من شهر مايو، لكن المدافعين البيزنطين عن الأسوار تمكنوا من صد الهجوم التركى، الذى أسفر عن اضرام النيران فى بوابة القصر الامبراطورى (قصر بلاخرناى Blachernai) ، فضلاً عن تعرض أجزاء من الأسوار للتهرم، وهو ما جعل البيزنطيون والايطاليون (البنادقة - الجنويه) لتوجيه جهودهم نحو اخماد النيران المشتعلة ببوابة القصر، واعادة ترميم الأسوار التى تاثرت جراء القذائف العثمانية .

وتمكن البيزنطيون أيضًا من صد هجوم عثمانى برى جديد بعد ذلك بخمسة أيام[١]، وأوعز هذا الفشل العثمانى الجديد إلى السلطان محمد الفاتح بنقل مجموعة من المدافع إلى مواجهة بوابة القديس رومانوس ، حيث أمطرتها بالقذائف ، وهو ما دعى الامبراطور البيزنطى إلى اصدار أوامره بضرورة الدفاع عن تلك البوابه بواسطة ثلاثمائة جندى أجنبى (ايطالى غالبًا) ، لدرجة أنه لم يكن بينهم جندى بيزنطى واحد[٢].

أدرك سكان القسطنطينية حرج موقفهم ، وشعروا بدنو يوم سقوط مدينتهم فى قبضة الأتراك بعد تقاعس البابوية والغرب الأوربى عن مد يد العون والمساعدة للمدينة البائسة . وكذلك بسبب محدودية عدد قواتهم بالمقارنة مع القوات العثمانية التى بدت مصممة أكثر من أى وقت مضى على اقتحام ودخول القسطنطينية.

وانتشرت - نتيجة لكل ذلك- لدى سكان المدينة الرؤى والأساطير القديمة التى تحدثت عن تعرض القسطنطينية للسقوط فى يد عدو قوى ، وأن نهاية المدينة سوف تكون على عهد امبراطور يدعى قسطنطين. كما راجت الرؤى الاسطورية القائلة بهبوط ملاك من السماء شاهراً سيفه ، ليقوم بتسليمه إلى أحد البيزنطيين البسطاء ، من أجل تحرير المدينة ، وطرد الأتراك العثمانيين[٣].

١- Barbaro , Op. cit, p. 46 .

٢- Ibid, p. 50 .

٣- عن النبوءات والرؤى الاسطورية حول سقوط القسطنطينية انظر. Doukas , Op cit, p. 226 , Leonard of Chios , Op. cit, p. 15 ; Barbaro , Op. cit, pp. 56 , 61 .

على أية حال ، فان الصمود البيزنطى دفع الاتراك العثمانيين لمضاعفة جهودهم العسكرية، عبر استخدام طرق وأساليب جديدة لمحاولة اقتحام القسطنطينية، من ذلك حفرهم للعديد من الانفاق[١] تحت أسوار المدينة، بغية التسلل خلسة، ومفاجاة القوات البيزنطية ، ومن ثم اعتلاء الأسوار من الداخل .

وعلى الرغم من تكرار استخدام العثمانيين لأسلوب حفر الانفاق ، فان اليقظة البيزنطية حالت دون نجاح الجنود العثمانيين فى التسلل إلى داخل المدينة وكثيراً ما قام البيزنطيون ، بمفاجأة الاتراك العاملين فى حفر الانفاق ، وقاموا باشعال النيران من الجهة المقابلة ، مما أدى فى كثير من الأحيان إلى تعرض العديد من المهاجمين العثمانيين للحرق والاختناق .

وعندما اكتملت استعدادات القوات العثمانية طبقًا للخطه الموضوعة ، أرسل محمد الفاتح رسالة للامبراطور قسطنطين الحادى عشر[٢] يخبره فيها باكتمال استعدادات الهجوم النهائى ضد القسطنطينية . ويحثه فيها على تسليم المدينة، والرحيل فى سلام إلى أية جهة يرغبها، برفقة أهل بيته وحاشيته . مع وعد من السلطان الفاتح بعدم التعرض لسكان القسطنطينية بسوء.

ولم ينس السلطان العثمانى أن يذكّر الامبراطور البيزنطى، بأن رفضه تسليم المدينة واختياره طريق المقاومة ، هو بمثابة استباحة لدمه، وممتلكاته، فضلاً عن تعرض كافة سكان القسطنطينية للسبى، وتشتتهم عبر الأراضى العثمانية[٣].

جاء رد قسطنطين الحادى عشر مخيبًا لآمال محمد الفاتح، إذ عرض عليه أن يتراجع عن نيته فى اقتحام القسطنطينية، مذكراً اياه بالعلاقات الطيبه التى جمعت الاباطره البيزنطيين السابقين بالسلاطين العثمانيين عن أسوار القسطنطينية . ورفض الامبراطور البيزنطى رفضاً قاطعًا تسليم المدينة ، وجاءت كلماته التى أرسلها إلى السلطان الفاتح – بعد أن عقد اجتماعاً مع مجلس السناتو البيزنطى– على النحو التالى :

١- Tursun Bey , Op cit, pp. 47-51 ' Doukas, Op. cit, p. 221, 223 ; Barbaro , Op. cit, p. 50, 51 , 55 , 57 , 58 .

٢- Doukas, Op. cit, p. 220 .

٣- Loc. cit .

«... أما عن امكانية تسليم القسطنطينية اليك ، فهذا مالا أستطيعه ، ولايستطيع أى شخص آخر أن يقوم به ، وبالأحرى عليك القضاء على حياتنا جميعًا، إنه قرارنا بالاجماع ، المقاومة ... والموت عن طيب خاطر»(١).

عندما وصل رد الامبراطور البيزنطى إلى محمد الفاتح ، شعر الأخير باليأس من استسلام المدينة دون قتال. فأصدر تعليماته للمنادين فى جيشه، بابلاغ كافة الجنود بأن ساعة اقتحام القسطنطينية قد حانت ، وأقسم أنه ليس من شئ أحب إليه من سقوط أسوار القسطنطينية . وأعلن الفاتح لجنوده استباحة ثرواتها وسكانها ... «كل هذا سوف يكون من نصيبكم »(٢). وعندها انطلقت من حناجر جنوده صيحات الموافقة والاستحسان .

اتخذ السلطان محمد الفاتح قراره بسرعة اقتحام القسطنطينية ، بعد قراءة الظروف المحيطة به ، فالامبراطور يرفض المرة تلو المرة أن يقوم بتسليم المدينة، وفى نفس الوقت فإن المساعدة الأوربية التى توقع السلطان العثمانى أن تصل إلى القسطنطينية، ربما كانت فى طريقها بالفعل فى الوصول إلى المدينة.

وخوفًا من انقلاب موازين القوى العسكرية بين الطرفين نتيجة ما سوف يقدمه ذلك الاسطول الأوربى المنتظر من مساعدة للبيزنطيين. قرر محمد الفاتح ضرورة الاسراع فى عملية اقتحام القسطنطينية. وعقد مجلسًا حربيًا شرح فيه لقادة جيشه حالة الضعف التى تمر بها الدفاعات البيزنطية ، وذكرهم بالمجد الذى ينتظرهم عندما يفتحون القسطنطينية. ولم ينس أن يذّكرهم بأنه سوف يكون فى مقدمة موجات الهجوم الكبير (٣).

وقرر السلطان الفاتح أن يكون هجومه النهائى على القسطنطينية ليلة التاسع والعشرين من مايو ١٤٥٣م. كما قرر أن يترك المدينة – بعد فتحها– تحت رحمة جنوده لمدة ثلاثة أيام. وبالنسبة إليه فإنه سوف يكتفى فقط بالحصول على المدينة ومبانيها (٤).

١- Doukas , Op. cit, p. 220 .

٢- Loc. cit .

٣- Kritovouls, Op. cit, pp. 61-64 .

٤- Doukas , Op. cit, p. 220 .

تفقد الامبراطور البيزنطى آخر الاستعدادات البيزنطية والايطالية للدفاع عن القسطنطينية، كما أصدر تعليماته لكافة سكان المدينة بحمل الأيقونات والذخائر المقدسة والقيام بمسيرة كبرى فى شوارع القسطنطينية، تبتهل إلى الرب، وتطالبه بانقاذ مدينتهم بدلاً من الوقوع فى براثن العثمانيين.

وقام الامبراطور بعقد اجتماع شامل ضم البيزنطيين والايطاليين، حثهم فيه على ضرورة الدفاع عن عاصمة المسيحية الارثوذكسية حتى الرمق الأخير. قبل أن يتوجه فى النهاية تحيط به حاشية نحو الكنيسة العظمى، أيا صوفيا ، حيث حضر القداس النهائى ، وخرج بعد ذلك إلى الأسوار لتفقد الدفاعات البيزنطية بها، وبعد أن اطمأن إلى وضعها ، غادر إلى مكان تمركزه مع حاشيته وباروناته ، عند بوابة القديس روماتوس .

وبالفعل، شن العثمانيون هجومهم النهائى على القسطنطينية فجر التاسع والعشرين[١] من مايو، مستخدمين كافة أساليب القتال اللازمة ، فقد أمطرت مدافعهم أسوار المدينة وبواباتها بآلاف القذائف . وكذا فعلت السفن العثمانية التى هاجمت الأسوار البحرية على القرن الذهبى.

وهاجم المشاة العثمانيون المؤلفين من صفوة جنود الانكشارية والعزبان أسوار القسطنطينية عبر استخدامهم لمئات السلالم التى صنعت من الحبال والأخشاب ، والذين تمكنوا – فى النهاية– من الصعود إلى أعلى الأسوار ومهاجمة القوات البيزنطية المدافعة . ونجح العديد من رجال الانكشارية والعزبان[٢]– الذين شهدت لهم المصادر البيزنطية واللاتينية بالبسالة والشجاعة الفائقة– فى اقتحام الأسوار. والنفاذ إلى شوارع القسطنطينية حيث قاموا بفتح بواباتها أمام باقى الجنود العثمانيين .

وعلى الصعيد البيزنطى. فوجئ الامبراطور وقواته بالموجات المتوالية للهجمات العثمانية التى لم تتوقف . فضلاً عن الدور الهائل الذى قامت به المدافع العثمانية ، مما جعل القوات البيزنطية فى موقف لاتحسد عليه .

١– Barbaro , Op. cit., p. 62 ; Doukas, Op. cit, pp. 224-225 .

٢– Barbaro , Op. cit , p. 62 .

على أن الأمر الذى زاد أحوال المدافعين عن القسطنطينية سوءًا ، كان اصابة القائد الجنوى جيوفانى جستنيانى بجرح خطير تحت ذراعه [١]، وهو ما آدى إلى انسحاب المسئول العسكرى الأول عن الدفاع عن المدينة ، إلى سفينته بحثًا عن العلاج. وجاء خبر انسحاب جستنيان ليوهن من عزيمة البيزنطيين ، لتضيق الدائرة عليهم، ويدركوا أن سقوط القسطنطينية تحت سنابك خيل العثمانيين، ما هى إلا مسألة وقت.

وتصدى الامبراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر لمحاولات العثمانيين اقتحام بوابة القديس رومانوس . لكن عنف هجمات العثمانيين دفع بالجنود البيزنطيين نحو الداخل ، حيث الامبراطور ، الذى سقط صريعًا تحت ضغط الجنود[٢]، وتحت الضربات المتلاحقة لجنود الانكشارية العثمانيين .

وهكذا نجح العثمانيون بقيادة السلطان محمد الفاتح فى فتح القسطنطينية يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأول ٨٥٧هـ- ٢٩ مايو ١٤٥٣م. وقام الفاتح بدخول المدينة يوم فتحها ظهرًا ، تحيط به قوات الانكشارية ، وتقدم نحو كنيسة، أيا صوفيا ، مبديًا اعجابه بعمارتها ، وقام باستدعاء أحد الشيوخ الأتراك لاقامة الصلاة الأولى فى مسجد أيا صوفيا الجديد[٣].

١- Barbaro, Op. cit, p.65 , p. 65 ; Doukas , Op. cit, pp. 211-212 , 217-219 , Kritovoulos , Op. cit, pp. 69-70 , Sphrantzes, Op. cit, pp. 103 .

٢- Doukas , Op cit, p. 104 , Kritovoulos, Op. cit, p. 71 , Sphrantzes , Op. cit, p. 70 .

وانظر أيضًا المصادر العثمانية التى تحدثت عن مقتل الامبراطور قسطنطين الحادى عشر :

Asik Pasa , Op. cit, p. 138 ; Tursun Bey , Op. cit , p. 59

٣- Asik Pasa, Op. cit, p. 138 .

ويذكر أحد الباحثين الأتراك المحدثين أن السلطان محمد الفاتح والعثمانيين الفاتحين قاموا بأداء صلاة الجمعة الأولى فى مسجد أيا صوفيا الجديد ، يوم أول يونيه ١٤٥٣م. حيث تلا الخطبة وأمّ الصلاة الشيخ، أق شمس الدين انظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية ج١، ترجمة عدنان سلمان، مراجعة محمود الأنصارى، استانبول ، ١٩٨٨م، ص١٤١

وذكر المؤرخ العثمانى المعاصر لفتح القسطنطينية، طورسون بك، أنه يصدق على كنيسة أيا صوفيا قوله تعالى «لم يخلق مثلها فى البلاد «الفجر آية ٨ – وأن بعض جدرانها قد تهدمت . فقام السلطان الفاتح بتعميرها، عدا القبه الأساسية لاحتياجها إلى توسيع، حيث قام أحد المهندسين المهرة بذلك بواسطة قناطر فريده وأنصاف قباب ... وصارت بذلك تتسع لخمسين ألفًا ، انظر:

Tarih- i Ebül- Feth , pp. 63-64 .

ولدينا مصدر بيزنطي معاصر لفتح القسطنطينية ، يذكر دخول الفاتح إلى الكنيسة العظمى، فلم يستطع المؤرخ البيزنطى دوكاس Doukas(١) أن يمنع نفسه من الحسره على سقوط مدينته البائسة .

«... واحسرتاه ! ويالكارثة! ، إن ما يحدث لهو أمر رهيب ومريع ، وأسفاه ، ماذا حدث لنا؟ أواه ! ماذا نشاهد الآن؟ التركى (الكافر) يقف على المذبح المقدس الذى يحتوى على الذخائر المقدسة للرسل والحواريين والشهداء . إنه لشئ مريع . أيتها الشمس ، أين نور الرب .. لم يعد هناك أى اعتبار لمقامنا وديانتنا بين الأمم .. إن الكنيسة التى دعيت باسم كنيسة الثالوث المقدس ، والكنيسة العظمى ، وصهيون الجديدة ، قد أصبحت الآن مذبحًا للبرابرة . وتغير اسمها وطبيعتها لتصبح منزلا لمحمد !! يا إلهى لانريد منك سوى أن تشملنا بعدلك ورحمتك أيها الرب».

وعندما أدرك الجنويه سكان غلطة أن المدينة قد سقطت ، حاولوا الهرب عبر الميناء برفقة زوجاتهم وأطفالهم . لكن العثمانيين قاموا باقتحام غلطه بقيادة زاجانوس باشا، الذى قام بتهدئة نفوس التجار الجنويه، ووعدهم بالحفاظ على امتيازاتهم التجارية، وبأن السلطان العثمانى سوف يوقع معهم معاهدة جديده ، ونتيجة لذلك قام البودستا الجندى جيوفانى لوميللينو Giovanni Lomellino بتسليم مفاتيح مدينة غلطة لمحمد الفاتح .

على أية حال نجح العثمانيون فى دخول القسطنطينية ١٤٥٣م، وجعلوا منها مقراً لعاصمتهم الجديدة ، بعد أن قاموا بمحوا آخر صفحات الامبراطورية البيزنطية من الوجود .

والكتاب الذى بين أن أيدينا الآن(٣) يحتفظ بأهمية تاريخية بالغة بالنسبة لذلك الحدث الفذ، فتح العثمانيين للقسطنطينية، ويزكى ذلك أن مؤلفه كان معاصراً لتلك الأحداث ، وتفرغ لكتابة

١- " Decline and Fall of Byzantium" , p. 231 .

٢- Ibid , p. 230 .

٣- صدر لهذا الكتاب ترجمتان باللغة الايطالية الحديثة ، انظر:

1- Nicolo Barbaro , Giornale dell ' assedio di Constantinopoli 1453 , ed . E . Cornet , Vienna, 1856 .

2- Fondezione Lorenza Valla, Le testimonianze dei Contemporarei, in Pertusi, A. La Caduta Constantinopoli, Verona, 1976 .

كما صدرت له أيضاً ترجمه إلى اللغة التركيه الحديثة . انظر:

Kostantiniyye Muhasarasi Ruznames , 1453 Mutercimi . S. Talip Diler. Istanbul, 1976 .

وقائعها على شكل يوميات، ولم يغفل حدثًا كبيرًا أو صغيرًا علم به إلا وقام بتدوينه فى يومياته.

مؤلف هذا الكتاب هو الطبيب والجراح البندقى نيقولو باربارو ، الذى كان يعمل على احدى سفن أسطول البندقية . ولد فى العام ١٤٠٠م ، وكان شاهد عيان على الفتح العثمانى للقسطنطينية، إذ كانت سفينته تشارك فى أعمال الدفاع عن المدينه، حيث قام بتدوين أحداث الفتح أولاً بأول[1].

قام باربارو بتدوين كافة الأحداث العسكرية بين الجانبين العثمانى والبيزنطى منذ الثانى من مارس ١٤٥٢م حتى التاسع والعشرين من مايو ١٤٥٣م. ونجحت سفينته فى الفرار بعد سقوط القسطنطينية ، وعادت إلى البندقية، حيث أعاد صياغة ما قام بكتابته بلهجة مدينة البندقية.

وغنى عن القول أن السفن الايطالية فى العصور الوسطى كانت تحمل على متنها، طبيبًا وجراحًا ، للقيام بمداواة البحارة والتجار خلال الرحلات البحرية التجارية وكذلك الحال بالنسبة للسفن الحربية، فقد اقتضت ظروف السفر والقتال البحرى، أن يكون هناك طبيب واحد على الأقل على متن السفينة من أجل تطبيب ومداواة البحارة والمسافرين[2]، والجنود.

١- احتفظ نيقولو باربارو بيومياته ، حتى عاد إلى مدينته الأم، البندقية، فى شهر يوليو ١٤٥٣م، ليعيد كتابتها وصياغتها من جديد. انظر:

Nicol, " Byzantium and Venice , " p. 396 .

وانظر أيضًا :

O. D.B , vol , I, Oxford, 1991 , p. 253 .

٢- كان قانون رودس البحرى Nomos Rhodian أهم القوانين البحرية التجارية فى البحر المتوسط منذ القرن السابع الميلادى، وكان ينص فى مادتيه رقم ٧،٥ على ضرورة وجود الطبيب على متن السفن التى تقوم بالابحار فى البحر المتوسط عن ذلك انظر:

Ashburner , W, (ed.), The Rhodian Sea Law , Oxford , 1909, pp. 83 , 85 .

وتذكر المادة الخامسة أنه «إذا ما نشبت مشاجرة بين البحارة ، دعهم (الربان) يتبادلون السباب، ولاتدع أحدهم يقوم بالاعتداء على الآخر. وإذا ما قام A بضرب B على رأسه فأصابها ، أو جرحه فى موضع من جسده بأية طريقة ، فيجب على A أن يقوم بدفع أجرة الطبيب الذى سيقوم بمداواة B وكذلك دفع كافة النفقات...».

=

ونظراً لانتشار الجامعات فى ايطاليا فى العصور الوسطى، وأهمها جامعة بولونيا لدراسة القانون، وجامعة سالرنو لدراسة الطب[١]، فلابد آن مؤلفنا كان خريج مدرسة الطب بجامعة سالرنو. التى تأسست منذ أواسط القرن الحادى عشر الميلادى. أو ربما كان خريج احدى كليات الطب الحديثة التى انتشرت بعد ذلك فى ايطاليا فى العصور الوسطى.

وعلى أية حال ، فيبدو أن سفينة نيقولو باربارو التى لم يحدثنا المؤلف عن نوعها ، وعن طبيعتها وما إذا كانت سفينة تجارية أو حربية، قد وصلت إلى القسطنطينية فى شهر سبتمبر ١٤٥٢م.

وعلى الرغم من ذكر المؤلف لتواريخ سابقه على هذا التاريخ ، كبداية استعداد العثمانيين للهجوم على القسطنطينية منذ يناير ١٤٥٢م، ووصول سفينة من كريت لتقديم الامدادات للمدينه فى فبراير من نفس العام، ثم ذكره لبداية تشييد العثمانيين للروملى حصار (قلعة الروم- قاطعة الرقبة) فى مارس ١٤٥٢م وانتهائهم منها فى أغسطس من نفس العام. فإننا نعتقد أن باربارو قد استقى تلك المعلومات من مصادر أخرى أو من شهود عيان ، لأننا نراه بعد ذلك، وبالتحديد منذ يوم السادس من سبتمبر ١٤٥٢م يقوم بتوثيق الأحداث التى جرت بذكر تاريخ اليوم الذى حدثت فيه . كذكره لما جرى فى السادس من سبتمبر ، العاشر من نوفمبر ، السادس والعشرين من نوفمبر، ثم الثانى من ديسمبر ، ... وهكذا .

ويرجح ما نذهب إليه من أن سفينته لم تصل إلى القسطنطينية إلاّ فى أوائل سبتمبر ١٤٥٢م من أن الفترة ما بين شهر يناير السابق إلى شهر سبتمبر ، لم يذكر فيها باربارو الاّ عدداً من الأحداث البسيطة التى لاتتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، فى حين أنه ذكر فيما

= بينما تذكر الماده السابعة أنه «إذا قام أحد الربابنة أو التجار أو البحارة بضرب الآخر بقبضته ، وتسبب فى اصابته بالعمى، أو قام بركله وتسبب فى اصابته ، فإن المعتدى يجب أن يقوم بدفع أجرة الطبيب »

١- هاسكنز ، نشأة الجامعات فى العصور الوسطى. ترجمة جوزيف نسيم يوسف، الاسكندرية ، ١٩٨٤م، ص٢٤٥

وعن مدرسة الطب فى سالرنو ، انظر:

Kristeller , p. o , " The School of Salerno . its development and its Contributıon to The History of Learning " in , B. H. M, XVII, 1945, pp. 138-194 .

بعد جميع الأحداث التالية بالتفصيل الشديد، فذكر اليوم الذى جرت فيه، كما ذكر الوقت الذى جرى فيه الحدث، وربما ذكر أيضًا الساعة التى شهدت هذا الحدث.

وبشكل عام قام نيقولو باربارو بالتركيز فى يومياته على الاحداث العسكرية التى جرت منذ شهر ديسمبر ١٤٥٢م . وربما كان ذلك بسبب تسارع وتيرة المناوشات والاحتكاكات العسكرية بين العثمانيين والبيزنطيين، وبداية محاولات الاتحاد الكنسى التى جرت داخل كنائس القسطنطينية ، والمحاولات المستميتة لتوحيد الجبهة الداخلية لصد الخطر التركى.

ولم نعثر على أية كتابات أخرى لمؤلفنا اليوم نيقولو باربارو ، باستثناء تلك اليوميات التى بين أيدينا الآن. والتى – وبطبيعة الحال– قام فيها بالتركيز على العمليات العسكرية البحرية والبريه بين الطرفين، مع التركيز على الدور الذى قامت به السفن البندقية . كما لم نعثر على أية كتابات عن باربارو المؤرخ والطبيب.

ويجئ تركيز باربارو على ما قامت به سفن البندقية لعدة أسباب، أهمها أنه كان على متن إحدى تلك السفن ، الأمر الذى مكّنه من رصد كافة الأحداث البحرية بشكل كامل.

ومن الغريب أن تلك السفن التجارية الخاصة بالبندقية ، كان على متنها العديد من الكتبة، وموثقى العقود التجارية. ولم يترك لنا أحدًا منهم وصفًا كاملاً للحصار العثمانى للقسطنطينية، والوصف الوحيد الذى وصلنا من البحريه البندقية، قام به طبيب وجراح من المفترض أن له مهمة أخرى.

ويمكننا أن نلاحظ ، من خلال تحليلنا ليوميات باربارو ، أنه لم يكن مؤرخًا محترفًا ، كالمؤرخين البيزنطيين المعاصرين لنفس الحدث، والذين قاموا أيضًا بوصف حصار واقتحام العثمانيين للقسطنطينية ، كما يمكننا أن نلحظ أيضًا أن المؤلف ربما قام بهذا العمل لنفسه، لأنه لم يتوافر لنا أية معلومات تفيد بأنه كان ينوى تقديم يومياته فى صورة تقرير للبحرية البندقية ، أو إلى الدوج والسناتو فى مدينة البندقية.

ولم يقم باربارو بالتوقف كثيراً أمام الأحداث لتحليلها، أو لتفسيرها تفسيرًا موضوعيًا ، بل كان يقوم برصد ووصف الأحداث التى جرت كما شاهدها ، وسمعها بنفسه .

كما اهتم باربارو كثيرًا بتفصيلات الحدث الذى يقوم بتدوينه فى يومياته، كحجم الاضرار التى أصابت أسوار القسطنطينية نتيجة قذائف المدافع العثمانية . كما اهتم بأعداد القتلى من الجانبين ، مع مبالغة واضحة فيما يتعلق بأعداد القتلى من الأتراك.

قام المؤلف بايراد اسمه ومهنته كطبيب فى مناسبة واحدة فقط فى طيات يومياته(١) – بصرف النظر عن ذكره لاسمه فى قوائم البنادقة الموجودين بالقسطنطينية، ثم الهاربين منها على متن احدى سفن البندقية– وهى الاشارة الوحيده للتعريف بنيقولو باربارو ، إذ لم تحدثنا باقى المصادر البيزنطية واللاتينية والعثمانية المعاصرة لهذا الحدث عن شخص باربارو ، ولا عن مهنته ، ولا عن المصدر التاريخى الهام الذى قام بكتابته .

على أن الأمر المثير للانتباه حقيقة ، هو أنه على الرغم من كون مهنة باربارو هى الطب والجراحة ، فإنه لم يتطرق فى يومياته إلى أية أحداث أو معلومات تقترب من تخصصه الدقيق . فلم يذكر طوال يومياته التى استمرت لفترة تسعة أشهر تقريبًا تعرض البحاره البنادقة أو المدافعين البيزنطيين عن القسطنطينية لأية أمراض، أو أنواع الاصابات التى تعرضوا لها ابان الهجمات العثمانية المتوالية ، كما لم يذكر أنه قام بنفسه – طوال فترة وجوده بالقسطنطينية– بمعالجة أحد البحاره أو الجنود البيزنطيين والبنادقة.

ولايوجد فى كتاب باربارو ما يدل على أنه مارس مهنته سواء على متن سفينته، أو على ساحل القسطنطينية ، غير أنه ذكر– ومعه بعض المصادر التاريخية المعاصرة – اصابة القائد العسكرى الجنوى، جيوفانى جستنيانى، اصابة خطيرة تحت ذراعه، دفعته للتخلى عن موقعه ، والانسحاب باتجاه سفينته من أجل الحصول على علاج سريع ، أو اجراء جراحة عاجلة، لابد أنها حدثت بواسطة الطبيب والجراح الجنوى الموجود على متن السفينة.

كان نيقولو باربارو يدرك جيدًا حجم الخطر العثمانى. وكان يدرك أيضًا مغزى سقوط القسطنطينية فى يد السلطان محمد الفاتح ، ولهذا فقد امتلأ كتابه بالكثير من عبارات السخط والكلمات الحانقه على الأتراك ، كما سوف يتضح من قراءة الكتاب.

وعكس باربارو فى كتابه خوف الأوربيين من الخطر العثمانى المتصاعد فى مقابل الضعف البيزنطى المتزايد، وتجلى ذلك فى حديثه عن السلطان العثمانى محمد الفاتح، الذى كنّ له باربارو، وللعثمانيين، كراهية عميقة .

وعلى الرغم من كره المؤلف لشخص السلطان الفاتح ، ووصفه له بعبارات من قبيل (الوثنى. الكافر – الكلب...) فإنه لم يقارن بينه وبين الشخصيات التاريخية السابقة، فلم يقم بتشبيهه على سبيل المثال بنبوخذ نصر كمل فعل المؤرخ البيزنطى المعاصر دوكاس.

١– Barbaro , Op. cit , p. 68 .

ويمكننا أن نقوم بتفسير ذلك علىٰ ضوء أن باربارو لم يكن مؤرخًا محترفًا ، قارئًا للتاريخ القديم للمنطقة، وعارفًا بالعلاقة بين اليهودية القديمة وخصومها ، كما يمكن تفسير ذلك بسبب الخلفيه الثقافية المختلفة بين الطبيب البندقى باربارو، والمؤرخ البيزنطى المحترف دوكاس. فعلى حين كان الأخير يعى جيداً ما يقوم بكتابته ، ويقوم بتحليل وربط الأحداث ، وارجاع بعضها للتاريخ القديم عبر اتباع المنهج الاستردادى، كتشبيهه لمحمد الفاتح، الذى قام بسبى المسيحيين البيزنطيين، بنبوخذ نصر والسبى البابلى لليهود ٥٨٦ ق.م .

ولم يحدث باربارو – نتيجة ثقافته المتواضعة – مشابهة تاريخية بين سقوط أورشليم فى أيدى البابليين ، وسقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين، وهو الشئ الذى تنبه له المؤرخ دوكاس.

ويؤكد ما سبق أن نيقولو باربارو لم يكن سوى مؤرخ هاوٍ، ومجرد مسجِّل ليوميات سقوط مدينة القسطنطينية.

كما تبدو فى كتاب باربارو بعض الأفكار الخاطئة عن الإسلام، مثل ذكره عن توجّه المسلمين بالصلاة تجاه سيدنا محمد– صلعم– ، وغير ذلك مما يشى بضعف ثقافته خارج نطاق الدين المسيحى.

ويبدو فى الكتاب اعجاب نيقولو باربارو بشخص الامبراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر. على أنه من الغريب أنه لم يتحدث كثيراً عن كبار القادة البيزنطيين المعاونين للإمبراطور، كالقائد العسكرى الأعلى (لوكاس نوتاراس) الذى لم يات ذكره سوى مرتين فقط فى الكتاب(١) . فضلاً عن أنه لم يتحدث عن الخلاف الذى وقع بينه وبين القائد الجنوى جستنيانى حول كيفية الدفاع عن أسوار القسطنطينية. ذلك الخلاف الذى تحدثت عنه بعض المصادر الأخرى. غير أن باربارو لاحظ مساهمة الرهبان البيزنطيين فى أعمال المراقبة والحراسة على مقربة من الأسوار البحرية للقسطنطينية.

ونتيجة لحالة التوجس والعداء التى اكتنفت العلاقة بين البندقية وجنوا، فقد توجس باربارو –والبنادقة– شراً من جانب الجنوية فى مستعمرة غلطه التجارية فى مواجهة القسطنطينية.

١– Barbaro , Op. cit, pp. 28, 51 .

قام باربارو بالاشاره إليه حسب رتبته العسكرية Megaduk ، لكنه لم يشر إلى اسمه صراحة.

وكال باربارو الاتهامات لجنوية غلطه بالوقوف إلى جانب العثمانيين والتحالف مع محمد الفاتح . ولم تأت مناسبةً فى الكتاب إلاّ وأشار فيها إلى خيانة الجنوية، وأهم تلك الاشارات تتعلق بإطلاعهم السلطان محمد الفاتح على الموعد الذى حددته السفن البندقية لمحاولة احراق السفن العثمانية بالقرن الذهبى(١).

كما قام باربارو بتحميل الجنوية لجميع الخسائر التى تعرضت لها السفن البندقية ، وخاصة غرق وموت العديد من البحارة والجنود، وكثيراً ما وصف الجنوية بعبارات حادة مثل: الكفار، .. أعداء الدين المسيحى (٢).

وعلى الرغم من الدور الكبير الذى قام به القائد العسكرى الجنوى جستنيانى فى قيادة عمليات الدفاع عن أسوار القسطنطينية ، وهو الدور الذى شهدت به باقى المصادر البيزنطية واللاتينية المعاصره ، فإن نيقولو باربارو يبخس الرجل حقه ، إذ لم يذكره فى يومياته سوى فى عدة سطور، فضلاً عن قيامه بتحميله المسئولية المباشرة عن سقوط القسطنطينية بعد أن اتهمه بالهرب من ميدان المعركة وهو يصيح «لقد اقتحم الاتراك المدينة بالفعل»(٣).

وهو الأمر الذى تكذبه باقى المصادر، إذ تذكر أن جستنيانى توجه إلى سفينته للعلاج من إصابة مميتة، فاضطر لمغادرة موقعه بعد أن قام بشد أزر الامبراطور والمدافعين عن المدينة، على وعد بالعودة بعد تلقيه العلاج على متن سفينته .

كا قام باربارو بتوجيه اتهامه إلى بودستا Podesta الجنويه فى غلطه ، بالتحالف مع السلطان الفاتح ابان سقوط القسطنطينية ، كما اتهمه بمحاولة احتجاز باقى السفن البندقية، بما فيها سفينة باربارو نفسه، من أجل تسليمها للسلطان العثمانى ، لكن باربارو ورفاقه تمكنوا من الهرب من القرن الذهبى بعد كسر السلسله ، والابحار فى البوسفور بمساعدة الرياح الشمالية (٤).

١- Barbaro , Op. cit , p. 39

٢- Loc. cit .

٣- Barbaro , Op. cit, p. 65 .

٤- Ibid , p. 68 .

ونتيجة طبيعية لكون مؤلفنا بندقيًا ، جاء تركيز باربارو فى يومياته على ما قامت به البندقية، والبنادقة من محاولات لانقاذ القسطنطينية من السقوط ، بداية بما قرره الدوج والسناتو البندقى من ضرورة توجيه أسطول لمساعدة المدينة، وهو الأسطول الذى لم يصل إلى مشارف المدينة إلاّ بعد سقوطها فى أيدى العثمانيين .

وامتدح باربارو الدفاع المجيد الذى أبداه البنادقة عن المدينة، وخصّ بالذكر محاولة الربان البندقى جاكومو كوكو اضرام النيران بالسفن العثمانية(١)، وكذلك استبسال البحارة والجنود البنادقة فى الدفاع عن القسطنطينية حتى النهاية.

ويتميز المصدر التاريخى الذى بين أيدينا بانه الوحيد- دون باقى المصادر البيزنطية واللاتينية والعثمانية المعاصرة- الذى أورد قوائم بأسماء جميع المحاربين البنادقة الذين اشتركوا فى عمليات الدفاع عن القسطنطينية ، وشاركوا بصورة فعلية فى المعارك البحرية والبرية التى واكبت اقتحام الجنود العثمانيين للمدينة . فقد قام باربارو بذكر أسماء كافة النبلاء البنادقة الذين شاركوا فى القتال، والذين قتلوا منهم، والذين تم أسرهم (وافتدائهم فيما بعد) ، فضلاً عن أسماء الذين فرّوا من المدينة لحظة سقوطها على أيدى العثمانيين(٢).

وإذا كان من الطبيعى أن يقوم نيقولو باربارو البندقى بذكر جميع أسماء البنادقة الموجودين بالقسطنطينية، والدور الذى قام به كل منهم ابان الحصار العثمانى واقتحام المدينة، فإن ذلك يعد اضافة هامة لباقى المصادر التاريخية المعاصرة، والتى تطرقت بشكل عادى لما قام به البنادقة ، لكنها لم تتحدث بالتفصيل عن الدور البندقى، ناهيك عن ذكر أسماء الجنود البنادقة . وهو الأمر الذى جعل كافة المراجع التاريخية الأوربية بعد ذلك تعتمد اعتمادًا كبيرًا على ما كتبه باربارو فى يومياته بهذا الخصوص .

ويلاحظ على مؤلفنا نيقولو باربارو ولعه الشديد بذكر التفاصيل، من ذلك ذكره للمعارك البحرية بين السفن البندقية والبيزنطية والعثمانية بشكل دقيق يتفوق على باقى المصادر. ويرجع ذلك بالطبع لأنه كان مشتركًا بها على متن سفينته.

١- Barabro , Op. cit, pp 41-42 .

٢- Ibid, pp. 70-76 .

كذلك تظهر دقة باربارو وولعه بالتفاصيل فى ذكره لأسماء كافة الذين حضروا الاجتماع الذى تم فى كنيسة القديس مرقص من أجل استبقاء ربابنة وبحارة السفن التجارية البندقية[١]، ومنعهم من الرحيل من أجل مساهمتهم فى الدفاع عن القسطنطينية. كذلك ذكره لأسماء كافة المحاربين الذين لاقوا حتفهم ابان الغاره البحريه الفاشلة على السفن العثمانية بالقرن الذهبى، كما كان باربارو فى غاية الدقه لدى حديثه عن السفن التى قام البيزنطيون بوضعها بطول سلسلة القرن الذهبى ، القسطنطينية حتى بيرا، من أجل منع السفن العثمانية من اقتحام السلسله، إذ تحدث المؤلف عن تلك السفن وربابتها، وكذلك عن حمولتها بالتفصيل[٢].

ولابد أن وجود باربارو الدائم على متن إحدى السفن العاملة فى البحرية البندقية قد جعله شديد الملاحظة لأنواع السفن وحمولتها . ويظهر ذلك جليًا منذ الصفحات الأولى للكتاب ، إذ يفرق بين السفن حسب أنواعها : Fuste , Parandaria , bregantini , gripo, Galley

وعلى الرغم من أن البروفسير جونز Jones لم يقم بايضاح طبيعة وحمولة تلك السفن لدى قيامه بترجمة يوميات باربارو إلى اللغة الانجليزية. فقد حاولت أن أضع أمام القارئ العربى الحقيقة كاملة حول أنواع وطبيعة السفن التى قام البنادقة والعثمانيون باستعمالها حسب يوميات باربارو . وأرجو أن أكون قد وفقت فى هذا .

وتحدث نيقولو باربارو عن مسألة الاتحاد الكنسى بين الكنيسة الكاثوليكية فى روما، وكنيسة القسطنطينية الارثوذكسية فذكر فى كتابه الذى بين أيدينا مسألة الاجتماع الذى حدث فى كنيسة أيا صوفيا لاقرار وحدة الكنائس فى الثالث عشر من ديسمبر ١٤٥٢م[٣]. حيث وافق الامبراطور وكبار رجاله- مضطرين - على مسألة الاتحاد الكنسى .

ويؤخذ على باربارو أنه مر مرور الكرام على ذلك الاجتماع ، فلم يستغرق من يومياته سوى بعض السطور المعدودة. فلم يتحدث عن معارضة بطريرك كنيسة القسطنطينية الشديدة لهذا الأمر، ولم يذكر معارضة القائد العسكرى الأعلى لوكاس نوتاراس لمسألة الاتحاد الكنسى،

١- Barbaro , Op. cit, p. 14 .

٢- Ibid, pp. 29-30 .

٣- Ibid, p. 12 .

ولم يورد فى يومياته تلك العبارة الشهيرة التى نقلتها بعض المصادر عن نوتاراس «أننا نفضل أن نرى عمائم الأتراك فى شوارع القسطنطينية ، على أن نرى قلنسوات رجال الدين اللاتينى».

كما أن باربارو لم يتطرق للمعارضة الشعبية البيزنطية لمسألة الاتحاد الكنسى، واكتفى فى يومياته بذكر عبارة يتيمة تذكر أنه كان الكثير من العامة يبكون وينوحون فى الشوارع المحيطة بكنيسة أيا صوفيا ابان حدوث الاجتماع الخاص بوحدة الكنائس(١).

ولم يفسر لنا المؤلف أن ذلك البكاء والنواح كان بسبب معارضتهم الشديدة لاتحاد كنيستهم الارثوذكسية مع الكنيسة الكاثوليكية، فضلاً عن أنه كان بسبب محاولة البابوية والغرب الأوربى استغلال حرج موقفهم العسكرى أمام العثمانيين، وفرض الاتحاد الكنسى عليهم.

ويمكننا أن نأخذ على نيقولو باربارو عدم انتقاده لمدينته الام، البندقية، وكذا للبابوية والغرب الأوربى ، لتقاعسهم عن تقديم المساعدة السريعة للامبراطور البيزنطى من أجل انقاذ مدينة القسطنطينية من السقوط فى قبضة الأتراك العثمانيين . فعلى حين إكتفى باربارو بذكر أن البندقية قد اتخذت قراراً بارسال اسطول بحرى لتقديم المساعدة للقسطنطينية (ذلك الأسطول الذى لم يصل أبداً إبان الحصار) ، فإنه لم يشر إلى أية مساعدة فعلية قامت بتقديمها البابوية أو ملوك غرب أوربا من أجل انقاذ المدينة.

كما يمكننا أن نلحظ أنه فى الوقت الذى أشاد فيه باربارو بشجاعة مواطنيه البنادقة فى الدفاع عن القسطنطينية، فإنه لم يشد ببسالة القوات البيزنطية المدافعة عن المدينة، بل إنه وجه إليها الاتهام بانخفاض الروح المعنوية. ولاشك أنه بالغ كثيراً فى امتداح شجاعة النبلاء البنادقة ، وكذلك فى اتهامه للمدافعين البيزنطيين عن مدينتهم بعدم ابداء الشجاعة الواجبة فى مواجهة الهجمات المتوالية للأتراك العثمانية (٢).

غير أن ذلك لاينزع عن باربارو صفة الموضوعية فى يومياته ، وعلى سبيل المثال فلم تمنعه كراهيته الشديده للأتراك، وللسلطان محمد الفاتح، من آن يشيد بجنود الانكشارية العثمانيين، وآن يصفهم بأنهم كالأسود الضارية . ولايهابون الموت ، وبانهم جنود محترفين ، وأبدى اعجابه

١- Barbaro , Op. cit, p. 12 .

٢- Ibid, p. 50 .

بما يقومون به فى ميدان القتال. لدرجة أنهم كانوا لايسمحون للبيزنطيين بالحصول على جثث القتلى الأتراك، فكانوا يتقدمون بمواجهة الأسوار بشجاعة بالغة ، من أجل استرداد جثث قتلاهم دون خوف على أنفسهم من التعرض للموت، أو الإصابة البالغة على أيدى المدافعين عن أسوار القسطنطينية ، من الجنود البيزنطيين والإيطاليين[١].

ويمكن القول أنه على الرغم من الاهتمام الشديد الذى أولاه باربارو لذكر الأحداث السياسية والعسكرية التى جرت فى ميادين القتال ، براً وبحراً، فإنه لم يتطرق لذكر الأحوال الاقتصادية داخل مدينة القسطنطينية المحاصرة . وكيفية توفير المؤن والامدادات الغذائية وتوزيعها على السكان والمدافعين عن المدينه. ولابد أن القسطنطينية كانت تعانى آنذاك من قلة الإمدادات التموينية نتيجة الحصار البحرى والبرى الذى فرضه العثمانيون عليها .

وعلى الرغم من اهتمام باربارو بذكر الوقائع العسكرية بين العثمانيين والبيزنطيين، فإنه لم يعط القائد التركى زاجان باشا حقه من المدح والإطراء لدوره البارز فى فتح القسطنطينية كما أنه لم يتطرق لخيانة الوزير التركى خليل بك، وصداقته للبيزنطيين، وإيعازه الدائم للسلطان الفاتح بالتخلى عن محاولة اقتحام القسطنطينية.

وتبدو الخلفية الثقافية والتاريخية للمؤلف نيقولو باربارو ضحلة فيما يتعلق بالعلاقات العثمانية البيزنطية فى المرحلة السابقة على فتح القسطنطينية . فعلى الرغم من ذكره لوجود الأمير التركى أورخان بالقسطنطينية [٢]، ودوره فى الدفاع عنها إلى جانب البيزنطيين ، فإنه لم يفسر لنا سبب وجود أورخان Orhan فى البلاط البيزنطى. وهو الأمر الذى قامت المصادر التاريخية الأخرى- التى قام بكتابتها مؤرخون محترفون - بتفسيره حسب تتبعها للخلافات داخل البلاط العثمانى ، ومن ثم لجوء أورخان للبيزنطيين ضد أبناء عمومته .

ولم يتعرض باربارو فى يومياته للأيام الأولى لوجود العثمانيين بالقسطنطينية بعد الفتح ، كما أنه لم يتحدث عن معاملة السلطان محمد الفاتح للسكان البيزنطين، وفدائه للعديد من الأسرى الذين سقطوا فى أيدى جنوده الأتراك.

وكذا لم تتناول يوميات باربارو المعاملة الطيبة التى أبداها السلطان الفاتح تجاه كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية ، وتعيينه للبطريرك جيناديوس Ginnadius على رأس البطريركية الارثوذكسية بالمدينة.

١- Barbaro , Op. cit, pp. 32, 63 .

٢- Ibid, p. 28 .

وفضلاً عن ذلك لم تفصح يوميات باربارو لنا عما حدث للقائد العسكرى الأعلى لوكاس نوتاراس بعد سقوط القسطنطينية ، ولا عن المعاملة الطيبة التى قام بها الفاتح تجاهه ، قبل أن يأمر بقتله فيما بعد .

والحقيقة أن عدم ورود تلك الأحداث في يويمات باربارو لايقلل من قيمتها التاريخية ، ويمكننا فهم ذلك إذا ما تذكرنا أن نيقولو باربارو قد غادر مدينة القسطنطينية يوم سقوطها ، على متن سفينته ، وهو ما يجعل م عدم استكماله للأحداث التى جرت فى المدينة بعد الفتح ، آمرًا يبدو منطقيًا .

وعلى الرغم من هذا ، فإن المصدر التاريخى الذى بين أيدينا الآن، يعد أهم مصادر الفتح العثمانى للقسطنطينيه ١٤٥٣م، وأكثرها دقة ، إذ قام المؤلف بتدوينه على شكل يوميات ، لجمل الأحداث العسكرية التى وقعت بين الجانبين العثمانى والبيزنطى، التى شاهدها المؤلف بنفسه، أو سمع بها من زملائه – على البر– فى نفس يوم حدوثها .

وإذا ما قمنا بمحاولة– متواضعة– لمقارنة العمل الذى تركه باربارو حول فتح القسطنطينية بباقى المصادر التاريخية اللاتينية والبيزنطية والعثمانية، فسوف نجده يتفوق عليها جميعًا، خاصة فيما قام به من «تكثيف» لهذا الحدث الكبير.

فقد انصبّت يومياته على أحداث فتح القسطنطينية بشكل مباشر، ولم يخرج عن خيط الأحداث الذى أمسك به منذ البداية ، ولم يترك الحديث عن الوقائع العسكرية ليلتفت إلى وقائع أخرى، مما يقطع حبل أفكاره . وهو ما جعل باربارو لايكتب كلمة واحدة فى يومياته خارج الموضوع الذى انتوى الكتابة فيه . وعلى الرغم من غرامه بالتفاصيل ، فإن ايرادها كان هامًا من الناحية التاريخية ، كما أنها لم تستغرقه تمامًا . بل كان ينتقل منها إلى ذكر أحداث جديدة بتفاصيلها كلما أمكنه ذلك.

وهكذا فإن مقارنة مصدرنا التاريخى اليوم بالمصادر الأخرى المعاصرة لفتح العثمانيين للقسطنطينية تظهر تفوقه بشكل كبير . وعلى سبيل المثال فإن ما قام بكتابته الفلورنسى جياكومو تيدالدى Giacomo Tedaldi[١] من صفحات حول ذلك الحدث، لايشفى غليل الباحث الجاد. فلم يتناول بالتفصيل ما حدث من مواجهات عسكرية فى البحر وعلى البر.

١– Giacomo Tedaldi , in, Jones (ed.) The Siege of Constantinople 1453 : Seven Contemporary Accounts , Amesterdam , 1972 , pp. 1-10 .

وعلى الرغم من أنه حاول إحصاء عدد السفن العثمانية والبيزنطية. فإنه لم يتطرق لما جرى داخل مدينة القسطنطينية سواء فيما يتعلق بإقرار وحدة الكنائس، أو باستعدادات المدافعين البيزنطيين عن الأسوار.

كما أن تيدالدى لم يتطرق لكيفية توزيع القوات البيزنطية والإيطالية ، والأسلوب الذى تم اتباعه فى الدفاع عن أسوار المدينة. ولا عن كيفية مهاجمة السفن العثمانية. فضلاً عن كونه كان مغرمًا بذكر سُمك أسوار القسطنطينية ، وارتفاعها ، وعمق القنوات الموجوده أمامها، وعرضها كما أنه تعرض لذكر وجود جيوفانى جستنيانى الجنوى، وإبراز شجاعته ، كما عرض فى النهاية لاستسلام أهالى المستعمرة الجنوية فى غلطه للسلطان محمد الفاتح .

والحقيقة أن يوميات نيقولو باربارو التى جاءت فى عشرات الصفحات ، تفوقت فى تفصيلاتها وحبكتها التاريخية، ودقتها عما كتبه جياكومو تيدالدى فى وريقات معدودة .

وكذلك الحال، فإن كتاب باربارو يعد أكثر أهمية مما كتبه كريستوفورو ريشيريو Cristoforo Ricchorio [١]، فعلى الرغم من أن الأخير قد أشاد بشخص السلطان محمد الفاتح ، ممتدحًا ذكاءه ، ومعدداً الأسباب التى دعته إلى توجيه اهتمامه نحو الاستيلاء على القسطنطينية ، فإن ما ذكره ريشيريو عن الأعمال العسكرية المتبادلة بين الجانبين العثمانى والبيزنطى ليس بمستوى ما قام باربارو بتسجيله ، إذ تناول اقتحام العثمانيين للقسطنطينية بشكل عابر وسريع، فضلاً عن إشارته البسيطة لدور جستنيانى فى الحرب.

ثم عرج ريشيريو على ما قام به الجنود العثمانيون فى المدينه من عمليات السلب والنهب، كما تعرض لإعدام القائد العسكرى الأعلى نوتاراس ، مما يشئ أنه مكث بالمدينة لفترة من الوقت بعد الفتح العثمانى، وتلك هى النقطه الوحيدة التى تفوق فيها عمل ريشيريو على يوميات باربارو . وإن كان للأخير عذره كما نعرف إذ قام – وزملاؤه– بالفرار من القسطنطينية يوم الفتح ، خوفًا على حياتهم .

وتتفوق يوميات باربارو على ما كتبه الإيطالى جورجى دولفين Zorzi Dolfin[٢] الذى عاصر الفتح العثمانى للمدينة ، وكتب أحداثه فى تقرير من عدة صفحات ، سجل فيه بشكل سريع للغاية، كيف اتخذ المدافعون البيزنطيون واللاتين مواقعهم داخل القسطنطينية استعدادًا للهجوم العثمانى النهائى .

١- Cristoforo Riccherio, The Capture of Constantinople in the Year 1453 on the Twenty - ninth day of May , in Jones (ed.) , pp. 117-124 .

٢- Zorzi Dolfin , Cronaca ff. 313-322 (Selections) in, Jones (ed.) , pp. 125-130 .

كما سجل دولفين أيضاً بعض الأساطير والمعجزات التى راجت فى أوساط البيزنطيين قبيل سقوط القسطنطينية ، ولم يفته أيضاً أن يسجل – فى عجالة سريعة– ابتهاج السلطان محمد الفاتح بالنصر.

والحقيقة أنه لايمكن ، بأية حال من الأحوال ، مقارنة ما كتبه دولفين بيوميات نيقولو باربارو شديدة التفصيل، والتى اهتمت بذكر كل شاردة وواردة حول الحصار والاقتحام العثمانى للقسطنطينية .

ولدينا مصدر لاتينى آخر يتحدث عن سقوط القسطنطينية فى قبضة العثمانيين، وهو عبارة عن نص رسالة قام بكتابتها انجيلو جيوفانى لوميللينو Angelo Giovanni Lomellino(١) البودستا السابق لمستعمرة الجنوية فى غلطه (بيرا) إلى أخيه ، وهى لاتتحدث كثيراً عن اقتحام العثمانيين للقسطنطينية ، بقدر ما تتحدث عن أحوال الجنوية وأوضاعهم ابان ذلك الحدث. وعن الاتفاقية التى نجح البودستا الجنوى لوميللينو فى عقدها مع السلطان محمد الفاتح من أجل استمرارية امتيازاتهم التجارية فى غلطه . وهى فى النهاية لايمكن أن تقارن بما قامت بتسجيله يوميات نيقولو باربارو حول الفتح العثمانى للقسطنطينية .

ويمكن مقارنة المصدر التاريخى الذى بين أيدينا بأحد المصادر اللاتينية الهامة حول سقوط القسطنطينية ، وهو التقرير الذى قدمه ليونارد الخيوسى Leonard of Chios أستاذ اللاهوت ، وكبير أساقفة ميتيلين Mytilene إلى الباب نيقولا الخامس Nicholas V فى يوم السادس عشر من أغسطس ١٤٥٣م. ويتميز هذا المصدر بالذات بالموضوعية لعدة أسباب، أهمها أن ليونارد الخيوسى كان داخل مدينة القسطنطينية أنذاك ، موفداً من قبل البابا نيقولا للاشراف على مسألة الاتحاد الكنسى.

ومن الجدير بالذكر أن نيقولو باربارو قد أشار فى يومياته إلى وجود ليونارد الخيوسى فى الاجتماع الذى تم عقده فى كنيسة أيا صوفيا بتاريخ الثالث عشر من ديسمبر ١٤٥٢(٣)، من أجل اقرار الاتحاد الكنسى. وإن كان باربارو لم يذكر اسمه صراحة ، لكنه أشار أكثر من مرة إلى وجود أسقف ميتيلين.

١- Angelo Giovanni Lomelline , ex- Podesta of Pera, to his brother . in , Jones (ed.) , pp. 131-135.

٢- Leonard of Chios , the History of the Loss and Captivity of the city of Con- stantinople, Written to his Holiness Pope Nicholas in , Jones (ed.) , pp. 11-41 .

٣- Barbaro , Op. cit., p. 12

وقد استطاع ليونارد الخيوسى الهرب من القسطنطينية ابان اقتحام العثمانيين لها، وواصل طريقه لتقديم تقريره عما حدث للبابا نيقولا بعد ذلك بعدة آشهر . والحقيقة أن رواية ليونارد الخيوسى حول سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين، تتميز أيضًا بالدقة والموضوعية . فقد أفرد صفحات طويلة فى تقريره للحديث عن الوضع الدينى بالقسطنطينية ، وعملية الاتحاد الكنسى(١)، وذكر ليونارد صراحة أن ترحيب البيزنطيين بالاتحاد الكنسى كان ظاهريًا فقط، وأنه قام بتأليب الامبراطور على الشعب البيزنطى المعارض لوحدة الكنائس .

كما أن تسجيل ليونارد الخيوسى لعمليات القتال اليومى فى البر والبحر بين المعسكرين العثمانى والبيزنطى كان دقيقًا وموضوعيًا ، ويكاد ينافس ويضاهى ما قام به نيقولو باربارو فى كتابه .

وأبدى ليونارد اعجابه بتنظيم جيش محمد الفاتح ، وقوته ، ونظام تسليحه، وتحدث عن المدافع العثمانية الضخمة ، كما سجل الفكره العبقرية التى قام محمد الفاتح بتنفيذها ونقل السفن العثمانية – برا– إلى خليج القرن الذهبى. وذكر أيضًا تشييد العثمانيين للجسر الخشبى عبر استخدام براميل الزيوت والخمور، لقطع ذراع القرن الذهبى من غلطه إلى أسوار القسطنطينية(٢).

ويتفوق تقرير ليونارد الخيوسى على ما كتبه نيقولو باربارو فى يومياته فى ذكره لبعض المواقف والأحداث التى أغفلها الأخير، مثل الخلاف بين جيوفانى جستنيانى والقائد العسكرى الأعلى نوتاراس حول الأسلوب الأمثل للدفاع عن المدينة (٣)، وكذلك حديثه عن الدور الحقيقى الذى لعبه خليل باشا ، والخطابات التى قام بارسالها للامبراطور البيزنطى يحرضه فيها على عدم تسليم القسطنطينية لمحمد الفاتح (٤)، تلك الرسائل التى قام لوكاس نوتاراس بتسليمها للسلطان العثمانى بعد سقوط المدينة ، والتى أدت فى النهاية إلى قيام الفاتح بعزل خليل باشا، والقاء القبض عليه، ثم اعدامه فى مدينة أدرنه (٥).

١- Leonard of Chios. Op. cit, pp. 12-13, 19 .

٢- Ibid, pp. 16 , 20-21 .

٣- Ibid , pp. 29-30 .

٤- Ibid, pp. 31-32 .

٥- Ibid, pp. 39-40 .

وينفرد تقرير ليونارد الخيوسى- من دون كافة المصادر اللاتينية والبيزنطية- بتدوين الصيحات التى خرجت من حناجر الجنود العثمانيين إبان القتال «لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله» (١)، كما أنه ذكر أيضًا استباحة الجنود العثمانيين مدينة القسطنطينية لثلاثة أيام بعد الفتح ، وأسرهم لستين ألفًا من المسيحيين البيزنطيين واللاتين .

ولعل ما ذكره ليونارد الخيوسى فى تقريره من أحداث يكمل ما قام بتسجيله نيقولو باربارو فى يومياته ، التى تحتفظ بكونها يوميات تتحدث بشكل تفصيلى أكثر عن الاشتباكات العسكرية البحرية والبريه بين الطرفين العثمانى والبيزنطى، دون أن تستدرج للحديث عن تفصيلات أخرى لم يكن باربارو مهتمًا بايرادها ، خاصة وأنه كان موجوداً طوال الوقت على متن سفينته ، ولم يحدثنا أبدًا أنه قد غادرها يومًا ما.

ويتجلى الفارق فى التعبير عن موقف الجنويه من الأحداث لدى كل من نيقولو باربارو (البندقى) ، وليونارد الخيوسى (الجنوى) ، فعلى حين وصم الأول الجنويه بالخيانه والتحالف مع السلطان محمد الفاتح ضد الامبراطور والشعب البيزنطى، وبأنهم أعداء المسيحية والرب، وقام أيضًا باتهامهم بكشف الخطط العسكرية البيزنطية للعثمانيين مقابل الاحتفاظ بامتيازاتهم التجارية، فإن ليونارد الخيوسى كان يبدو فى تقريره خجلاً من موقف الجنوية . وعلى الرغم من وصفه لتصرفاتهم بالحكمة والتروى ، فإنه عاد وذكر أنه إذا لم يكن مخطئًا فانه كان من الأفضل لهم أن يعلنوا الحرب على العثمانيين بدلاً من مهادنتهم (٢). واتهمهم أيضًا بالسلبية والتخاذل مقابل التمسك بامتيازاتهم التجارية .

وفى الوقت الذى استخدم فيه نيقولو باربارو عباراته الحاده والملتهبة لوصف موقف الجنويه، فان ليوناردو الخيوسى كان يكتب كمن فى فمه ماء. فاستخدم عبارات تخفيفيه لوصف موقف الجنويه من ذلك قائلاً ، «أنتم أيها الجنوية . لقد تم ترويضكم . ومن ناحيتى سوف أظل صامتًا ، تاركًا للآخرين مهمة اصدار الحكم على شعبى»(٣).

١- Leonard of Chios, pp. 33,36 .

٢- Ibid, pp. 18-19 .

٣- Ibid, p. 19 .

وعلى الرغم من أن مسرح العمليات العسكرية كان فوق الأرض والمياه البيزنطيه، فقد تفوق كتاب باربارو ، ذلك المصدر التاريخى اللاتينى ، على كافة المصادر التاريخية البيزنطية، التى دونت نهاية الامبراطورية البيزنطية وسقوط القسطنطينية .

وإذا ما حاولنا المقارنة بين المصدر الذى بين أيدينا ، وما كتبه المؤرخ البيزنطى كريتوفولوس Kritovoulos(١) حول الأحداث التى جرت عند سقوط المدينة ، سوف نجد أن كتاب باباروا يتميز بذكره لكافة الأحداث التى جرت فى البحر وعلى البر، على عكس كريتوفولس الذى لم يكن مهتماً بذكر جميع تلك الأحداث، لأنه كرّس مصدره التاريخى من أجل الحديث عن حياة وفضائل السلطان محمد الفاتح فى الفترة ١٤٥١-١٤٦٧م.

ويشكل عام اهتم كتاب كريتوفولس- الذى حّول ولاءه من الامبراطورية البيزنطية إلى السلطان الفاتح - بذكر استعدادات العثمانيين للهجوم على القسطنطينيةوالاشتباكات العسكرية بين الطرفين .

ومن الغريب أن كريتوفولس لم يتطرق لعدد القوات البيزنطية ودفاعاتها، والسياسة التى اتبعها الامبراطور قسطنطين الحادى عشر من أجل الدفا ع عن المدينة ، وهو الجانب الذى لم يغفله كتاب باربارو ، فاستحق أن يتفوق على هذا المصدر البيزنطى فى ذكره لتفاصيل الأحداث ، وفى دقته الشديدة .

أما المصدر البيزنطى المعروف بحولية فرانتزس Sphrantzes (٢)، نسبة إلى المؤرخ جورج فرانتزس الذى تناول الأحداث التاريخية التى جرت فى الفترة من ١٢٥٩-١٤٧٧م، فإن ما يهمنا منه تلك الأحداث المتعلقة بسقوط القسطنطينية، حيث نجد أن فرانتزس لم يذكر أحداث سقوط المدينة بالتفصيل كما فعل باربارو، بل اكتفى بايراد اشارات بسيطة عن ذلك ، ولم تستغرق الفترة من ١٤٥١-١٤٥٣م سوى صفحات قليلة من كتابه الكبير.

ولايملك المرء سوى التعجّب من عدم ذكر فرانتزس للأحداث بشكل وافٍ ، وموضوعى على الرغم من قربه من الامبراطور البيزنطى، وكونه شاهد عيان لكل ما جرى عند أسوار

١- Kritovoulos, History of Mehmed The Canqueror Trans. by Charles T. Riggs, Princeton , 1954 .

٢- Sphrantzes, G, The Fall of the Byzantine Empire Achronicle by Gearge Sphrantzes 1401-1477 . Trans . by , Marios Philippides, Amherest, 1980 .

القسطنطينية ، بل أن العثمانيين قاموا بأسره مع عائلته بعد اقتحامهم المدينة، ولم يطلقوا سراحه سوى فى شهر سبتمبر ١٤٥٣م.

والحقيقة أن كل ما سبق يجعلنا نجزم بأن هذا المصدر التاريخى البيزنطى لايصمد طويلاً أمام يوميات نيقولو باربارو الموضوعية حول وقائع سقوط القسطنطينية .

ويعتبر المصدر التاريخى الذى كتبه المؤرخ البيزنطى خالكو كونديليس Chalcocandyles (١) جديراً بالانتباه ، خاصة عند تعرضه للفترة الأخيرة من العلاقات البيزنطية العثمانية التى أفضت إلى سقوط القسطنطينية فى قبضة السلطان محمد الفاتح .

واهتم هذا المصدر بذكر البداية الحقيقة لتحويل نوايا السلطان إلى واقع فعلى ملموس ، عندما أمر ببناء قلعة الروم (الروملى حصار)، من أجل احكام حلقات الحصار حول مدينة القسطنطينية.

وسجل خالكوكنديليس فى كتابه بعض المعارك التى جرت بين الجنود العثمانيين والبيزنطيين، وأشاد أيضًا بجنود الانكشارية الأتراك . لكنه تميز - فقط- عن كتاب باربارو فى أنه تحدث عما جرى فى القسطنطينية بعد سقوطها، وعن إعدام السلطان الفاتح للقائد العسكرى نوتاراس ، وللوزير خليل باشا. وهو ما لم يرد فى يوميات باربارو التى انتهت فعليًا يوم سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك، وهروبه على متن سفينته إلى وطنه الأم، البندقية.

ويمكن مقارنة يوميات باربارو حول سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين ١٤٥٣م بما ورد فى أحد أهم المصادر التاريخية البيزنطية، المنسوبة إلى المؤرخ البيزنطى ميخائيل دوكاس Michael Doukas (٢)، الذى كان معاصرًا للاقتحام العثمانى للمدينة . لكنه لم يكن بداخل القسطنطينية وقت الهجوم ، كما أنه استقى معلوماته بعد ذلك من أفواه بعض الجنود الأتراك، ومن إحدى السيدات البيزنطيات ذات الأصل النبيل، فضلاً عن تأليفه لهذا المصدر بناء على رغبة أحد الرهبان.

١- Laonicus Chalcocondylas , Turkish History , Book VIII, 201-214 , in , Jones (ed.) , pp 42-55 .

٢- Doukas, M, Decline and Fall of Byzantium to Ottoman Turks. Trans by , Harry J. Magoulias, Detroit , 1975 .

كما اعتمدت على الفصول من ٣٣ إلى ٤٢ من كتاب دوكاس حسب ترجمة أخرى له . انظر .

Michael Ducas, Byzantin History, Chapters, 33-42 in , Jones (ed.) pp. 56-116 .

وتتبع أهمية كتاب دوكاس من تتبعه الجيد للعلاقات العثمانية البيزنطية منذ عشرات السنين قبل فتح القسطنطينية ، وإفراده لعشرات الصفحات في كتابه للحديث عن الأحوال الداخلية للعثمانيين حتى سقوط القسطنطينية . وهو ما يشئ بثراء خليفته الثقافية والتاريخية بالمقارنة مع نيقولو باربارو .

ويسبب الأصل والانتماء البيزنطى للمؤرخ دوكاس ، فقد امتلأ كتابه بعبارات الهجاء العثمانيين ، وخاصة للسلطان محمد الفاتح الذى نعته بالطاغية ، الوثنى، الكافر، الشيطان ، الثعبان ، نبوخذ نصر...

والحقيقة أن كتاب باربارو، شاهد العيان، يتفوق من الناحية التاريخية على ما كتبه دوكاس- من واقع ما استمع إليه- من فصول في كتابه الهام، حتى وإن تتبع الأخير ما جرى للبيزنطيين والعثمانيين بعد سقوط المدينة حتى العام ١٤٦٢م.

وحتى يكتمل ادراكنا بأهمية المصدر التاريخى الفريد الذى خلّفه لنا نيقولو باربارو ، يجب علينا مقارنته أيضاً بالمصادرالتاريخية العثمانية المعاصرة للحصار العثمانى للقسطنطينية.

وتعتبر يوميات باربارو فى غاية الثراء من ناحية المعلومات التاريخية ، بالمقارنة مع المصدر التاريخى المعاصر الذى خلفه لنا المؤرخ العثمانى ابن عاشق باشا Asik Pasha oglu(١) الذى ولد في العام ١٤٠٠م. وكان معاصراً لأحداث الفتح العثمانى. والّف كتاباً ، ضمّنه أحداث سقوط القسطنطينية.

غير أن هناك سببين فى رأينا يقللان من اكتمال القيمة العلمية والتاريخية لما قام بكتابته . الأول أنه بدأ كتابة ذلك المصدر التاريخى الذى عرف باسم «تاريخ ابن عاشق باشا»، وهو فى السادسة والثمانين من عمره ، أى فى العام ١٤٨٦م، وبعد سقوط القسطنطينية بثلاث وثلاثين عاماً. الأمر الذى يشئ بعدم مصداقية ما ذكره بشكل كامل، نتيجة لما يشوب ذاكرة الإنسان من عوار فى ذلك العمر المتأخر.

والدليل على ذلك يأتى فى طيات السبب الثانى، وهو أن عاشق باشا لم يفرد لمسألة فتح القسطنطينية سوى بعض الصفحات القليلة داخل كتابه، الذى قام بكتابته بأسلوب عادى وبسيط من أجل إعلان شأن أبناء عثمان، ومخاطبة الوجدان الشعبى التركى.

١- Asik Pasa Oglu Tarihi , Hazirlayan, A. Nihal Atsiz, Ankara, 1985 .

وعلى الرغم من تميز المصدر التاريخى لابن عاشق باشا بالحديث عن الخلفية التاريخية لآل عثمان، وعلاقاتهم السابقة مع الإمبراطورية البيزنطية، وهو ما لم تتحدث عنه يوميات نيقولو باربارو، فإن كتاب الأخير يثبت دومًا موضوعيته، وتفوقه على ما جاء فى كتاب ابن عاشق باشا فيما يختص بالحقائق التاريخيه التى تفيض بها يومياته حول الحصار العثمانى .

وهناك مصدر تاريخى عثمانى يعتبر فى غاية الأهمية فى تناوله لمسألة سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين. ذلك الذى خلّفه لنا المؤرخ العثمانى طورسون بك Tursun Bey (١)، الذى عمل سكرتيرًا فى الديوان العثمانى، وهو ما ساعده على الاطلاع على كافة المراسلات ، والجهود الدبلوماسية التى دارت بين العثمانيين والبيزنطيين . فضلاً عن حضور المجالس التى عقدها السلطان الفاتح مع مستشاريه ، من أجل مناقشة أمر اقتحام مدينة القسطنطينية.

والحقيقة أن رواية طورسون بك عن الأحداث تكتسب أهميتها من كونه كان مشاركًا فيها، كاشتراكه فى بناء قلعة الروم، ومشاركته أيضًا فى حصار مدينة القسطنطينية برفقة السلطان الفاتح.

وظل طورسون بك متابعًا للأحداث. وملتصقًا بالسلطان العثمانى، حتى سقوط المدينة . فكان ضمن الوفد الذى دخل القسطنطينية برفقة محمد الفاتح.

وتحدث طورسون بك بشكل مستفيض عن الأحداث التى واكبت الحصار العثمانى للقسطنطينية ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان يمكنه الحديث بشكل أكثر دقة وتفصيلاً عن تلك الأحداث ، لكنه لم يفعل ذلك لسببين في غاية الأهمية ، الأول أنه شرع فى كتابة هذا المصدر التاريخى فى العام ١٤٨٨م، حينما كان فى الستين من عمره وبعد خمس وثلاثين عامًا سقوط القسطنطينية وهو ما جعله لايتذكر باقى الأحداث التى قام بتسجيلها نيقولو باربارو أولاً بأول على ظهر سفينته . والسبب الثانى أن طورسون بك قام بتأليف كتابه فى الأساس من أجل تمجيد ما قام به السلطان الفاتح من إنجازات حتى العام ١٤٨٨م، حيث قام بعد الانتهاء منه بتقديمه إلى السلطان العثمانى بايزيد الثانى ١٤٨١-١٥١٢م.

ويمكن اعتبار رواية طورسون بك عن الفتح العثمانى للقسطنطينية ١٤٥٣م، أدق رواية مفصلة تمت كتابتها بواسطة مؤرخ عثمانى معاصر. كما امتلأ كتابه بالعديد من النظم،

١- Tursun Bey, Tarih-ı Ebul' - Feth, Hazirlayan, Mertol Tulum , Istanbul, 1977 .

والأبيات الشعرية ، والاستشهاد بالآيات القرآنية، وامتداح العثمانيين ومحمد الفاتح بشكل كبير. غير أن ما يحسب له أيضًا هو تناوله لما حدث بالقسطنطينية بعد سقوطها، وجهود السلطان الفاتح فى تعميرها بعد الفتح .

وعلى الرغم من ذلك كله. فإن ما ذكره طورسون بك فى كتابه فيما يتعلق بأحداث فتح القسطنطينية ، لايرقى إلى يوميات مؤرخنا البندقى نيقولو باربارو ، الذى خلّف لنا مصدراً تاريخياً فى غاية الأهمية ، ويوميات صريحة متكاملة ، تعد أصدق تصوير للحصار العثمانى للقسطنطينية.

... وهكذا ، فإن المصدر التاريخى الذى بين أيدينا الآن، يتميز بعدة مزايا هامه، أولاها أن كاتبه كان معاصراً وشاهداً على الأحداث بشكل كامل، وثانيها أنه كان يقوم بتدوين تلك الأحداث فى نفس يوم حدوثها ، حتى لايصيب ذاكرته عور، أو التباس، فضلاً عن تذكره للعديد من التفاصيل التى لم يستطع مصدر تاريخى آخر، سواء أكان بيزنطيًا أو لاتينيًا أو عثمانيًا، جمعها بشكل واف ودقيق.

ويبدو لنا أن عدم امتهان نيقولو باربارو لمهنة المؤرخ الرسمى، قد ناء به عن محاولة تزييف الأحداث التاريخية. وعن مساحة المدح والاطراء، والقاء الاتهامات بغير حساب ، تلك الصفات التى تميز بها المؤرخون الرسميون فى بلاط الحكام فى العصور الوسطى. إن كنا نستثنى من ذلك مدحه لبنى جنسه ، واتهاماته لخصومهم الجنويه .

وبعبارة أخرى ، فإن الطبيب والجراح نيقولو باربارو ، لم يتم تكليفه بشكل رسمى من قبل حكومته، أو حتى من قائد الأسطول البندقى بوضع مثل تلك اليوميات، وإلاّ كانوا قد قاموا بتوجيه تعليماتهم إلى أحد الكتبة، أو الموثقين الموجودين على متن السفن، باعتبارهم يمتهنون الكتابه. وباعتبار أن للطبيب دوراً هامًا فى اسعاف ومداواة جرحى الحرب الدائرة .

وهكذا يمكننا القول أن نيقولو باربارو قام بكتابة يومياته بقصد ألاّ تكون «تاريخا رسميًا». وهو ما يكسبها مصداقية كبرى، وينفى عنه صفة الغرض، ويجعل منها مادة تاريخية خالصة للأجيال التالية من الباحثين، التى تبحث عن التاريخ الحقيقى للشعوب، والأحداث التاريخية الكبرى.

... على أية حال ، فقد أحدث فتح العثمانيين للقسطنطينية يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى، ٨٥٧هـ- ٢٩ مايو ١٤٥٣م دويًا كبيرًا فى عالم العصور الوسطى. فقد جاء سقوط القسطنطينية إيذانًا بما يمكن تسميته - تجاوزًا- نشوء نظام عالمى جديد. إذ نجح العثمانيون فى القضاء تمامًا على احدى أهم القوى المؤثرة فى العصور الوسطى لأكثر من احدى عشر قرنًا من الزمان. وهى الامبراطورية البيزنطية ، وبرزت على مسرح الأحداث قوة عسكرية جديده ، وواعدة، أخذت فى تهديد باقى القوى الكبرى الموجودة فى أواخر العصور الوسطى، كالدول الأوربية المسيحية، ودولة المماليك فى مصر والشام.

كان لنجاح العثمانيين فى الاستيلاء على القسطنطينية آثاره العديدة على المعسكرين الإسلامى والمسيحى. إذ سطعت شمس العسكرية العثمانية ، التى أثبتت نجاحها فى انتصارات سابقة على البيزنطيين والصرب والمجريين ، لكن نجاح العثمانيين فى فتح القسطنطينية ارتفع بسمعة العسكرية العثمانية إلى عنان السماء، خاصة بعدما رواه المؤرخون المعاصرون- البيزنطيين واللاتين- عن الخطط الحربية الباهرة التى قام بتنفيذها السلطان محمد الفاتح ، كنقل السفن العثمانية «برًا» وانزالها على نحو مباغت فى خليج القرن الذهبى. وكذلك تشييده للجسر الخشبى ما بين بيرا وأسوار القسطنطينية، وعن آلات الحصار الجديدة التى اعترف المؤرخون البيزنطيون بأهميتها الفائقة فى حصار القسطنطينية ، فضلاً عن تسجيلهم لشجاعة وبسالة الجنود العثمانيين.

وشجع هذا الانتصار العسكرى الباهر العثمانيين على استكمال تحقيق طموحاتهم العسكرية ، والالتفات نحو باقى أعداء الدولة العثمانية ، من أجل القضاء عليهم، والحصول على أراض وممتلكات جديدة ، فضلاً عن مواصلة نشر الإسلام فى وسط أوربا . وهو ما تحقق بعد ذلك نتيجة الانتصارات العثمانية المتوالية ، التى أدت إلى وصول الجيوش العثمانية لحصار مدينة ڤيينا مرتين ١٥٢٩م، ١٦٨٣م[١].

وتمكن العثمانيون نتيجة لفتح القسطنطينية من السيطرة على ضفتى مضيق البوسفور، والربط بين الأراضى العثمانية فى آسيا الصغرى، والممتلكات العثمانية الجديده فى القارة الأوربية . وهو ما أدى فى النهاية إلى تحسين وضعهم الاستراتيجى بشكل واضح ، وسيطروا بشكل كامل على طريق التجارة المؤدى إلى البحر الأسود.

١- يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية ، ص٢٧٢ ، ٢٩ه .

وأدى ذلك كله إلى تنامى القوة البحرية العثمانية . حيث بدأ الاهتمام ببناء الأساطيل لمساعدة القوات البريه في مرحلة الفتوحات الجديدة، خاصة بعد أن لوحظ عدم كفاءة الأسطول العثمانى ابان المعارك البحرية مع الأسطول البيزنطى، قبيل نجاحهم فى اقتحام القسطنطينية ١٤٥٣م.

بدأ العثمانيون فى تدشين مرحلة جديدة، والتحول من مرحلة الدولة إلى مرحلة الامبراطورية ، بعد أن أصبحت ممتلكاتهم تحتل رقعة واسعة من الأراضى الآسيوية والأوربية، وبعد أن اتخذ السلطان محمد الفاتح من القسطنطينية عاصمة جديدة له، والتفكير فى الانطلاق منها نحو باقى الممتلكات الخاصة ببعض الأسر البيزنطية، والجزر التابعة للمدن الايطالية.

وعلى صعيد العالم الإسلامى، فقد عمت مشاعر الفرح نتيجة نجاح العثمانيين المسلمين فى فتح القسطنطينية . وعلى الرغم من حالة التوجس التى اكتنفت العلاقات العثمانية- المملوكية ، فقد أعلن المماليك ابتهاجهم بهذا الحدث، الذى عدّوه علامة على انتصار الدين الإسلامى نفسه.

وأرسل السلطان محمد الفاتح رسولاً للسلطان المملوكى الأشرف اينال (٨٥٧-٨٦٤هـ / ١٤٥٣-١٤٦٠م) فى شوال ٨٥٧هـ أكتوبر ١٤٥٣م، يهنئه فيها بجلوسه على دست الحكم فى مصر، ويخبره بنجاحه فى فتح القسطنطينية[١]. وكان رسول السلطان العثمانى يدعى جلال الدين يوسف القابونى، ويرفقته أسيرين من كبار المسئولين البيزنطيين بالقسطنطينية[٢].

١- ابن اياس (محمد بن أحمد بن اياس الحنفى) بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج٢ ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٣١٦ ؛ ابن اياس، صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٥١م، ص١٥ ؛ ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور، ج١ ، تحقيق فهيم شلتوت ، القاهرة ، ١٩٩٠م، ص٣٨٦ .

٢- ابن تغرى بردى ، المصدر السابق، ج١ ، ص٣٨٦ : عبد الرازق الطنطاوى، العلاقات المصرية العثمانية، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ص٥٩ .

ويحدثنا المؤرخ البيزنطى ميخائيل دوكاس ، المعاصر لسقوط القسطنطينية ، عن توزيع العثمانيين للأسرى البزنطيين المسيحيين، ويشبه ذلك بما حدث ليهود أورشليم إبان السبى البابلى فيذكر « ... وكيف يمكن اللسان أن يصف كارثة سقوط القسطنطينية ووقوعها فى الأسر، وما عانته من هجر العديد من السكان لها. الذين لم يرحلوا هذه المرة من أورشليم إلى بابل وبلاد أشور لكنهم رحلوا من القسطنطينية إلى الشام، ومصر وأرمينيا ، وبلاد فارس، والجزيرة العربية . وكذلك رحلوا إلى افريقيا ، وتفرقوا عبر ايطاليا وآسيا الصغرى وباقى الأقاليم الأخرى...» انظر : . "Decline and Fall of Byzantium", p. 239

وتعبيراً عن فرح العالم الإسلامى بهذا الحدث الجلل، أمر السلطان اينال بتزيين شوارع القاهرة ، وكافة الحوانيت والأسواق لعدة أيام (١).

وقام السلطان اينال بالرد على رسالة السلطان الفاتح وهديته بارسال مبعوثه الأمير يرشباى الاينالى المؤيدى مع رسالة تهنئ السلطان العثمانى بنجاحه فى فتح القسطنطينية(٢) « ... هذا النصر الذى منّ الله تعالى به على المسلمين».

كان من الطبيعى أن تكون العلاقة الطيبة والودية موجودة بين السلطان العثمانى محمد الفاتح، والسلطان المملوكى الأشرف اينال ، لأنه لم يكن قد ظهرت فى الأفق بعد نذر احتمالات الصدام العثمانى- المملوكى، ولهذا فقد نظر المماليك إلى انتصارات الفاتح على القوى المسيحية الأوربيه بعين الارتياح أيضًا ، لأن ذلك يحول نظر العثمانيين بعيداً عن حدود دولة المماليك الجراكسة .

كما أرسل العديد من الحكام المسلمين ، كسلطان الهند الجنوبيه البهمنى(٣)، وآخرون سفراءً إلى القسطنطينية لتهنئة السلطان محمد الفاتح بنصره المجيد .

أما الآثار الناجمة عن فتح العثمانيين للقسطنطينية على صعيد الغرب المسيحى فيمكن رصدها غبر أربعة محاور :

صدى سقوط القسطنطينية على البابوية والكاثوليكية، وعلى الغرب الأوربى، وعلى النشاط التجارى للأساطيل الأوربية ، وكذا على موقف المسيحية الارثوذكسية.

١- ابن تغرى بردى ، المصدر السابق، ج١ ، ص٣٨٦. ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص٣١٦ ، ابن اياس، صفحات لم تنشر ، ص١٥ .

٢- ابن اياس ، صفحات لم تنشر ، ص١٥ ، ابن اياس وبدائع الزهور، ج٢ ، ص٣١٦، ؛ ابن تغرى بردى، حوادث الدهور ، ص٣٩٠ ، وهو الوحيد الذى يذكر أن الأمير يرشباى المؤيدى توجه نحو القسطنطينية يوم الخميس ٢٠ ذى القعده ٨٥٧هـ، وأن رسول محمد الفاتح تبعه فى السبت التالى ٢٢ ذى القعده ٨٥٧هـ

٣- يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص١٤٢، وعن أسرة البهمنى فى الهند الجنوبية ، انظر: عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام فى الهند، القاهرة ، ١٩٩٠م، ص١٧٠-١٧٤ ، حيث يتحدث عن مملكة الدكن البهمية فى جنوب الهند ٧٤٨-٩٣٤ / ١٣٤٧-١٥٢٧م.

فقد دعا البابا نيقولا الخامس في الثلاثين من سبتمبر ١٤٥٣م إلى ضرورة قيام حملة صليبية جديدة لاستعادة مدينة القسطنطينية من قبضة الأتراك العثمانيين(١)، وأمر باعادة فرض ضريبة العشر لتمويل تلك الحملة(٢). ونظراً لعدم تحمس الدول الأوربية لهذه الفكرة، وخوفها من استثارة عداء العثمانيين، فلم تخرج هذه الدعوه إلى التنفيذ بشكل جدى .

وبعد وفاة نيقولا الخامس ، تولى البابا كالستوس الثالث Calixtus (١٤٥٥-١١٥٨م)(٣) زمام الادره البابويه ، وأعاد فرض ضريبة العشر من أجل تمويل اسطول بحرى لاستعادة القسطنطينية ، لكن ذلك الأسطول لم ينجح سوى فى الحصول على بعض الجزر فى بحر ايجه ١٤٥٧م ، وسرعان ما استطاع العثمانيون استردادها مرة أخرى.

واهتزت أوربا المسيحية بعد سقوط القسطنطينية فى أيدى السلطان محمد الفاتح، لأنها ظلت لأكثر من احدى عشر قرناً تعتبرها بمثابة الدرع الواقى، أو الحصن الشرقى الذى قام بحماية القارة الأوربية من أخطار الغزاة الآسيويين فى العصور الوسطى. فضلاً عن كونها حامية المسيحية الأوربية الشرقية.

١- Kelly , J.N.D., The Oxford Dictionary of Popes, p. 245 .

٢- جرى فرض «ضريبة العشر» من أجل تمويل حملات صليبية ، أو من أجل مساعدة الصليبيين فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد، وأهمها تلك المعروفة باسم «عشر صلاح الدين» ٥٨٤هـ - ١١٨٨م تلك الضريبة التى قام بفرضها هنرى الثانى Henry II ملك انجلترا فى يناير ١١٨٨م ، بعد نجاح صلاح الدين الأيوبى فى استعادة مدينة بيت المقدس على أثر معركة حطين ٥٨٣هـ - ١١٨٧م. انظر:

حاتم الطحاوى، الاقتصاد الصليبى فى بلاد الشام ، القاهرة ، ١٩٩٩م، ص١٥٧ ، ١٨١ ؛ حسين عطية ، عشر صلاح الدين وأصوله التاريخية فى غرب أوربا ومملكة بيت المقدس الصليبية ، بحث مستخرج من كتاب : دراسات فى الحروب الصليبية ، الاسكندرية، ٢٠٠٠م، ص٢٧٧-٣٤٥ ، حيث قام بترجمة مرسوم عشر صلاح الدين ١١٨٨م. انظر ص٣١٢-٣١٥ .

وهناك ترجمة انجليزية سابقة لمرسوم عشر صلاح الدين . انظر: Cave & Coulson , Asource Book for Medieval Economic History , New York , 1965 , pp. 387-388 .

٣- ولد فى العام ١٣٧٨م درس وقام بتدريس القانون فى ليريدا Lerida قبل أن يصبح قاضيا شهيراً فى محكمة أراجون Aragone وسكرتيراً خاصاً للملك الفونسو الخامس Alfonso V (١٤١٦-١٤٥٨م) قبل أن ينتخب - بشكل مفاجئ -على رأس كنيسة القديس بطرس فى روما انظر:

Kvitovoulos, Op. cit, pp. 119-121; Kelly , Op. cit, pp. 245-246.

وانظر أيضاً : Runciman , " The Fall of Constantinople", p. 167 حيث يذكر أن ذلك الأسطول تمكن من الاستيلاء على جزر ناكسوس Naxos، ليسبوس Lesbos، ساموتراس Samothrace ، قبل أن يقوم العثمانيون باسترجاعها من جديد.

وبعد نجاح العسكرية العثمانية فى اجتياح مدينة القسطنطينية الحصينة ١٤٥٣م، بدأت الجيوش الأوربية تدرك التكتيكات العثمانية الجديدة فى فن الحرب، مما أدى بها إلى دراسة فنون الحرب العثمانية ، وكيفية محاصرة واقتحام المدن، وأدى اعجابهم بالجنود الانكشارية إلى محاولة تكوين فرق عسكرية مشابهة لها. كما وجهت الجيوش الغربية أيضاً اهتمامها نحو ضرورة الاستفادة من الدرس العثمانى ، وتطوير المدافع لدورها الحاسم فى الحروب، ومتابعة تطوير مداها ، وقذائفها .

ولايمكننا أن نغفل الأثر الإيجابى الذى أحدثه سقوط القسطنطينية على الفكر الغربى فى نهايات العصور الوسطى، وبدايات العصر الحديث. لأن التهديد المستمر من قبل العثمانيين للقسطنطينية، ثم النجاح فى اقتحامها فى النهاية ودفع بالكثير من رجال الفكر والعلم والثقافة فى جامعة القسطنطينية ومنتدياتها ، إلى الهرب باتجاه الغرب، وخاصة إلى ايطاليا(١).

وحمل هؤلاء الأدباء والعلماء والفلاسفة معهم ذخائر الكتب، ومفاتيح العلم اليونانى، الأمر الذى ساهم فى اثراء الفكر الغربى ، وزاد من نزعة التنوير به، وساعد فى اعادة ربطه بروافد الحضاره اليونانية القديمة . باعتبار أن الامبراطورية البيزنطية كانت وريثة للحضارة الكلاسيكية ، الأمر الذي ساعد على انتشار وزيادة الرغبة فى تعلم اللغة اليونانية، للولوج إلى عالم الحضارة الكلاسيكية ، وأدى ذلك فى النهاية لأن تتبوأ ايطاليا مكانتها كوريثة للثقافة البيزنطية والفكر اليونانى، وإلى بزوغ فجر النهضة الأوربية الحديثة فوق الأراضى الايطالية.

أما عن أثار سقوط القسطنطينيةعلى النشاط الاقتصادى، والتنافس التجارى بين المدن التجارية الايطالية. فقد أدركت مدن جنوا والبندقية ، قبيل فتح القسطنطينية مغزى تشييد السلطان الفاتح لقلعة الروم، مارس – أغسطس ١٤٥٢م ، حيث بدأ العثمانيون فى تحصيل ضريبة المرور من البوسفور إلى البحر الأسود والعكس. ولابد أن ادراك مدن جنوا والبندقية للغرض الحقيقى لمحمد الفاتح فضلاً عن دفعها للضرائب (٢)، كان سبباً كافياً لتقليل تجارتها مع البحر الأسود، واتجاهها نحو زيادة التجارة عبر دولة المماليك فى مصر والشام(٣).

١- السيد متولى، «الدولة البيزنطية فى عالم القرن السادس عشر»، ص١٥٥ .

٢- هايد، تاريخ التجارة، ج٣ ، ص١٦٣ .

٣- نعيم زكى فهمى، طرق التجارة الدولية ومحطاتها أواخر العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٣، ص٣٨ .

وبعد نجاح العثمانيين فى الاستيلاء على القسطنطينية ، سعت جنوا والبندقية إلى كسب ود السلطان العثمانى، والحصول على امتيازات تجارية فى بيرا والقسطنطينية ، العاصمة العثمانية الجديدة .

ونجح الجنويه أولاً في الحصول على اتفاقية تجارية مهمة من السلطان محمد الفاتح ١٤٥٣م[١]، منحهم فيها نفس امتيازاتهم السابقة فى بيرا ، فضلاً عن حصول تجارهم على إعفاء ، وتحديد قيمة الجمارك بنفس قيمتها السابقة على سقوط القسطنطينية .

ونجحت البندقية بعد ذلك، فى أبريل ١٤٥٤م[٢] فى الحصول على اتفاقية مشابهة من السلطان الفاتح ، على أن يدفعوا رسومًا جمركية تبلغ ٢٪ وأن يقوموا بمنح رعايا السلطان العثمانى فى البندقية والأراضى الخاضعة لها نفس الامتيازات التجارية التى حصلوا عليها .

١- انظر النص الأصلى اليونانى لهذه المعاهدة :

Miklosich & Müller , Acta et Diplomata Graeca Res Graecas Italasque Ellustrantia, Wien, 1865, III, pp. 287-288 .

وهناك ترجمة انجليزية لهذه المعاهدة . انظر:

Jones (ed.) " The Siege of Constantinople , " pp 136-137 .

وهى تتفق مع النص الأصلى اليونانى من حيث تاريخ هذه المعاهدة، ويبدو أنها كانت فى اليوم التالى لسقوط القسطنطينية مباشرة (٣٠مايو) أو فى الأسبوع الأول من شهر يونيه ١٤٥٣م، انظر: هايد، المرجع السابق ج٣، ص١٧٠ .

بينما يظن البروفسير بابنجر Babinger أنه جرى توقيعها فى اليوم الأول من شهر يونيه انظر: "Mehmed The Conqueror and His Time", p. 101 بينما يذكر كلٌ من نعيم زكى ، والسيد متولى – خطأ – أنها كانت فى الحادى عشر من مارس ١٤٥٤م. انظر: «طرق التجاره الدولية» ص٤٢٥ ، «الدولة البيزنطية في عالم القرن الخامس عشر »، ص١٥٣ .

والحقيقة أنه لايوجد مبرر لتأخير عقد تلك المعاهدة، فقد كان جنوية غلطه أصدقاءً للسلطان محمد الفاتح ، وهو ما جعل زاجانوس باشا يسرع بالدخول إلى بيرا بعد اقتحام القسطنطينية مباشرة . وأن يوقع مع الجنوية تلك المعاهدة نيابة عن السلطان الفاتح . ومن الطبيعى أن يتم توقيع هذه المعاهدة فى الأيام التالية لفتح القسطنطينية.

٢- هايد، المرجع السابق، ج٣، ص١٧٧-١٧٨ : . Babinger , op. cit, p. 110

وتوجد ترجمة عربية كاملة لنص المعاهدة بين محمد الفاتح والبنادقة ١٤٥٤م ، انظر. نعيم زكى ، المرجع السابق، ص٤٢٧-٤٣٨ .

وأدركت جمهورية فلورنسا أنه لابد لها من الحصول على موطئ قدم فى العاصمه العثمانية الجديده، ومنافسة جنوا، والبندقية ، فتحينت الفرصة لاقامة علاقات تجاريه قويه مع السلطان الفاتح [١]، وأرسلت أسطولاً تجارياً إلى القرن الذهبى بعد سقوط القسطنطينية، كما استقبلت سفارة عثمانية تهدف إلى اقامة علاقة وديه معها [٢]، خاصة بعد وقوف فلورنسا على الحياد ، وعدم تقديمها يد المساعدة للقسطنطينية ، والامبراطور البيزنطى كما فعل البنادقة والجنوية .

وأدى سقوط القسطنطينية فى قبضة الأتراك العثمانيين إلى زيادة الأساطيل البحرية العثمانية فى مياه البحر المتوسط، الأمر الذى أدى إلى خشية دول غرب أوربا، وخاصة البرتغال وأسبانيا على سفنها وتجارتها ، وهو ما دفعها إلى محاولة البحث بشكل جدى عن طرق ملاحية جديده، دون المرور بالمياه التى تخضع للسياده الإسلامية . وبدأت حركة الكشوف الجغرافية التى قامت باكتشاف العالم الجديد . والطرق البحرية الجديدة ، عبر المرور خلف أفريقيا الغربية والجنوبية .

كان السلطان محمد الفاتح يدرك مدى كراهية الشعب البيزنطى للاتين، ورفضهم لفكرة الاتحاد الكنسى كما جاءت فى مجمع فلورنسا ١٤٣٩م، وكذلك رفضهم لما حدث من محاولة توحيد الكنائس التى جرت فى كنيسة أيا صوفيا تحت الحصار العثمانى فى ديسمبر ١٤٥٢م.

وهدف السلطان الفاتح إلى استقرار السكان البيزنطيين فى المدينة، فأمر بالافراج عن البطريرك البيزنطى لكنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية ، وأعاد تنصيبه بطريركًا تحت اسم جيناديوس Ginnadius فى العام ١٤٥٤ م[٣]، مع منحه كافة الصلاحيات السابقة للبطاركة الأرثوذكس ، كما كفل السلطان الفاتح حرية العبادة لجميع السكان المسيحيين.

١- هايد، المرجع السابق، ج٣، ص٢٠٣ .

٢- السيد متولى، المرجع السابق، ص١٥٣ .

٣- كان اسمه الحقيقى جورج كورتيسس سكولاريوس George Kourtesis Scholarios ولد فى العام ١٤٠٥ م، عمل سكرتيرًا للامبراطور البيزنطى يوحنا الثامن باليولوغس John VII Palaeologos (١٤٢٥-١٤٤٨م) ، وحضر مجمع فلورنسا ١٤٣٩م، وقام بالتوقيع على الوثيقة الخاصة بوحدة الكنائس . لكنه غير من موقفه بمجرد عودته للقسطنطينية ، وبدأ يخطب ضد الاتحاد الكنسى . وفى العام ١٤٥٠ م تحول إلى الرهبنه تحت اسم جيناديوس Ginnadius. اختاره السلطان محمد الفاتح بطريركًا بعد الفتح على كنيسة القسطنطينية الارثوذكسية فى العام ١٤٥٤م، مات فى العام ١٤٧٢م، بعد أن ترك وراءه العديد من المؤلفات عن ذلك انظر:

=

ولاشك فى أن ما قام به محمد الفاتح، قد أكّد تكريس مبدأ الانفصال التام بين كنيسة القسطنطينية ، وكنيسة روما إلى الأبد، بل أنه جعل السكان الارثوذكس ينظرون إليه باعتباره حامى الارثوذكسية الشرقية ، بعد أن تمتعوا بحرية العباده حسب مذهبهم، دون خوف من هاجس الاتحاد الكنسى.

وفيما بعد آلت الارثوذكسية إلى كنيسة موسكو فى روسيا. حيث رفضت الكنيسة الروسية فكرة وحدة الكنائس ، وقرارات مجمع فلورنسا ١٤٣٩م . ورويدًا رويدًا بدأ الارثوذكس البيزنطيون فى التحول نحو الكنيسة الارثوذكسية فى روسيا المسيحية (١)، وانتقل الثقل من استانبول التابعة للدولة العثمانية الإسلامية إلى موسكو.

... وعلى أية حال ، فيبدو أن الآثار السياسية لسقوط القسطنطينية فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى، ما زالت تلقى بظلالها حتى الآن على العلاقات بين أوربا المسيحية ، وتركيا الحديثة (وريثة العثمانيين) ، إذ لم تنس أوربا ما فعله العثمانيون المسلمون بحصن المسيحية الشرقية، وهو ما انعكس إلى الآن على العلاقات بين الطرفين، ورفض الدول الأوربية انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوربى، فضلاً عن بعض الهواجس والممارسات الأخرى.

ولقد اتبعت فى ترجمة هذا الكتاب منهجًا حاولت فيه أن أجمع بين دقة الترجمة والحرص على المعنى الأصلى، كما حاولت أن تكون هذه الترجمة نقلاً أمينًا لأفكار نيقولو باربارو وعباراته . فيما عدا بعض الألفاظ التى استخدمها للتعبير عن كراهيته العميقة للأتراك ، فقد فضلت ايرادها فى الهامش بعيدًا عن متن الكتاب.

Nicol , D, A biographical Dictionary of the Byzantine Empire , London , 1991, p. 42 ; = Oxford Dictionary of Byzantium, vol . 2, p. 830 .

١- أرسل بطريرك القسطنطينية فى العام ١٣٩٠م إلى أمير موسكو باسل الأول Basil I يخبره فيها أنه على الرغم من حالة الضعف والتردى التى تعيشها الامبراطورية البيزنطية، فإن امبراطور القسطنطينية هو الامبراطور الحقيقى ، وأنه نائب الرب فى حماية المسيحية الارثوذكسية .

أما بعد أن سقطت القسطنطينية نتيجة للاثم الذى ارتكبته بعد موافقتها على الاتحاد الكنسى – كما اعتقد الارثوذكس الروس- فان كنيسة موسكو تحت قيادة الأمير فلاديمير Vladimir أصبحت فى نظر المسيحيين الارثوذكس هى الكنيسة الوحيدة ذات العقيدة الصحيحة على وجه الأرض . انظر:

Runciman, Op. cit , pp. 177-178 .

كما حافظت على أسلوب التكرار الذى استخدمه باربارو فى بعض صفحات الكتاب، وفى أسماء النبلاء البنادقة بالقسطنطينية ابان الحصار العثمانى ، تلك الأسماء التى فضلت ترجمتها حسب النطق الإيطالى الذى أورده المؤلف.

كما أننى اعتمدت على العديد من المعاجم والقواميس المتخصصة من أجل ترجمة المصطلحات التقنية ، كأسماء السفن، وأجزائها ، والموازين والمكاييل والمقاييس والعملات ، وغيرها، وذلك من أجل تدارك النقص الذى شاب الترجمة الإنجليزية، وهو ما سبق أن صرح به المترجم فى مقدمة الكتاب.

اقتضى الأمر منى حتى أقوم بالدراسة والتعليق المناسبين على هذا المصدر التاريخى الهام، أن أقوم بترجمة جميع روايات المؤرخين المعاصرين لنيقولو باربارو ، وشهود العيان على الفتح العثمانى للقسطنطينية من أجل مقارنتها بيوميات باربارو ، وأهمها الروايات التى قام بترجمتها أيضاً البروفسير جونز Jones فى كتابه: الحصار العثمانى للقسطنطينية ١٤٥٣م : سبع روايات معاصرة . والذى انتهيت من ترجمته للغة العربية . وآمل أن يرى النور خلال الشهور القليلة القادمة .

وغنىٌ عن القول أن الذى دفعنى لترجمة هذا الكتاب هو أهميته القصوى للباحثين فى تاريخ العلاقات الإسلامية المسيحية فى العصور الوسطى، حيث يتناول يوميات شاهد عيان على فتح العثمانيين للقسطنطينية، وسقوط أشهر وأهم المدن الأوربية طوال العصر الوسيط. ذلك الحدث الذى جاء ايذاناً بطى صفحة تاريخية ، وبداية سطور صفحة تاريخية جديدة فى تاريخ أوربا المسيحية ، وكذا فى تاريخ الإسلام فى أوربا . فضلاً عن أنها الترجمه العربية الأولى – فيما أعلم– لأحد مصادر الفتح العثمانى للقسطنطينية ١٤٥٣م. وهو ما يضفى عليها أهمية بالغة.

ولابد أن أذكر هنا أنه من ضمن الأسباب التى جعلتنى أقدم على ترجمة مصادر فتح القسطنطينية إلى اللغة العربية ، ذلك الولع الشخصى الذى أصابنى تجاه مدينة القسطنطينية – استانبول الحالية– التى عشت بها فترة من الزمن ابان مرحلة الاعداد للحصول على درجة الدكتوراة. تلك المدينة التى ما أن يهم المرء بالمشى فى شوارعها العتيقة، حتى تدهمه رائحة التاريخ العثمانى والبيزنطى .

وفى النهاية لايسعنى إلا تقديم وافر الشكر لكل من مد لى يد المساعدة، الاخوة الأفاضل : الدكتور صلاح ضبيع بجامعة جنوب الوادى، الذى منحنى نسخة من هذا الكتاب لترجمته ،

والدكتور ابراهيم الصنافيرى بجامعة الأزهر ، على ترجمته الدقيقة للعديد من صفحات المصادر العثمانية ، التى استعنت بها فى الدراسة والتعليق، وكذلك الأب الدكتور وديع أبوالليف بدير الآباء الفرنسيسكان على ترجمته لصفحتين من اللغة الايطالية القديمة فى متن هذا الكتاب .

... وبعد ، فربما أكون قد وفِّقت فى ترجمتى لهذا الكتاب حينًا ، وربما يكون قد جانبنى التوفيق فى أحايين أخرى ، غير أن هذا مقدار جهدى الذى أرجو أن يكون قد نجح فى اضافة كتاب ، آراه فى غاية الأهمية ، إلى المكتبة العربية الإسلامية .

والله الموفق والمستعان

دكتور

حاتم عبد الرحمن الطحاوى

الحسينية – خريف العام ٢٠٠٢م

نيقولــو باربــارو

يوميات حصار القسطنطينية ١٤٥٣م

منذ أن وجدت نفسى فى مدينة القسطنطينية ، سيئة الحظ ، قررت أن أقوم بكتابة التقرير التالى، حول الهجوم الذى قام به محمد بك Mahomet Bey [١]، ابن مراد التركى[٢]، والذى بمقتضاه تمت له السيادة والسيطرة عليها .

١- هو السلطان العثمانى محمد الثانى (١٤٥١-١٤٨١م) ، الذى لُقّب بالفاتح بعد نجاحه فى فتح القسطنطينية فى شهر مايو ١٤٥٣م. مسطراً الصفحة الأخيرة فى تاريخ الدولة البيزنطية التى امتدت لأكثر من احدى عشر قرناً من الزمان، عن محمد الفاتح وحياته انظر المصادر العثمانية التالية :

Asikpasaoglu, " Asikpasaoglu Tarihi", Hazirlayan, H. Nihal Atsiz, Ankara, 1985 , pp. 135-189 ; Tursun Bey , Tarih-i Ebül- Feth, Hazirlayan , Mertol Tulum, Istanbul, 1997,

وانظر كذلك المصادر البيزنطية التالية :

Kritovoulos , History of Mehmed The Conqueror, Trans. by , C.T. Riggs, Princeton , 1954 ; Theodore Spandounes, On the Origin of the Ottoman Emperors, Trans by , D.Nicol, Cambridge, 1997 , pp. 31-54 .

Doukas , " Historia Turco- Byzantina " Decline and Fall of Byzantium to Ottoman Turks, Trans by . Harry J, Magoulias , Detroit , 1975 , pp. 184-325 ; Sphrantzes , G. The Fall of the Byzantine Empire, Achronicle by George Sphrantzes 1401-1477 , Trans . by M. Philippides , Amherst , 1980, pp. 12-147 .

وأهم المراجع الأجنبية التى تناولت تاريخ محمد الفاتح وفتح القسطنطينية :

Runciman, S, The Fall of Constantinople , 1453 , Cambridge, 1965; Babinger, F. Mehmed The Canqueror and his Time Trans. by R. Manheim, ed. W.C. Hiskman , Princeton, 1978 .

انظر كذلك أعمال البروفسير التركى خليل إنالجيك H. Inalcik

- The Ottoman Empire. The Classical Age 1300-1600, London , 1973 .

- The Policy of Mehmed II Toward The Greek Population of Istanbul and The Byzantine Buildings in The City , in , D.O.P 23-24 (1969-70) , pp. 231-49 , Mehmed The Conqueror (1432-1481) and his Time" in, S P, 35 , 1960 , pp. 408-427 .

٢- هو السلطان العثمانى مراد الثانى (١٤٢١-١٤٥١م) ابن السلطان محمد جلبى وأمينه خاتون . عن حياته وأعماله انظر: Asikpasaoglu , Op. cit, pp. 93-135

Doukas , Op. cit, pp. 121-189 ; Sphrantzes, Op. cit, pp. 11-63 , Spandounes, T, Op. cit, pp. 25-31 .

وحتى يمكن فهم حقيقة الأحداث بشكل تام ، فسوف أتحدث أولاً عن كيفية بداية الحرب بين الأتراك والبيزنطيين . وبعدها سوف تتعرفون على جميع ما حدث من هجمات يومًا بعد يوم، وتعرفون ما حدث منذ البداية ، وحتى النهاية القاسية والوحشية، والغزو المفجع للمدينة .

أقام محمد بك التركى فى شهر مارس ١٤٥٢م قلعة ضخمة تبعد مسافة ستة أميال عن القسطنطينية باتجاه مدخل البحر الأسود، كانت تحتوى على أربعة عشر برجًا ، جرت تغطية أكبر خمسة أبراج منها بأسقف مسطّحة مكسوة بالرصاص ، وكانت جدرانها قوية ومنيعة للغاية (١).

وعندما عقد السلطان نيته على بنائها، حضر من مدينة غاليبولى Gallipoli(٢)

١- لعبت تلك القلعة التى سميت بالروملى حصار (قلعة الروم) دورًا هامًا للغاية فى حصار القسطنطينية، وفى سيطرة العثمانيين على مضيق البوسفور . لدرجة أن المصادر المعاصرة تسميها القلعة قاطعة الرقبة Cut of Throat . عن الأهمية الاستراتيجية للقلعة وكيفية بنائها، انظر المصادر التالية :

- Tursun Bey , Op. cit, pp. 40-45 ; Laonicus Chalco condylas, Op. cit, p. 42

- Asik Pasa Oglu Tarihi, Op cit, p. 137 Kritovoulos, p. 16 , 20 ; Doukas , Op. cit, p. 196, Idem, pp. 66-67 ; Riccherio , Op. cit, p. 118.

Sphrantzes , Op. cit , p. 69 ; Kritovoulos , Op. cit , pp. 15-16 ; Babinger, Op. cit, p. 82 ; Runciman , Op , cit , p. 56 , Schlumbergor , G, Le Siege la Praise et le Sac de Constantinople par les Turcs en 1453 , Paris , 1914 , pp. 24-25 ; Kielty , B. la chute de Constantinople, Paris , 1961 , pp. 5 , 77 , Nicol , D, The Last Centuries of Byzantium, 1261-1453 , London , 1972, pp. 396-97 .

٢- مدينة بيزنطية على بحر مرمرة. نجح العثمانيون فى الاستيلاء عليها عام ١٣٥٤م ، قبل أن تعود مرة أخرى للسياده البيزنطية ، ويقوم الإمبراطور أندرونيكوس الرابع Andronikos IV بإعادتها إلى العثمانيين ١٣٦٧م انظر O.D.B, vol , 2 , pp. 1094-5 وانظر كذلك عن سقوطها فى يد العثمانيين :

Charanis , p. " On the Date of the occupation of Gallipoli by The Turks", in B.S, XVI , 1955 , pp. 113-117 .

ويرفقته ستة شوانى Galley[١] مجهزة ، وثمانية عشر Fuste ، وستة عشر Parandaria[٢] .

وعندما وصل إلى الساحل القريب من القسطنطينية ، أمر بتشييدها بالقرب من القلعة القديمة، على مسافة ستة أميال من الساحل البيزنطى. وخلال شهر أغسطس ١٤٥٢م ، كان قد تم الانتهاء من بناء القلعة، من أجل هدف واضح ، هو الاستيلاء على القسطنطينية .

وكان الامبراطور (البيزنطى) الذى خشى بأس عدوّه التركى، يقوم بارسال السفارات والهدايا إليه يوميًا ، بينما كان يتم بناء القلعة فى نفس الوقت ، وفعل الامبراطور كل هذا نتيجة لخوفه وخشيته . وعندما تم الانتهاء من بناء القلعة فى أغسطس ١٤٥٢م ، قام السلطان باستبقاء سفيرين للامبراطور ، وأمر بضرب عنقيهما ، ونشبت الحرب بين الأتراك والبيزنطيين منذ تلك الواقعة .

بدأ الأتراك فى محاصرة القسطنطينية بخمسين ألف رجل ، وقاموا بنصب معسكرهم فى مواجهة المدينة لمدة ثلاثة أيام، وبعدها عاد الأسطول التركى إلى غاليبولى، حيث وصلها فى السادس من شهر سبتمبر ١٤٥٢م، وكذلك فعلت القوات البريه المحاصره للمدينة .

تميزت تلك القلعة بمناعتها من ناحية البحر، وكانت محصنة للغاية بفضل العدد الكبير من المدافع الموجوده على الساحل وفوق الأسوار، كما كانت القلعة منيعة للغاية من ناحية البر (اليابسه) ، لكن ليس بنفس درجة القوة التى تمتعت بها باتجاه البحر.

١- الشينية Galley هى نوع من السفن يتميز بطوله وانخفاض سطحه ، وضيق مساحته ، وتعتمد على المجاديف بشكل كبير . وتقام عليها الأبراج والقلاع لعمليات القتال البحرى. انظر:

Lane , F, " Venetian Shipping during The Cemmercial Revolution, in , A. H. R, vol , XXXVIII, 1933 , p. 219 .

انظر كذلك درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم، الاسكندرية ، ١٩٧٤ ، ص٨٣-٨٤ .
أحمد رمضان أحمد، تاريخ فن القتال البحرى فى البحر المتوسط فى العصر الوسيط، القاهرة، د.ت، ص٤٥ .

٢- Fuste هى سفن طويلة ، أخف وأسرع من السفن ثنائية المجاديف ، وبها مجدفين على كل جانب بها، عند مقدمة الصارى وعند مؤخرة السفينة . أما Parandaria فهى سفينة يمكنها نقل شحنات ثقيلة الوزن تستخدم فى عمليات النقل . انظر:

Runciman , Op. cit, p. 75 .

وقامت القذيفة الأولى التى أطلقها مدفع القلعة باغراق سفينة انطونيو ريتزو[١] Antonio Rizzo ، الذى كان قادمًا من البحر الأسود[٢]، بينما كانت تحمل سفينته المؤن الغذائية لمساعدة أهالى القسطنطينية .

حدث هذا فى السادس والعشرين من نوفمبر ١٤٥٢م ، وقام ربان السفينة بالقاء نفسه فى الماء ، وتم القاء القبض عليه ، وأرسل إلى أدرنه Adrianople [٣]، حيث القى به فى السجن . ثم أمر السلطان بخوزقته على وتد (خازوق) طوال أربعة عشر يومًا ، بينما قام بضم ابن دمينجو دى مايسترى Domengo di Maistri كاتب الربان، إلى جناح حريمه Seraglia بالقصر السلطانى، وبعد ذلك أمر باطلاق سراح بعض البحارة حتى يتمكنوا من الذهاب إلى القسطنطينية[٤].

وقام بايل Bailo القسطنطينية– قبيل وفاة انطونيو ريتزو – بارسال فابروزى كورنر Fabruzi Corner كرسول إلى الأتراك ، ليجعل السلطان يفكر مليًا فى قراره ، لكن الرسول لم يستطع أن يقوم بأى شئ ، لأن الخان Khan[٥] كان قد قام بقتل ريتزو عبر

١– ملاحظة هامشية : «وضع السلطان محمد تنظيمًا يقضى بأنه على السفن القادمة من البحر الأسود إلى المضايق أن تخفض أشرعتها ، وأن ترسل قاربًا إلى الموظف التركى المسئول من أجل الحصول على تصريح بالمرور، وإلا فإن مصيرها الغرق وأن تخضع لضريبة المرور». (الترجمة الإنجليزية) .

وعن اغراق سفينة انطونيو ريتزو انظر المصادر التالية :

Doukas, Op. cit, p. 200 ; Phrantzes, Op. cit, p. 62 .

٢– ملاحظة هامشية لأنه لم يقم بطى أشرعته . (الترجمة الإنجليزية)

٣– أدرنه Adrianaple، مدينة بيزنطية فى اقليم تراقيا Trace ، استولى عليها السلطان العثمانى مراد الأول ١٣٧٧م، وظلت عاصمة للعثمانيين حتى سقوط القسطنطينية ، انظر: O.D B, vol . I, p. 23 .

٤– ملاحظة هامشية : لأنه قام بقتل نصف عددهم (الترجمة الإنجليزية)

٥– الخان : كلمة فارسية معناها السلطان . تعد من بقايا التراث الثقافى للمغول، حيث استخدمها مغول أسرة جنكيز خان ، كما كانت اللقب الرسمى لحكام كريميا Crimea من المغول، واستخدمها السلاطين العثمانيون فيما بعد كأحد القابهم . انظر: ادى شير : معجم الألفاظ الفارسية المعربة ، بيروت ، ١٩٩٠م، ص٥٨ . انظر أيضًا :

Bayerle , G, Pashas, Begs, And Effendis: A Historical Dictionary of Titles and Terms in the Ottoman Empire, Istanbul, 1997 , p. 75 .

الخازوق [١]. بعد ذلك عاد فابروزى كورنر إلى القسطنطينية برفقة سفينة كابرييل تريفيكسان Cabriel Trivixan. وتعد مسألة مقتل انطونيو ريتزو بداية نشوب الحرب بالنسبة لنا أهل البندقية، كما كانت قد نشبت سابقًا ضد البيزنطيين .

بدأ الأتراك فى الاستعداد منذ شهر يناير (١٤٥٢م) من أجل الوصول إلى هنا ومهاجمة القسطنطينية ، وقاموا بتجهيز جيش برى ضخم، وكذا قوة بحرية كبيرة كل ذلك من أجل مهاجمة هذه المدينة الحزينة والبائسة . وبدأ الأتراك منذ شهر فبراير فى ارسال مدفعهم باتجاه القسطنطينية برفقة عشرة آلاف رجل . وفى نفس الشهر - فبراير- قام بعض البيزنطيين بهجوم عسكرى برفقة ثلاثة سفن Fuste على الأتراك ، وقاموا بتكبيدهم بعض الأضرار والخسائر ، من ذلك قيامهم بأسر العديد منهم ، وأخذهم من أجل القيام ببيعهم فى القسطنطينية . ولهذا السبب تنامى الشعور بالعداء لدى الأتراك ضد البيزنطيين ، وأقسموا على الانتقام منهم.

وفى ذلك الوقت، وصل إلى القسطنطينية كابرييل تريفيكسان، نائب الربان، برفقة سفينتين خفيفتين ، يلازمه على متن أحدهما الفارس زكريا جريونى Zacaria Gioni . وكان حضرة حاكم البندقية Signoria قد أرسل تلك السفينتين لمرافقة السفن التجارية الثلاثة القادمة من تانا Tana[٢]، من أجل مد يد المساعدة لمدينة القسطنطينية.

وبعد مرورة عدة أيام وصلت سفينة ملأى بالجنوية ومحملة بست وثلاثين ألف قنطار Cantara[٣]

١- ملاحظة هامشية: أو أنه نوى أن يقوم بذلك. (الترجمة الإنجليزية) .

٢- هو نهر يسمى أيضًا Tanais أو Don يصب فى بحر أزوف Azof كانت به مستعمرات تجارية بندقية فى القرنين ١٤، ١٥ م. انظر :

-O. D. B, vol , 3 , p. 2009, W N. G. D, p. 338 .

انظر كذلك : Martin, ME , " Venetian Tana in the Later Fourteenth and Early Fifteenth Centuries ", in Byz. F, 11 , 1987 , pp. 375-79 .

٣- القنطار Cantaro وحدة قياس استخدمها التجار الايطاليون فى البحر المتوسط ، فى العصور الوسطى. وهو يساوى ١٠٠ رطل ، ويتراوح ما بين ١٠٠-٧٥٠ lbs . انظر : De Roover, E.F, Glossary of Medieval Terms of Businiss, Italian Series , 1200-1600 , Cambridge, Mass, 1934, p. 59 .

وعلى متنها كاردينال روسيا [١]، الذى قام البابا بارساله من أجل العمل على تحقيق عملية الاتحاد الكنسى ، والذى حضر برفقته مائتى رجل، من بينهم رماة السهام، ورجال يجيدون التصويب بالبنادق من أجل مساعدة القسطنطينية.

وخلال نفس الشهر – فبراير– وصلت من كانديا Candia [٢] ثمانى سفن محملة بالنبيذ ، من أجل توفير وسائل العيش لسكان المدينة .

١– هو الكاردينال ايزيدور Isidore ، ولد فى مونمباسيا Monemvasia ١٣٨٥، ومات فى روما ١٤٦٣م، عمل كسفير للامبراطور يوحنا الثامن باليولوغس John VIII Palaiologos إلى مؤتمر بازل Basil ١٤٣٤م، وتذكر بعض المصادر أنه وصل إلى القسطنطينية فى ١٢ ديسمبر ١٤٥٢م لاقرار الاتحاد الكنسى بين الكنيسة الارثوذكسية بالقسطنطينية وكنيسة روما الكاثوليكية ، وليس فى شهر فبراير من نفس العام كما يذكر نيقولو باربارو، وسقط الكاريدينال أسيراً فى يد العثمانيين لدى اقتحامهم القسطنطينية ، غير أنه استطاع الهرب والعودة إلى الغرب ، عن ذلك انظر:

O. D . B, vol, 2 , pp. 1015-1016 .

Doukas, Op. cit, pp. 180 , 193 , 203- الذى يذكر أنه وصل القسطنطينية فى شهر نوفمبر ١٤٥٢م 205 .

Phrantzes, Op. cit , pp. 72, 110, 142 not 24. حيث يذكر أن ايزيدور وصل القسطنطينية فى أكتوبر

Chalcocondylas , Op. cit , p. 49 ; Leonard of Chios , Op. cit , p. 27 .

Babinger, Op . cot, pp. 79 , 93 , Runciman , Op. cit, pp. 83 , 93 , 141, 150 .

Schbumberger , Op. cit , pp. 7,8 , 141 , Nicol , D. The Last Centuries of Byzantium , pp. 392-397 .

Dereksen , D, The Crescent and the Cross, New York , 1964 , pp. 160, 161 , 173 .

وعن دور الكاردينال ايزيدور فى محاولات الاتحاد الكنسى انظر:

- Ziegler , A. W, Isidore de kiev, Apotre de L'Union florentine " in Iré 13, 1936 , pp. 393-410 ; Krajcar , J , " Metroplitan Isidor's Journéy to the Council of Florence, Some remarks" in , O.C.P , 38 , 1972 , pp. 367-87 .

Gill, J, Personalities of the Council of Florence , New York, 1964, pp. 65-78 .

٢– كانديا Candia هى أحد أسماء جزيرة كريت Crete بالبحر المتوسط ، قام بونيفاس الثالث Boniface III كونت مونتفرات Montferrat أحد قادة الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤ م ببيعها للبندقية . مما=

وفى العاشر من شهر نوفمبر(١)، وصلت سفينتان كبيرتان من كافا Caffa (٢) . وعندما كانتا ترفعان أشرعتهما فى مواجهة القلعة التركية ، بدأ الأتراك فى الصياح «اخفض أشرعتك أيها الربان ، من أجل سلامتك ! »، لكن السفن ظلت ترفع أشرعتها ، واستمر الأتراك فى الصياح «اخفض أشرعتك أيها الربان!» وعند ذلك قام باخفاض أشرعته إلى منتصف المسافة، فى محاولة لانقاذ نفسه، لكن الأتراك استمروا فى الصياح «اخفض الأشرعة إلى أسفل!» . وعندما رأى الأتراك أن الربان لم يقم بخفضها تمامًا ، بدأوا فى اطلاق قذائف مدافعهم ، وكذلك العديد من البنادق، وأعداد كبرى من السهام ، وهكذا لهذا فقد نجحوا فى قتل العديد منهم.

وعندما شاهد الربان مقتل العديد من رجاله ، قرر تنكيس أشرعته تمامًا، وانقاذ حياته. وأوقف الأتراك ، نتيجة لذلك ، اطلاق قذائفهم.

وحملت التيارات المائية السفن باتجاه القسطنطينية، وعندما ابتعدت عن مرمى القلعة ، ولم تعد قذائف الأتراك تستطيع الوصول إليها، فقام الربان باعادة فرد أشرعته ، وسار فى أمان وهكذا استطاع الربان جيروليمو موريكسينى Jeruolemo Morexini ، الابحار بسلام إلى القسطنطينية، وشعر كل شخص فى المدينة بالمواساة لدى وصول السفينتين ، وكان ذلك فى العاشر من شهر نوفمبر .

فى الثانى من ديسمبر ، وصلت سفينة قادمة من طرابيزون Trabizond (٣) إلى مدخل البحر الأسود، وأبحرت قليلاً بداخله ، وبـ ـ بالقاء مراسيها بالقرب من القلعة الـرئـيـة ، وبعد

= ساعد على زيادة الازدهار التجارى والزراعى بالجزيرة ، كما أصبحت كريت تحت سيطرة البنادقة مركزًا هامًا لتجارة البندقية مع موانئ الصليبيين بالشام ، ودولة المماليك فى مصر والشام ، ومع امارتى ايدن Ayden ومنتشه Menteshe . انظر:

O. D. B, vol I, pp. 545-47 ; W. N.G. D, p. 214 ; 299 .

Zachariadou , E.A. Trade and Crusade : Venetians Crete and the Emirates of Menteshe and Ayden (1300-1415) , Venice , 1983 , p. XXXIII - IV .

١- أغفل باربارو هنا ذكر الأحداث من فبراير إلى نوفمبر ١٤٥٢م. انظر ما سبق ، ص٥٠-٥١ .

٢- تسمى أيضًا Theodosia ، ميناء يقع فى أوكرانيا ، كان بها مستعمرة جنوية تجارية فى القرن الثالث عشر، نجح العثمانيون فى الاستيلاء عليها ١٤٧٥م . انظر: W. N . G . D, p. 394 .

٣- ميناء على البحر الأسود. كان فى ذلك الوقت مقرًا لامبراطورية طرابيزون البيزنطية التى تكونت بعد =

قيامها بالرسو، وصلت إليها ١٢ Fuste تركية من القلعة التى جرى بنائها حديثًا، واقتربت من السفينة كما لو كانت سفنًا صديقه . كما استقبلهم أولئك الذين كانوا على متن السفينة كأصدقاء ، وقاموا بمنحهم هدية إلى ربان الـ Fuste . وعندما أمسك الربان بالهدية بين يديه، قام فجأة بالقائها فى البحر بغضب شديد ، لأنه كان يعتقد أنه يستحق هدية أفضل منها، واستدار ليتوجه بسفنه إلى القلعة المشيده حديثًا ، لكى يجعل الموظف المسئول يصدر أمره بالقبض على هذه السفينة .

وبعد أن شاهد أولئك الذين كانوا على متن السفينة غضب الأتراك ، تصرفوا كالرجال المتبصرين بالعواقب ، فتسللوا خلف سفن الـ Fuste التركية ببطء ، وعندما وصلت الـ Fuste إلى القلعة، وغادرها الربان متوجهًا إلى الموظف المسئول لكى يطلب منه استبقاء السفينة، بدأ الرجال فى التجديف بسرعة وبابتهاج باتجاه القسطنطينية وعندما بدأ رجالنا الذين كانوا على مقربة من القلعة فى توجيه التحية لهم كأصدقاء، وقاموا بتشجيعهم فى سرور، كما قاموا بالنفخ فى الأبواق محدثين جلبة كبيرة. وعندما قاموا بتحيتهم للمرة الثالثة، كانوا قد ابتعدوا عن القلعة، ودفعت التيارات البحرية بهم نحو القسطنطينية .

قام المجدفون بعملهم بهمة وسرور، وكانوا يشعرون بالسعادة لأنهم خلفوا وراءهم المنطقة التى كانت توجد بها القلعة، التى كانت تمثل لهم خطرًا داهمًا ، ينبغى الهروب منه، وعند تلك النقطة ، كانت السفينة بكاملها جاهزة ومستعدة كما لو كانت سوف تشارك الآن فى القتال.

حدث ذلك فى الرابع من ديسمبر ، عندما وصلت إلى القسطنطينية، وكان ربانها يدعى جاكومو كوكو Jacomo Coco الكبير(١).

= الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤ م، حتى نجح محمد الفاتح فى اسقاطها ١٤٧٨م. انظر : O . D. B, vol , 3 , pp. 2112-13 .

وعن امبراطورية طرابيزون ودورها السياسى والتجارى انظر: Miller, W, Trebizond , The Last Greek Empire, London , 1926 .

: فايز اسكندر دراسة لاتفاقية تجارية بين امبراطورية طرابيزون والبندقية سنة ١٣٦٤م ، الاسكندرية ، ١٩٨٣ .

١- عن الدور الذى سيقوم به فيما بعد جاكومو كوكو ، انظر الصفحات القادمة ص١٣٣-١٣٩ .

وفى يوم الثالث عشر من شهر ديسمبر ١٤٥٢م ، تم انعقاد اجتماع الاتحاد الكنسى فى كنيسة القديسة صوفيا St. Sophia، مع احتفال مهيب من قبل رجال الدين ، وكان هناك أيضاً حضرة الموقر كاردينال روسيا ، الذى تم إرساله من قبل البابا ، كذلك كان هناك الإمبراطور الأجلّ. برفقة جميع نبلائه ، وكافة سكان القسطنطينية . وشهد هذا اليوم الكثير من عمليات البكاء والنواح فى المدينة. وكان فى نيتنا نحن الفرنجة Franks أن يتم هذا الاجتماع حتى لايحدث أى انشقاق آخر فى الكنيسة، وحتى نستطيع أن نقوم بتلاوة القداس Mass فى كنائسهم الأرثوذكسية، وأن يقوم البيزنطيون بتلاوة القداس فى كنائسنا اللاتينية الكاثوليكية[١].

وفى الثالث عشر من ديسمبر أيضاً ، جرت محاولة لاستبقاء السفن التجارية الكبيرة من أجل سلامة القسطنطينية ، وتمت هذه المحاولة فى كنيسة القديسة صوفيا ، التى تواجد بداخلها الإمبراطور، وكاردينال روسيا ، وأسقف ميتيلين Mytilene [٢]، وكافة النبلاء التابعين

١- يذكر دوكاس أن اجتماع مجلس الاتحاد الكنسى تم يوم الثانى عشر من ديسمبر ١٤٥٢م ، بعد الاجتماع إلى خطبة الكاردينال ايزودور Isidor مبعوث البابا نيقولا الخامس Nicholas، حيث وافق معظم الموجودين على الاتحاد الكنسى، على أن تتم مناقشة البنود التفصيلية للاتحاد، بواسطة لجنة مكونة من أصحاب المقامات الرفيعة بالكنيسة ، وذلك بعد رفع الحصار العثمانى عن القسطنطينية . غير أن دوكاس يذكر أيضاً أن العديد من البيزنطيين كانوا يرفضون عملية الاتحاد الكنسى، وأنهم كانوا يحاولون خداع الكاردينال ايزودور انظر: "Decline and Fall of Byzantium" pp. 75-77. وانظر أيضاً:

Kielty , Op. cit, p. 80 ; Runciman, Op. cit, p. 71 ويذكر أن الاجتماع عقد فى ١٢ ديسمبر

Schlumberger , Op. cit, pp. 8-10 الذى يذكر أن البيزنطيين الذين حضروا الاجتماع

قبلوا فكرة الاتحاد الكنسى بشفاههم فقط، خوفاً من الغزو العثمانى للمدينة، وارضاءً للبابا ومن أجل الحصول على نجدة من الغرب الأوربى، لكن البيزنطيين فى حقيقة الأمر كانوا يمقتون اللاتين.

٢- هو ليونارد الخيوسى Leonard of Chios ، أستاذ اللاهوت ، وكبير أساقفة مدينة ميتيلين ، كبرى مدن جزيرة ليسبوس Lesbos شمال شرقى بحر ايجه ، التحق ببعثة الكاردينال ايزودور فى القسطنطينية لاقرار عملية الاتحاد الكنسى ، فوصل إلى المدينة فى أكتوبر ١٤٥٢م، ونجح فى الهرب عند اقتحام العثمانيين للقسطنطينية ، حيث توجه إلى خيوس ، وهناك كتب تقريراً بما حدث للبابا نيقولا الخامس، عن ذلك التقرير انظر Leonard of Chios, Op. cit, pp. 11-42

وعن ليونارد الخيوسى ودوره الدينى والسياسى انظر: Belgrano, L.T, Documenti Riguardanti la Colonia Genovesa di Pera (Genoa, 1888) pp. 233-57 .

للامبراطور ، وجميع التجار الموجودين بالقسطنطينية ، والجزء الأعظم سكان المدينة ، وصاح الجميع فى وقت واحد : «إذا ما قامت سفن البنادقة تلك بالرحيل ، مع السفن الموجودة فى الميناء، فسوف نسقط فى أيدى الأتراك مباشرة».

وبينما استمر هذا الجدال ، توجه الامبراطور لتناول العشاء مع نبلائه ، وكذلك فعل الجميع. وخلال ذلك اليوم ، لم يحدث شئ آخر سوى المزيد من الجدال والمناقشات .

فى يوم الرابع عشر من شهر ديسمبر ، حضر لتناول الطعام على متن سفينة الربان البندقى، حضرة الموقر كاردينال روسيا ، وأسقف ميتيلين ، والبايل Bailo[1] البندقى ، بالإضافة إلى العديد من نبلاء الامبراطور ، وجميع تجارنا البنادقة ، وكذلك كابرييل تريفيكسان نائب الربان على السفينتين الخفيفتين ، كما تواجد أيضًا ربابنة السفن التجارية الثلاث ، وأشخاص عديدين آخرين .

١- البايل · Bailo هو لقب القنصل البندقى فى المستعمرات البندقية فى موانئ البحر المتوسط فى العصور الوسطى، وخاصة فى موانئ الشام تحت الاحتلال الصليبى ١٠٩٨-١٢٩١م . وفى مدينة الق طنطينية ، بعد المنح والامتيازات التى قدمها الامبراطور الكسيوس كومنينوس للبندقية ١٠٨٢م . وبشكل عام كان القنصل البندقى Bailliff هو المسئول الأول عن الجالية البندقية بالقسطنطينية طوال عهد أسرة آل باليولوغس . وكان يجرى انتخابه بواسطة المجلس الكبير فى البندقية . لفترة لاتزيد على سنتين . وكان راتبه يبلغ ١٠٠ ليره Librae شهريًا ، وكان له مساعديه لانجاز وظيفته المتمثلة فى ادارة الانشطة التجارية للتجار البنادقة فى القسطنطينية، وفى الحكم فى القضايا التى تنشب بينهم، أو مع الاداره البيزنطية. وكذلك الاشراف على الكنائس الأربع التابعة للبندقية فى القسطنطينية .

عن البايل البندقى ودوره التجارى والقانونى فى الشام والقسطنطينية انظر ·

حاتم الطحاوى ، الاقتصاد الصليبى فى بلاد الشام ، القاهرة ، ١٩٩٩، ص١٠٦-١١٠ : بيزنطة والمدن الايطالية ١٠٨١-١٢٠٤م، القاهرة ، ١٩٩٨م، ص٩٩-١٢٠ . وانظر أيضًا :

O. D. B, vol . I, p. 245 , Maltezou , ch , Ho Thesmos tou en konstantinoupolei Benetou bailou , Athens , 1970 .

وتجدر الملاحظة أن لقب البايل Baillis قد استخدم أيضًا خارج سياق التاريخ التجارى للبندقية فى العصور الوسطى، حيث كان موجودًا فى فرنسا على عهد الملك لويس التاسع ١٢٢٦-١٢٧٠م. للتعبير عن المندوبين الملكيين الذين يقوم الملك بتكليفهم بتنفيذ ما يريد من أعمال، انظر: نورمان كانتور ، التاريخ الوسيط، ترجمة قاسم عبده قاسم، ج٢، ط٢، القاهرة، ١٩٨٦م، ص٥٩٩ .

وعندما التأم شمل الجميع على متن سفينة الربان، تحدث الكاردينال أولاً «إذا ما بقيت تلك السفن الخمسة فى مدينة القسطنطينية ، فاننا لن نتعرض لخطر مجئ السفن التركية لمهاجمة ميناءنا هذا الشتاء ، أو قيامها بأية هجمات علينا بأية طريقة أخرى».

وقيل نفس هذا الكلام من قبل أسقف ميتيلين ؛ ونبلاء الامبراطور . وبعد حديث مطوّل يتعلق بالابقاء على السفن لغرض الدفاع عن القسطنطينية ، تحدث البايل قائلاً «أيها الربان ، أستطيع أن أذكر لك أنه لأجل محبة الرب، وشرف الدين المسيحى ، وشرف حضرة حاكم البندقية Signoria [١]، ينبغى عليك أن تظل هنا بالقسطنطينية تحت امرة الامبراطور ، كما أن بقاءك هنا سوف يُشعر حاكم البندقية بالسعادة والغبطة».

وبعد أن تحدث الجميع ، أجاب الربان «أيها الأب المقدس ، وأنت ، سيدى الطبيب، (أسقف ميتيلين)، وأنت سيدى البايل ، وجميع من يستمعون الآن إلى حديثى، آلا تعرفون أن سيدى حاكم البندقية قد أمرنى أنه بمجرد وصول السفينة من طرابيزون إلى هنا ، فلايجب علىّ أن أمكث أكثر من عشرة أيام ؟ كيف يمكنكم أن تتوقعوا منى أن أظل هنا؟ وكما ترون الآن ، انكم لاتريدون منحى تصريحًا بحمل السلع والبضائع إلى السفن ، سوف أبحر اليوم فى طريقى مستخدمًا الصابورة ballast[٢]، ومن أراد منكم أن يتوجّه معى نحو البندقية فليأت معى» .

عندما استمع البايل والتجار البنادقة إلى رد الربان، الذى كان مستعداً للابحار فى الحال، توجهوا نحو الساحل ، ونادوا بعقد مجمع من أجل استبقاء السفن للدفاع عن القسطنطينية ، أولاً من أجل محبة الرب، ثم من أجل شرف الايمان والدين المسيحى.

ونتيجة لهذا المجمع ، فقد تم الابقاء على تلك السفن، كما سوف ترون من عملية

١- هو الدوج فرانشيسكو فوسكارى Francesco Foscari (١٤٢٣-١٤٥٧م). انظر قائمة أدواج البندقية:

Nicol , D, Byzantium and Venice . Astudy in diplomatic and Cultural relations , Cambridge, 1988, p. 425 .

٢- الصابوره : Ballast ، هى عباره عن ثقل حديدى أو قضيب من الحديد يوضع على أرضية السفن الصغيرة من أجل تثبيتها فوق الماء ، وتوفير الاتزان عند مقدمة السفينة ومؤخرتها ، بينما تستخدم السفن الأكبر حجمًا براميل أو صهاريج مليئة بالمياه لتحقيق الثبات والاتزان على صفحة الماء. عن ذلك انظر:

Kemp p, (ed.) The Oxford Companion to Ships & The Sea , Oxford, 1976 , pp. 55-56 .

وانظر أيضًا : AComprehensive Maritime Dictionary , Alexendria , 1989 , p. 49 .

التصويت التى جرت[١]. لقد اجتمع المجلس فى كنيسة القديس مرقص St. Marco فى القسطنطينية[٢] بدعوة من قبل النبيل ، والشخصية البارزة ، جيروليمو مينوتو Jeruolemo Minoto ، الذى قام دوج البندقية الجليل بتعيينه فى وظيفة بايل على البنادقة فى القسطنطينية[٣].

والأسماء التالية هى أسماء النبلاء الذين حضروا اجتماع المجلس:

السيد فيليبو كونتاريني كامير لينجو .

السيد نيقولو جستنيان ابن السيد برناردو.

السيد فابروزى كورنر ابن السيد جوان.

١- ملاحظة هامشية : كان ذلك يوم الخميس ، الرابع عشر من ديسمبر ، ١٤٥٢م. (الترجمة الانجليزية).

٢- هو القديس مرقص ، مؤلف الانجيل الذى ينتسب إلى اسمه . كان ابنًا لسيده اسمها مارى (مريم) عاشت فى القدس . ويقال أنه كان يعمل مفسرًا لما يقوله القديس بطرس St. Peter ، توجه إلى مصر وبشّر بالمسيحية بها، وكان أول أسقف لكنيسة الاسكندرية . مات فى عهد الامبراطور تراجان Trajan (٩٨-١١٧م) قام تجار بنادقة بسرقة رفاته عام ٨٢٩م، وتوجهوا إلى وطنهم الأم، حيث أسسوا بها كنيسة القديس مارك San Marco . ثم قام الامبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosias I (٣٧٩-٣٩٥م) ببناء كنيسة القديس مارك بالقسطنطينية ثم أعاد الامبراطور رومانوس الأول Romanos I (٩١٩-٩٤٤م) بناءها من جديد . انظر: O.D.B, vol . 2 pp . 1299-1300 ; Attwater D, The Penguin Dictionary of Saints, New York 1983 , pp. 225-26 .

وانظر أيضًا : سمير فوزى ، القديس مرقص وتأسيس كنيسة الاسكندرية ، ترجمة نسيم مجلى، القاهرة ، ١٩٩٩م.

٣- كان البايل (القنصل) البندقى فى القسطنطينية آنذاك يدعى جيروليمو مينوتو ، ولعب دورًا كبيرًا فى الدفاع عن المصالح التجارية للبندقية ، كما لعب دورًا هامًا فى قيادة البنادقة ، والدفاع عن القسطنطينية ازاء المحاولات المتكررة التى قام بها الجيش العثمانى من أجل اقتحامها ، وهو الأمر الذى لم يغفره له السلطان محمد الفاتح ، الذى أمر بضرب عنق البايل البندقى جيروليمو مينوتو فور نجاحه فى فتح القسطنطينية.

عن الدور الذى لعبه بايل البندقية ابان الحصار العثمانى للقسطنطينية انظر الصفحات التالية ، ٩٣، ٩٤، ٩٧، ١٠١، ١٠٢، ١١٤ ، ١٤٣ ، هامش (١)، ١٤٤ .

وانظر كذلك المصادر والمراجع الآتية :

Chalcocondylas , Op. cit , p. 52

Dolfin , Op. cit , p. 129 .

هايد المرجع السابق ، ج٣ ، ص١٦٣ .

السيد كاتارين كونتاريني ابن السيد جوان .

السيد نيقولو موزينجو ابن السيد ليوناردو (الأول)

السيد ميخائيل بولدو ابن السيد بينيدتو

السيد باتيستاجريتى ابن السيد هوموبون .

السيد دولفين دولفين ابن السيد دومينيجو .

السيد توماو موزينيجو ابن السيد مارين .

السيد الفيكس بيمبو ابن السيد بينيتن .

السيد جوان فانيير ربان السفينة القادمة من كانديا (كريت) .

السيد نيقولو بالبى ابن السيد مارين .

السيد بييرو نانى ابن السيد جوان .

السيد فرانشيسكو ميشيل ابن السيد ....

السيد زكريا باربارو ابن السيد ماتيو .

السيد انطونيو بيمبو ابن السيد بينيتن .

السيد جوان لوريدان ابن السيد بولو .

السيد بييرو كونتاريني ابن السيد فرانشيسكو .

السيد فرانشيسكو فانيير ابن السيد برناردو .

السيد انطونيو بيزامانو ابن السيد نيقولو[١].

وجاء اقتراح البايل بوصفه رئيسًا للمجلس كما يلى:

عند مناقشة الاقتراح السابق الذى جرى تقديمه بواسطة رئيس المجلس، بايل البندقية، وبعد مناقشات مستفيضة بواسطة النبلاء ، وبعد وقت طويل، قام البايل نفسه بتقديم اقتراحه على النحو التالى:

«نظرًا لما تحتاجه هذه المدينة فى الحرب التى يخوضها البيزنطيون ضد الأتراك، فإنهم قد طلبوا، ورغبوا بصورة جدّيه فى استبقاء تلك السفن التجارية الكبيرة، وكذلك السفينتين

١- ملاحظة هامشية : هكذا يصبح المجموع ٢١ رجلاً . (الترجمة الإنجليزية) .

الخفيفتين من أجل الدفاع عن تلك المدينة، ولهذا فإنهم لن يقوموا بالسماح لتلك السفن، ولا لبحارتها وما على متنها من سلع وبضائع بالرحيل، وأنهم يعتبرون هذا الأمر ذا أهمية قصوى.

وبعد تصويت تم بالاجماع عبر سلطة هذا المجمع، تم انتخاب عضوين بالمجلس للاستعداد لذلك، وتم هذا فى حضور السيد البايل . والذين تم انتخابهما عبر هذا التصويت هما:

السيد نيقولو جستنيانى

السيد فابروزى كورنـــر

كانت القسطنطينية تشعر بحاجة ماسة لأى نوع أنواع المساعدة ، فقد كان من المتوقع أن تتم مهاجمتها براً وبحراً بواسطة السلطان وجيوشه الأكثر عزمًا وقوة. كذلك فإن طلب الامبراطور الأجلّ، وحضرة الموقر المونسنيير Monsigner[1] الكاردينال ، والنجدة الكبرى التى سوف يتم اتخاذها لأجل هذه المدينة، وكذلك من أجل شرف الرب، وشرف سيد البندقية الشهير، ولأجل الايمان المسيحى الكامل، فإن القرار الذى تم اتخاذه بالاجماع ، والخاص بفخامة البايل، هو انتخاب نيقولو جستنيانى وفابروزى كورنر من أجل الدفاع عن هذه المدينة أما بالنسبة للتجار والسلع التى وجدت فى القسطنطينية ، فحيث أنه لم ترد تعليمات مضادة من سيدنا حاكم البندقية ، فيجب أن يكون مفهومًا أنه إذا ما نشبت الحرب ، واتخذت طريقًا مختلفًا ، ولم يقم الأتراك بمهاجمة المدينة ، سوف يكون بامكان هذا المجمع أن يقوم باطلاق سراح السفن الثلاث الكبيرة، وكذا السفينتين الخفيفتين دون الرجوع إلى قرار المجمع الأول. وبالإضافة إلى ذلك فيجب على الامبراطور أن يقوم بدفع ٤٠٠ دوكات Ducats [2] شهريًا ،

١- لقب سياده للمطارنة والبطاركة، كان يوجه قديمًا للأمراء أيضًا، والمقصود بالمونسنيير هنا هو الكاردينال ايزودور مبعوث البابا نيقولا الخامس .

٢- عرفت البندقيه نوعين من العملات ، عملة فضيه عرفت بالجرسّو Grosso ، تم ضربها فى عهد الدوج هنرى داندولو Enricus Dandolus (١١٩٢-١٢٠٥م) والنوع الآخر الأكثر شهرة وأهمية هو الدوكات Ducat، الذى أمر السناتوالبندقى بضربه فى أكتوبر ١٢٨٤م، على عهد الدوج جيوفانى داندولو Giovanni Dandolo (١٢٨٠- ١٢٩٠م) . وعلى حين استخدمت المعاملات التجارية فى مصر. والشام المملوكيه اسم بندقى وافرنتى، استخدمت الأسواق الأوربية اسم الدوكات .

وكان الدوكات الذهبى البندقى يساوى اثنين من عملة بيزنطة منخفضة القيمة التى عرفت باسم الهيبربيرون hyperpyra فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى . وقبل استيلاء العثمانيين على القسطنطينية بقرن كامل. انظر: Danduli , A, Chronica Per Extensum Descripta a a 461-1280 d.c. ACura di Ester Pastorello , Bologne , 1938 , p. 370 . =

وأن يقوم بتوفير الطعام للرجال على متن السفن الكبرى والسفن الخفيفة طوال فترة بقائها في الميناء. وبالنسبة إلى الربابنة ، وبالتحديد أحد ربابنة السفن السفن الثلاث الكبيرة ، وأحد ربانى السفينتين الخفيفتين ، فقد أعلنا أنهما إذا ا قاما بمعارضة هذا القرار فسوف يسقطان تحت طائلة عقوبة تبلغ ٣٠٠٠ دوكات عن كل منهما يدفعانها من ممتلكاتهما الشخصية، وهذه العقوبة سوف يتم تسديد نصفها بواسطة سيد Avogadoi البندقية، والنصف الآخر سوف يُدفع بواسطة قوميون البندقية، وجاءت نتيجة التصويت كما يلي.

٢١ صوتًا موافقًا

صوت واحد معارض(١)

وهكذا قرر المجمع ضرورة بقاء السفن في القسطنطينية، مع امكانية رحيل الربابنة مقابل دفع غرامة تبلغ ٣٠٠٠ دوكات لأى منهم، أما التجار الذين كانوا يحاولون حماية أنفسهم، وحماية سلعهم وبضائعهم ، فقد تجمعوا وأخبروا الربابنة بأنهم لن يقوموا بالرحيل، وجاء بيانهم كالتالى :

= القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الانشا، ج٣ ، القاهرة ، ١٩١٣م، ص٤٣٧ ؛

Robbert, L.B, "Venetian Money Market 1150-1229 ", in , S.V, XIII, 1971, p. 44.

Idem , " Reorganization of the Venetian Coinage by Doge Enrico Dandolo" in SP, XLIX , 1974 , p. 51; Lane F.C, " The First Infidelities of The Venetian Lire", in, Miskimin & Herlihy & Udovitch (eds.) The Medieval City, Yale, 1977 , p. 45-47 ; Queller, " ANote on the Reorganization of the Venetian Coinage by Doge Enrico Dandolo ", in, Medieval Diplomacy and The Fourth Crusade , London, 1980 , p. 169 .

حاتم الطحاوى ، بيزنطة والمدن الايطالية، ص١٥٣-١٥٥ ؛ رأفت النبراوى ، الدوكات الذهبية البندقية ، «الدارة » العدد ٤ ، السنة ١٧ ، رمضان ١٤١٢ هـ ، ص٩١-١١٣ .

١- على الرغم من أن المؤرخ البيزنطى دوكاس Doukas، لم يذكر نتيجة التصويت بالتفصيل كما رواها بربارو ، فإنه ذكر أن الامبراطور قسطنطين الحادى عشر، والبنادقة المقيمين فى القسطنطينية لم يسمحوا لتلك السفن البندقية بالرحيل . وقاموا بالابقاء عليها للمساعدة فى الدفاع عن القسطنطينية . انظر: "Decline and Fall of Byzantium " , p. 211 ; Nicol, Op . cit , p. 396 .

وانظر أيضًا = Leonard of Chios, in , Op. cit , p. 23 .

«بالنظر إلى ما نمر به الآن من وضع خطر، فإنه لأمر جدير بالثناء من قبل الرب، ولدى العالم كله ، وكذلك استجابة للطلب النافذ للإمبراطور الأجلّ ، فإننا يجب أن نقوم بحماية أنفسنا بأكثر الوسائل الممكنة أمنا وقانونية، وبشكل خاص بسبب الرجاء الذى قدمه الامبراطور الأجل فى كنيسة القديسه صوفيا Santa Sophia بالقسطنطينية وكذلك فخامة البايل، اللذان قاما بتبيان العديد من الأسباب، وراء هذا الرجاء ، ونظراً لأنه ليس هناك شك فى أن حاكم البندقية الأشهر، قد سمع عن الخطر الداهم، المحدق بمدينة القسطنطينية وبالإمبراطورية البيزنطية، وكما كان واضحًا فى ما سبق ، فقد وصلنا خلال وقت محدد إلى ذلك القرار ، الذى يقضى بان تظل السفن الثلاث الكبيرة ، والسفينتين الخفيفتين من أجل حماية المدينة، وذلك حتى وقت معين ، وحتى ورود أية تعليمات من سيدنا حاكم البندقية.

وبالإضافة إلى ذلك ، فقد قرر التجار البقاء فى المدينة، لأن كافة رجالنا وسلعنا وبضائعنا تقع الآن داخل المدينة التى تم إغلاق أسوارها علينا ، وفرضت عليها حراسة قوية ، ونحن لانستطيع الرحيل وترك كافة بضائعنا وممتلكاتنا».

ونتيجة لهذا المطلب ، وهذا الالتزام الذى وضع بواسطة فخامة البايل ، فإننا نحن التجار سوف نحضر اليك يا الوفيكسى دييدو Aluvixe Diedo ربان السفن الثلاث الكبرى ، والأعلى مرتبة ، وأنت يا كابرييل تريفيكسان Cabriel Trevixane الربان الجدير بقيادة السفينتين الخفيفتين ، لكى نخبركم بكل ما انعقد عليه عزمنا.

ولم نحصل من الوفيكسى دييدو على تصريح مباشر. فيما عدا أنه مستعد لترك رجالنا وممتلكاتنا فى هذا البلد، وعندما تم تسلم رده النهائى ، قمنا بالانصراف ، ثم توجهنا برفقة

= أما هايد فيذكر ذلك أيضًا ، ويضيف أن تلك السفن البندقية قاتلت السفن التركية بنجاح ، واستطاعت انزال بعض بحارتها إلى اليابسه من أجل الدفاع عن الأسوار البحرية أيضًا . انظر: تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ترجمة أحمد رضا ، مراجعة عز الدين فوده ، ج٣ ، القاهرة ، ١٩٩٤ م، ص١٦٤-١٦٥ .

على أية حال يبدو أن بابارو قد أغفل - عمداً- اسم صاحب الصوت الذى عارض بقاء السفن بالقسطنطينية .

فخامة البايل نحو كنيسة القديسة مريم Santa Maria[1] بالقسطنطينية ودعونا لعقد مجمع الإثنى عشر Council of Twelve ، وبسبب الأهمية البالغة لهذه المسألة ، فقد حضر ٢٢ من النبلاء، وجرى التصويت بينهم، وقرروا أنه نظرًا لحالة الطوارئ الموجوده بالمدينة ، فإن السفن الثلاث الكبيرة والسفينتين الخفيفتين يجب أن تبقى هنا عبر استخدام الوسائل القانونية طبقًا للقرار السابق . وتم ارسال نتيجة عملية التصويت اليكم فى الحال ، ليقوم كاتب البايل بقراءتها فى الساعة الأولى من ليلة الرابع عشر من ديسمبر .

إذا ما رغب أحد الأعضاء الذين اشتركوا فى التصويت فى الحصول على نسخة منه، فسوف نحضر فى صباح اليوم التالى، الخامس عشر من ديسمبر ، برفقة فخامة البايل وجميع التجار لتسليم نسخة من القرار السابق ، كذلك سوف نقوم - إذا ما طلب أحد الأعضاء - بارسال نسخة من الاجتماعين اللذين تما بتفويض من البايل وسوف نعرف منكم الإجابة ، ففى هذا اليوم السادس عشر من ديسمبر ، سوف تقررون ما إذا كنتم سترحلون حقًا، أم ستبقون بالمدينة .

١- قام الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنينوس Alexius Comnenus (١٠٨١-١١١٨م) بمنح التجار البنادقة امتيازات تجارية ضخمة بالقسطنطينية ١٠٨٢م، كان من بينها حقهم فى امتلاك حى بندقى يقع على خليج القرن الذهبى، وذلك مقابل حماية الامبراطورية البيزنطية من أعدائها النورمان. ومنذ ذلك الوقت وحتى العام ١٢٠٤م تدفق التجار البنادقة ، ثم تبعهم التجار البيازنة والجنوية، نحو أسواق القسطنطينية ، واحتكروا التجارة بها بشكل كامل، وقام البنادقة خلال النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى ببناء عدة كنائس خاصة بهم بالقسطنطينية هى: كنيسة القديسه مريم ، وكنيسة القديس نيقولا ، وكنيسة القديس مارك ، بالإضافة إلى دير يرتبط بها. انظر:

Anna Comnena, The Alexiad , Trans by . Dawes , E , London . 1928 , p. 100 .

Danduli, Op . cit , p. 216 ' Dölger , F , Regesten der Kaiserurkunden Des Oströmischen Reiches Von 565 - 1453 , Teil I, Munchen , 1925 , pp. 27-28 .

حاتم الطحاوى ، بيزنطة والمدن الايطالية ، ص٦٦-٦٩ وانظر كذلك .

Day, G, " Italian Churches in the Byzantine Empire to 1204" in, C H R , vol , LXX , 1984 , p. pp. 383-384 .

وانظر أيضًا ص٩٢، هامش (١) .

وفى هذا اليوم، وحسب طلبكم ، فإن نيقولو جستنيانى سيكون فى حضرتكم ، كما أنكم لم تجاوبوا على أسئلة أى شخص . ونحن نرى الآن أننا تأخرنا كثيراً ، لكننا قررنا ألاّ يطول تأخرنا ، وقمنا بوضع أنفسنا بين يدى الرب الرحيم، يسوع المسيح وأمه السيدة العذراء ، وفعل ذلك جميع الموقعين فى أسفل البيان، وقمنا جميعًا بالحضور إليكم بأقصى سرعة ممكنة ، مقدمين دائمًا احترامنا وتبجيلنا إلى مكانتكم العالية، كربابنة للسفن، ونعلن أن أجسادنا وممتلكاتنا قد تم أخذها كضمان لأية ربح أو خسارة ، سوف تعود عليكم وعلى ممتلكاتكم فى هذا الأمر المتعلق برحيلكم ، وتركنا فى المدينة مع كامل ممتلكاتنا ، وبهذا الخصوص، ومع كامل الاحترام والتوقير ، نحن نقدم إليكم هذا البيان .

وجميع الأسماء التالية قامت بالتوقيع على البيان الذى تم ذكره سابقًا والذى طالب الربابنة بالبقاء فى القسطنطينية :

أنانيقولو جستنيانى ابن السيد برتارلو أعلن اعتراضى (على رحيل السفن) ، كما هو مكتوب أعلاه .

أنا فابروزى كورنر ابن السيد جوان أعلن اعتراضى (على رحيل السفن)، كما هو مكتوب أعلاه . وينطبق هذا علىّ وعلى زملائى .

أنا دومينيجو بالبى ابن السيد نيقولو أعلن اعتراضى. وينطبق هذا علىّ وعلى زملائى.

أنا كاتارين كونتارينى ابن السيد جوان أعلن اعتراضى، كما هو مكتوب أعلاه .

أنا نيقولا موزينيجو ابن السيد ليونارد الأول أعلن اعتراضى ، وينطبق هذا على زملائى.

أنا ميخائيل بولدو ابن السيد بينيدتو اعترض ، كما هو مكتوب أعلاه ، وينطبق هذا على زملائى .

أنا توما موجينجو ابن السيد مارين اعترض كما هو مكتوب اعلاه، وينطبق هذا على زملائى .

أنا نيقولو بالى ابن السيد مارتين اعترض كما هو مكتوب أعلاه ، وينطبق هذا على زملائى.

أنا زكريا باربارو ابن السيد ماتيو اعترض كما هو مكتوب أعلاه ، وينطبق هذا على زملائى .

نحن الويز بيمبو وانطونيو بيمبو أبناء السيد بينيتن نعترض كما هو مكتوب أعلاه وينطبق هذا على زملائنا.

آنا دولفين دولفين ابن السيد دومينجو اعترض، كما هو مكتوب أعلاه، وكذلك الأمر بالنسبة لزملائى .

أنا بيترو كونتاريني ابن السيد جاكومو اعترض، كما هو مكتوب أعلاه، وكذلك الأمر بالنسبة لزملائى.

أنا بيترو تريفكسان ابن السيد جوان اعترض كما هو مكتوب أعلاه ، وكذلك الأمر بالنسبة لزملائى مهما حدث من ضرر .

أنا برتولاميو جورجى ابن السيد فرانسيسكو اعترض ، كما هو مكتوب أعلاه .

أنا الويز كونتاريني ابن السيد جاكامو اعترض ، كما هو مكتوب أعلاه .

أنا مارين كونتاريني ابن السيد برتوجى اعترض ، كما هو مكتوب أعلاه .

أنا نيقولو موريكسيني ابن السيد جاكومو اعترض ، كما هو مكتوب أعلاه .

آنا الويز نافاير ابن السيد ميخائيل اعترض ، كما هو مكتوب أعلاه .

أنا مافيو دى بريوللى ابن السيد بيرو اعترض ، كما هو مكتوب أعلاه .

أنا دوناو ترون ابن السيد بيرو اعترض ، كما هو مكتوب أعلاه .

أنا بييرو جانتانى أعلن اعتراضى كما هو مكتوب أعلاه .

أنا لوكا دى روسى أعلن اعتراضى كما هو مكتوب أعلاه .

أنا الويز فاكسول أعلن اعتراضى كما فعل الآخرون .

أنا جوان جون اعترض كما هو مكتوب أعلاه .

أنا الويز ريدولفى أوافق على ما هو خير لكم .

أنا انطونيو دافنجو اعترض كما فعل الآخرون .

أنا جوان جوان اعترض كما هو مكتوب أعلاه بالنسبة للآخرين(١).

أنا دومينجو جاريمالدى اعترض كما هو مكتوب أعلاه .

أنا الويز ترالدينى اعترض كما هو مكتوب أعلاه .

أنا الويز دى كانال ابن السيد برتولاميو اعترض كما هو مكتوب أعلاه .

بعد اتخاذ القرار بابقاء السفن فى القسطنطينية من أجل الدفاع عن المدينة، وبعد البيان السابق الذى تم توقيعه بواسطة عدد كبير من تجّارنا ، حاولنا بكافة السبل والطرق اخبار حاكمنا الأكثر شهرة ، حاكم البندقية ، بأننا سوف نستبقى السفن بالمدينة، وعقدنا مجمع الاثنى عشر فى كنيسة السيدة مريم العذراء بالقسطنطينية ، حيث قررنا ضرورة ارسال جوان ديوسنايجى Zuan Diusnaigi إلى البندقية مع سفينته ، وأن يحمل معه رسائل من البايل ومن الوفيكسى دييدو ربان السفن القادمة من تانا ، وكابرييل تريفيكسان ربان السفينتين الخفيفتين، لاخبار سيدنا الأكثر شهرة حاكم البندقية، بأننا سنبقى بالقسطنطينية.

وعقد المجمع يوم السابع عشر من ديسمبر ، وفيه تم الاجماع على ضرورة رحيل جوان ديوسنايجى نحو البندقية (٢)، ثم اتباع ذلك بمجمع آخر فى التاسع عشر من ديسمبر . من أجل اقرار ارسال عدة رسائل إلى البندقية عبر الطرق البرية الممكنة ، وكذلك عبر طريق

١- جاء ذكر هذا النبيل البندقى مرتين فى قائمة الذين حضروا هذا الاجتماع ، ولم يوضح لنا نيقولو باربارو ولا البروفسير جونز، ما إذا كانا شخصين مختلفين، أم أنهما شخص واحد. وهكذا يكون باربارو قد ذكره - سهوا- مرتين فى نفس القائمة .

٢- رحل ديوسنايجى Diusnaigi بالفعل إلى البندقية ، فى أوائل العام الجديد ١٤٥٣م، وقدم تقريره للدوج البندقى فرانشيسكو فوسكارى . وإزاء الاخبار السيئة التى حواها تقريره حول اقتراب سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين ، عقد مجلس السناتو البندقى جلسة فى ١٩ فبراير ١٤٥٣م، تقرر فيها مد يد العون بشكل عاجل للقسطنطينية ، وارسال سفينتين كبيرتين على متن كل منهما ٤٠٠ مقاتل ، تبحران فى الثامن من أبريل ويرفقتها خمس عشرة شينية أخرى. وتم تدبير نفقات هذا الأسطول عن طريق فرض الضرائب على التجار الذين يعملون فى الأسواق البيزنطية، وفى موانئ البحر الأسود.

وبلغت التكلفة الاجمالية لنفقات الأسطول ١٦ ألفًا من الدوكات البندقية ، عن ذلك انظر:

Nicol , " Byzantium and Venice", p. 397 .

جـزيرة خـيـوس Chios (١)، وذلك لاخـبـار سـيـدنا وحـاكـمنا ، الذى سـبق ذكـره ، بأننا باقين بالقسطنطينية.

وكذلك عقدنا فى يوم الثانى والعشرين من نفس الشهر - ديسمبر - مجلس الاثنى عشر من أجل اقرار ارسـال خطابات للبندقية، عبر الأراضـى التركية Turkey و لكى نخبر حـاكمنا ببقائنا فى القسطنطينية.

وتمت كتابة ثلاث رسـائل ، تضمنت كافة أخبارنا وأحوالنا ، وتم إرسـالهـا على عـجل إلى سـيدنا حـاكم البندقية ، حتى يستطيع أن يتعرف على أسباب بقائنا بشكل عـاجل ، وكنا فى غاية الحذر من أن تلك الرسـائل الثـلاث لايجب أن تكون مـع شـخص واحـد يقـوم بـحملهـا إلى البندقية ، لأنـهـا إذا مـا سـقطت فى أيدى الأتراك ، فسـوف يطلعـون منهـا على كافـة خططنا ، وقـام البـايل بكتابة الرسـالة الأولى، بينمـا كتب الوقيكسى ديبدو ربان السـفن القـادمـة من تانا الرسالة الثانية ، وقام كابريل تريفيكسان ربان السفينتين الخفيفتين بكتابة الرسالة الأخيرة .

فى يوم السـادس والعشرين من يناير ، توجـه البـايل بصـحبة ربابنة السـفن، وكـافـة التـجار إلى حـضـرة الامـبـراطور الأجلّ ، حـيث قـدم البـايل مطلبًـا للامـبـراطـور ، وذكـر بأنـه «يجب أن يسمح لنا بأن نقوم بشحن سلعنا وبضائعنا على متن السفن، وألا نتعرض للتفتيش عند بوابات مدينتك ، كما لو كنّا فى بلاد المسلمين Moors (٢) .

١- جزيرة بيزنطية شرقى بحر ايجه بالقرب من ساحل أسيا الصغرى. تم منحها لبلدوين من فلاندر Baldwin of Flander بعد نجاح الحملة الصليبية الرابعة فى الاستيلاء على القسطنطينية ١٢٠٤م . آلت العام ١٢٦١م إلى الجنويه بمقتضى معاهدة نيمفايون Nymphaion . ثم عادت إلى سلطة الادارة البيزنطية ثم عاد الجنوية إلى احتلال خيوس ١٣٤٦م. ولم يستطع العثمانيون الاستيلاء عليها من جنوا سوى فى العام ١٥٥٦م . انظر : O D B, vol , I, pp 423-24 .

٢- استـخـدم الرومـان كلمـة Moors أو Mauri للتعبيـر عن سكان شمـال أفريقيـا ، مـا بين خليج سرت شرقًا ، حتى المحيط الاطلنطى غربًا ، وهى الكلمة التى تعادل كلمة «البربر» والكتابات العربية الإسلامية وبعد الفتح الإسلامى لشمال أفريقيا فى القرنين السابع والثامن للميلاد، استمرت المصادر الأوربية فى العصور الوسطى فى الاشارة بكلمة Moors إلى سكان شمال أفريقيا المسلمين . انظر: O.D. B, vol , 2, p. 1318

وتدل اشارة باربارو هنا على ارتياد التجار البنادقة الموانئ والأسواق الإسلامية فى شمال أفريقيا ، وربما الأندلس أيضًا .

وإذا ما قمنا بحمل بضائعنا إلى سفننا سوف نفعل ذلك بحرية تامة ، وبواسطة الاذن الذى حصلنا عليه من امبراطوريتكم ، عندما امتلكنا القسطنطينية لمدة ستين عامًا[١]، ثم قمنا باعادتها إليكم . لكن أرجو أن تقوموا بتنحية تلك الأحداث جانبًا، فنحن أولادكم الطيبين ، نسأل العفو من جلالتكم ، بأن تدعنا نقوم بتحميل سلعنا وممتلكاتنا على متن سفننا، وإذا لم توافق جلالتكم على ذلك ، فإننا سوف نقوم بالرحيل ليلاً، مستعينين باسم الرب، بالسلع والبضائع التى سنعثر عليها على متن السفن، ولاتصدق أبدًا أننا أردنا البقاء فى بلادك كما لو كنا عبيدًا».

عندما أدرك الامبراطور كلمات الربابنة والبايل، وأنهم أرادوا وضع سلعهم وبضائعهم على متن السفينة، رغم كل الظروف الموجودة ، أمر بجمع باورناته للتشاور معهم، وبعد حديث طويل بينهم ، أخذ الامبراطور فى التنهد بحسرة ، وأجاب البايل والربابنة باحترام قائلاً «لقد فهمت الأمر تمامًا . أيها البايل صاحب الشرف الرفيع، وأنتم أيها الربابنة الشرفاء، قوموا فى الحال بوضع سلعكم وبضائعكم على متن السفن ، كما يمكنكم أيضًا الابحار عند حلول الظلام، ارحلوا تصحبكم عناية الرب. واتركونى وحيدًا فى مواجهة جيش محمد بك Mahomet Bey التركى [٢]، عدوّى المخادع ، الذى نتوقع مجيئه يومًا بعد يوم، لأنه انتوى مهاجمة امبراطوريتى برًا وبحرًا وبكامل القوة المتوفرة لديه».

أجاب ربابنة السفن «أيها الامبراطور الآجلّ ، إننا – وبكامل ارادتنا– نقسم لك بشرف شعب البندقية ، بأننا لن نبحر بسفننا من ميناء القسطنطينية ، إلا إذا تلقينا تعليمات بالرحيل من قبل سيّدنا حاكم البندقية» .

وعند ذلك أجاب الامبراطور قائلاً «أنت ، يا ربان السفن الكبيرة، هل سلعك وبضائعك ليست آمنه فى مدينتى ، حتى تضعها على متن سفينتك ؟ حقًا لقد فهمت ما تخطط له ، من أجل الهرب ذات ليله، وتركى حزينًا كاسف البال فى مواجهة ذلك التركى الكافر، عديم الايمان، عدوّى الذى قام بسبّى من قبل ».

١– اشارة إلى استيلاء اللاتين على القسطنطينية بعد أحداث الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤–١٢٦١م .

٢– المقصود به هنا هو السلطان محمد الفاتح ، ويمكننا أن نلاحظ أن المؤلف نيقولو باربارو يستخدم أكثر من اسم وأكثر من صيغة فى الاشارة إليه . فهو هنا محمد بك ، أو محمد بك ابن مراد التركى ، ص٨١ أو السلطان كما فى ص٨٣ ، أو الخان كما فى ص٨٤ .

وفى النهاية رفض الامبراطور منح ترخيص بأن يجرى تحميل السلع والبضائع على متن السفن، إلا بعد أن يقسم ربان السفن الكبرى أولاً بأنه لن يرحل من الميناء دون الحصول على اذن من الامبراطور .

وهكذا أقسم الربان أنه لن يقوم بالرحيل بدون إذن أو تصريح من جلالته . وعند ذلك الحد، قام الامبراطور بالموافقة على تحميل التجار لسلعهم وبضائعهم على متن السفن ، وكذلك تفريغها عن طيب خاطر ، كما لو كنا فى وطننا الأم. واستغرقنا طوال اليوم فى عمليات الشحن التى جرى فيها شحن السلع والبضائع التى سوف يأتى ذكرها لاحقًا، والتى وصلت بالفعل إلى البندقية على متن تلك السفن فيما بعد ، بعد سقوط مدينة القسطنطينية :

الحرير	٨٢ بالة	الشمع	٤٣٨ بالة
النحاس الأحمر	٦١٤بالة	الصبغة القرمزية	٣١ بالة
النيلة	٤ بالة	Lacquer[١]	٦ بالة
الزنجبيل	١١ بالة	الشيح الخراسانى	١بالة
خام الذهب	٣ بالة	المصطكة	٧ بالة
المجموع = ١١٩٧ بالة			

وفى يوم السادس والعشرين من يناير ، وصل إلى القسطنطينية جوان جستنان Zuan Zustignan الجنوى [٢] ، على رأس سفينة على حمولتها ١٢ ألف

١- لم أعثر - خلال فترة البحث- على ترجمة دقيقة لهذه السلعة . وربما كانت «صمغ الك» Gomme Laque ، الذى كان يستعمل للصباغة ، ومعاجين التلميع. وكان صمغ الك موجودًا بشكل دائم فى قوائم التجارة في العصور الوسطى انظر . هايد ، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، فى العصور الوسطى، ترجمة أحمد رضا محمد، ج٤ ، القاهرة ، ١٩٩٤م، ص١٢٧-١٢٨ . وإذا كان ما توصلنا إليه صحيحًا. فلابد أن صمغ الك Gomme Laque ما زال يستعمل فى صباغة وتلميع الأخشاب حتى الآن . وهو ما يطلق عليه المصريون المحدثون «الجملكة».

٢- هو القائد العسكرى الجنوى الشهير ، جيوفانى جستنيانى Giovanni Guistiniani وصل إلى القسطنطينية على متن سفينتين حربيتين كبيرتين وبرفقته ٧٠٠ مقاتل اربعمائة منهم من جنوا ، والباقى من جزيرتى رودس وخيوس . رحب به الامبراطور قسطنطين الحادى عشر لدى وصوله . وقام بتعينه قائداً للقوات البيزنطية البرية، وأصبح مسئولاً عن حماية وحراسة أسوار القسطنطينية، وخاصة الأسوار القريبة من القصر الامبراطورى، لأن جستنيانى لاحظ أن السلطان محمد الفاتح قام بنصب مدفعه مقابل تلك الأسوار =

Botte [1]، وسفينة أخرى حمولتها ٨٠٠ Botte ، برفقة ٧٠٠ رجل، وحضر جستنان للقسطنطينية لأنه أدرك مدى حاجة القسطنطينية إليه، وكذلك من أجل رفعة وسمو الدين المسيحى .

قام الامبراطور باستبقاء تلك السفن التابعة له من أجل الحماية والتأمين، وبعد عدة أيام قام بمنح جوان جستنان شينية طويلة، وقام بتعيينه قائداً على قواته البرية، ليباشر عمله

= وأصدر الامبراطور مرسومًا ذهبيًا بمنح جستنياني جزيرة ليمنوس Lemnos إذا ما تم اجبار العثمانين على الانسحاب من أمام أسوار القسطنطينية . وحسب شهادة المؤرخ البيزنطى دوكاس فإن جنود جستنياني من اللاتين حاربوا كالأبطال ، وقاموا بهجمات مفاجئة عند البوابات ، وواجهوا الأتراك فى قتال متلاحم . كما أن جستنيانى قام بمحاولات متكررة لترميم الأسوار التى أصابتها مدفعية محمد الفاتح . ولم ينسحب من القتال إلا بعد اصابته بزخات من الرصاص خلف ذراعه، عند ذلك صاح بالامبراطور «إثبت مكانك بقوة ، بينما سأتوجه نحو سفينتي لأجد طبيبًا يهتم بجرحي لأعود بسرعة»، لكنه لم يعد أبداً، الأمر الذى أدى إلى انسحاب قواته أيضًا، وإلى ضعف المقاومة إزاء العثمانيين. عن الدور الكبير الذى لعبه جستنيانى انظر المصادر المعاصرة التالية:

Doukas, Op. cit, pp. 211-12 , 217 -19 , 221-24 ; Kritovoulus . Op. cit . pp. 69-70 ; Sphrantzes , Op. cit, p. 103 , 106 , 110 , 116 , 127 , 146 , 148 ; Chalconodylas , Op cit , p. 50 , Tedaldi , Op. cit, p. 7 ,

الذى تحدث عن النزاع بين جستنياني الميجادوك نوتاراس . Leonard of Chios , Op. cit, pp. 29-30

Lomellino , Op . cit, p. 132 , Riccherio, Op. cit, pp. 121-22 .

انظر أيضًا البروفسير رنسمان الذى يحدد وصول جستنيانى للقسطنطينية بيوم ٢٩ يناير ١٤٥٣م .

Runciman , Op. cit , pp. 83-84 , 129, 131 , 135 , 138-39 , 150 ; Babinger , Op. cit, pp. 79 , 86-87 , 90-93 .

Nicol , " The Last Centuries of Byzantium , pp. 407-408 ; Kielty , Op. cit, p. 126 .

انظر أيضًا . صلاح ضبيع . العلاقات السياسيه بين العثمانيين والامبراطورية البيزنطية ١٢٦١-١٤٥٣م ، ص٢٩٢ : السيد محمد المتولى ، الدولة البيزنطية في عالم القرن الخامس عشر ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة المنصورة ، ١٩٩٨م، ص١٤١، ١٤٢ .

١- بوتا Botte ، مقياس للزيوت كان يساوى طن واحد فى السفينة التجارية فى العصور الوسطى. انظر:

De Roover, Op. cit, pp. 50-51 .

فى مراقبة جيش محمد بك التركى، من فوق أسوار المدينة ، حيث كان من المتوقع أن يهاجم مدينة القسطنطينية التعسة، يومًا بعد يوم .

وفى ليلة السابع والعشرين من فبراير، أبحر بييرو دافانزو Piero Davanzo[١] بسفينته من الميناء باتجاه البندقية ، وأبحرت فى تلك الليلة أيضًا ست سفن تابعة لكانديا Candia (كريت)، نحو الوطن الأم محملة ببالات الملابس ، واعتماداً على سرعة الرياح الشمالية والشرقية التى بلغت عشرة أميال فى الساعة ، قامت السفن السبع بالابحار فى سهولة ويسر.

وكان قد تم استبقاء تلك السفن السبع أيضًا بواسطة مجمع الاثنى عشر. مثلما حدث لسفننا ، وكان السبب الرئيسى وراء هروبهم هو خوفهم وفزعهم من الأتراك الذين اعتزموا مهاجمة المدينة، ذلك الهجوم الذى كان متوقعًا بشكل يومى.

وقام العديد من الأشخاص ذوى الأهمية بالهرب على متن تلك السفن ، بحيث وصل ٧٠٠ شخص بأمان إلى مكان قريب من Tenedos [٢]، دون أن يلحظهم الأسطول التركى، الذى ما أن بدأ فى ملاحظتهم ، حتى كانوا قد نجحوا فى العبور من مضايق غاليبولى ، حيث تفرقت السفن عن بعضها البعض، فاتجهت السفن الست إلى كانديا ، بينما اتجه بييرو دافانزو إلى البندقية ، وهكذا وصلت السفن السبع إلى موانيها بسلام.

وبينما كان الامبراطور يفكر مليًا فى تلك الأحداث، حضر الأتراك لمهاجمة مدينة القسطنطينية البائسة، ونظراً لتميز أسوار المدينة بمناعتها وسمكها الذى يتراوح ما بين عشرة إلى اثنتى عشر قدمًا ، أو أكثر من ذلك ، فيما عدا الأسوار القريبة من القصر، التى عرفت بضعفها الشديد، وكانت تفتقر إلى الشرفات العلوية المحصنة Barbicans وكذلك إلى وجود

١- يتفق بابنجر Babinger مع ما ذكره باربارو من هروب بييرو دافانزو بسفينته من خليج القرن الذهبى فى ٢٦ فبراير ١٤٥٣م . برفقة ست سفن أخرى تابعه لجزيرة كريت (كانديا)، كما يذكر أيضًا هروب ٧٠٠ شخص على متن تلك السفن السبع ، انظر:

Mehmed The Conqueror , p. 83 . Nicol , Op. cit , p. 396 .

٢- هذا هو الاسم القديم لها ، واسمها الحالى بوزجادا Bozcaada وهى جزيرة تركية تقع شمال شرقى بحر ايجه ، تحكى الأسطورة القديمة أنها كانت قاعدة عبر من خلالها الملك الفارس اكسرخسز Xerxes إلى بلاد اليونان ، عن ذلك انظر . W.N.G.D. pp. 167 , 1195

خندق تحتها ، فقد اتخذ الامبراطور ترتيباته بالعناية بتحصيناتها ، حتى لايقوم الأتراك عند قدومهم باحداث خسائر كبيرة فى تلك الناحية.

ورغبة منه فى اتخاذ الاستعدادات اللازمة ، طلب الامبراطور من ربان السفن القادمة من تانا Tana مساندته عبر التحرك بسفنه نحو القصر ، وأن يجعل البحارة يقومون بحفر خندق حول القصر لحمايته ، يبلغ طوله مائة خطوة ، وعمقه ثمانية أقدام.

أجاب الربان على الإمبراطور قائلاً ، «سوف أقوم بتنفيذ ما تريد ، من أجل شرف الرب، وشرف الدين المسيحى، وطاعة لجلالتكم حيث تتعرضون لهجوم الأتراك ، ومن أجل أن نجعل مدينتك قوية وحصينة، ولهذا سوف أتخذ طريقى بسفنى فى صباح يوم الاثنين، وسوف أحضر إلى بوابة شينيجوChinigo ، وهناك عندما ننزل إلى الشاطئ سوف يقوم كل شخص بدوره المرسوم له بشجاعة» .

وعندما جاء يوم الاثنين الرابع عشر من مارس ، اتخذ رباننا طريقه بسفنه ، وتوجه نحو المكان الذى أمر به الامبراطور، وقام بالقاء مراسى السفن به ، وبعد ذلك توجه كل شخص طواعية إلى الساحل ، واستخدم البعض الجواريف Spades ، بينما استخدم الآخرون المعاول Picks ، واستعمل بعضهم الصناديق لحمل التراب.

وقف الامبراطور برفقة نبلائه يراقبون هذا العمل الرائع ، وقام كل ربان بغرس العلم الذى يحمله فى نقطة معينة على الأرض ليكون بمثابة نقطة تجمع لرجاله . وفى نفس اليوم تم حفر خندق طويل للغايه ، وعمل الجميع بارادة قوية ، بفضل محبة الرب، وتلهفهم على ايقاف تقدم الأتراك ، ومنع هجماتهم من الوصول إلى الأسوار .

بحلول المساء ، قام الامبراطور بتوجيه الشكر والتقدير والامتنان للربان ، على المساندة والدعم الذى قام بهما تحت اسم حاكمنا ، سيد البندقية، وأمر الربان كابرييل تريفيكسان ربان السفينتين الخفيفتين بالرحيل مع سفينته ، وحفر خندق عميق، مثلما فعل مع بحارته من أجل تحصين أسوار القصر. وأطاع كابرييل الأمر، فاستمر فى أعمال الحفر حتى غروب الشمس ، وبعدها توجه إلى موقعه من أجل أن يقوم بالقاء مراسى سفنه ، وكان ذلك يوم الرابع عشر من شهر مارس ١٤٥٣م.

فى اليوم الأخير من شهر مارس، الموافق السبت عيد الفصح Easter، أصدر الامبراطور الأجلّ أمرًا لربان السفن القادمه من تانا Tana ، بالانتهاء من حفر الجزء المتبقى من الخندق،

حتى يصبح المكان محصنًا تمامًا. وأراد الإمبراطور أن يحضر بنفسه ، ومعه نبلائه، من أجل استعجال عملية حفر الخندق ، وقبيل الغروب بساعة وصل الربان إلى الميناء حيث رست السفن، ثم رحل عن الميناء فجر يوم السبت برفقة سفنه الثلاث الكبيرة ، وتوجه نحو Chinigo حيث مكان الحفر، حيث وجد بانتظاره الامبراطور ، وعدد كبير من نبلائه .

عندما قامت السفن بالرسو ، قدّم الوفيكس ديبدو نفسه للإمبراطور ، وبدأت أعمال الحفر، وشرع الجميع فى ذلك · الربابنة ، عرفاء الملاحين والملاحين، كافة ضباط السفن، وكذلك رماة السهام ونواب الربابنة ، حيث قام الجميع بعمليات الحفر بإرادة قوية .

قام البعض بالحفر، والبعض الآخر بحمل التراب، وتم تنفيذ جزء كبير من العمل خلال ذلك اليوم لأن الجميع عملوا بفرح وهم مسرورين لما يقومون به . وكذلك لأن الإمبراطور كان يراقبهم ابان عملهم ، وكذلك فعل الربان ، وطوال الوقت الذى جرى خلاله العمل ، كان الإمبراطور قد أمر بتعيين جندى حراسه يتمركز فوق الأسوار لمراقبة الأتراك ، فى حالة مهاجمتهم العاملين فى حفر الخندق ، وبفضل رحمة الرب لم يحضر الأتراك قبل الانتهاء من حفره ، وعندما حل وقت الصلاة Compline[١] فى المساء ، كانت عملية الحفر قد انتهت، ورحلت السفن نحو موقعها السابق عند منطقة بيرا Pera [٢].

١- Compline : هى الصلاة السابعة والأخيرة ، وتقام قبل النوم .

٢- بيرا Pera أو غلطه Galata هى مستعمره تقع شمال القرن الذهبى فى مواجهة القسطنطينية كانت بها جالية يهوديه امتهنت التجارة حتى العام ١٢٠٣م عندما داهمها الصليبيون فى الحملة الصليبية الرابعة ، استعادها الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوغس ١٢٦١م ثم قام بمنحها إلى التجار الجنوية ١٢٦٧م وأصبحت غلطه أو بيرا فى عهد الجنوية مركزًا عالميًا للتجارة . حتى استولى عليها العثمانيون ١٤٥٣م. وحافظ السلطان محمد الفاتح على امتيازات الجنوية بها بعد مساعدتهم له فى فتح القسطنطينية ، انظر : O.D.B. vol , 2 , pp. 815-16 .

هايد ، تاريخ التجارة ، ج٣ ، ص١٤٥-١٤٧ ، ١٦٨-١٧٢ .

انظر المعاهدة التى أبرمها الجنوية فى بيرا مع السلطان محمد الفاتح بعد سقوط القسطنطينية مباشرة.

Lomellino , in " The Siege of Constantinople", pp. 136-37 .

وانظر العمل الكلاسيكى الهام حول المستعمرة الجنوية التجارية فى غلطه (بيرا) :

Sauli , D. L. Della Colenia Dei Genovesi in Galata 2 . Tomo, Turin, 1831 .

وفى الثانى من أبريل ، أمر الإمبراطور الأكثر إجلالاً ، بارتولوميو سوليجو Bartolemio So-ligo [١] بأن يقوم بمد السلسلة Boom[٢] عبر الميناء من القسطنطينية إلى بيرا. وبالفعل قام بارتولوميو بتنفيذ أمر الإمبراطور ، ومد السلسله ، التى كانت تتكون من قطع ضخمة ومستديرة من الخشب، جرى ربطها جيداً بمسامير طويلة من الحديد. وحلقات حديدية سميكة، وامتد طرفها من داخل أسوار القسطنطينية وطرفها الثانى من داخل اسوار بيرا، من أجل تحقيق الأمان التام.

١- كان سوليجو مهندسًا جنويًا، ومسئولاً عن إغلاق سلسلة الميناء فى وجه الأسطول العثمانى ، حتى لايستطيع الدخول إلى خليج القرن الذهبى. كما تسلم أيضًا قيادة الأسطول البيزنطى الذى جرى تكليفه بحراسة السلسله والدفاع عنها. وهو الأسطول الذى تكون من عشر سفن خمس منها تابعه لجنوا، وثلاث سفن تابعة لجزيرة كريت، وسفينتين لكل من أنكونا والقسطنطينية، عن ذلك انظر:

Runciman, Op. cit, pp. 86-94 .

٢- استخدمت العديد من المدن البحرية فى العصور الوسطى سلسلة حديدية طويلة لحماية موانيها، من ذلك السلسلة الحديدية التى كانت بميناء دمياط، والتى استولى عليها جنود الحملة الصليبية الخامسة ١٢١٩م حتى يستطيعوا اخضاع المدينة . انظر : المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج١ ، القاهرة ، ٢٠٠٠م، ص١٥ : محمود سعيد عمران ، الحملة الصليبية الخامسة على مصر ، القاهرة ١٩٨٥م، ص١٨٧ : وعن استيلاء الحمة الصليبية السابعة على ميناء دمياط ١٢٥٠م، انظر المقريزى، المصدر السابق، ص٢٢٠: جوانفيل ، القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٦٨م، ص٩٤-٩٦ .

وعلى الرغم من مناعة سلسلة القرن الذهبى ، فانها لم تستطع ايقاف تقدم سفن الحملة الصليبية الرابعة، حيث قامت بتحطيمها والاستيلاء على مدينة القسطنطينية ١٢٠٤م، انظر روبرت كلارى، فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ، ترجمة حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٤ ، ص٨١ «كانت ميناء القسطنطينية آمنة كل الأمن لوجود سلسلة حديدية ضخمة ، قد ثبت أحد طرفيها فى المدينة، والطرف الآخر عند برج جلطه بعد عبورها الميناء » وانظر أيضًا فلهاردوان: فتح القسطنطينية ، ترجمة حسن حبشى ، جدة، ١٩٨٢م، ص٩٧ « ... اتفق رأى باروناتنا على أن يعسكروا عند الميناء أمام برج غلطه ، حيث تمتد سلسلة تسد ميناء القسطنطينية التى لايمكن للمرء دخولها إلا إذا اجتاز هذه السلسلة قسراً...».

ويذكر دوكاس أن البيزنطيين قاموا بفتح السلسلة فى يوم الثانى من أبريل ١٤٥٣م لاستقبال السفن الخمس التى وصلت لمساعدة القسطنطينية انظر. "Decline and Fall of Byzantium", p. 85. واحتفظ العثمانيون بعد الفتح بهذه السلسلة، وهى موجودة الآن فى متحف طوب كابى Top Kapi .

عندما تم بسط السلسلة عبر الميناء، ثار سؤال حول وضع الترتيبات من أجل الدفاعات البرية، ولهذا توجه كافة نبلاء القسطنطينية للامبراطور، واحاطوه علمًا بوجوب تعيين أربعة قاده عسكريين عند بوابات المدينة الأربعة، وأن يتمركز هؤلاء عند الجانب البرى باتجاه اليابسة.

وبناء على ذلك أجاب الامبراطور الأجلّ برفق، أن القسطنطينية تخص البنادقة أكثر مما تخص البيزنطيين ، ولأنه وضع ثقته فى البنادقة بشكل كبير، فقد رغب فى وضع البوابات الأربع للمدينة، مع مفاتيحها ، تحت مسئوليتهم .

وبالفعل قام الامبراطور بتنفيذ ما خطط له ، وتقلد أربعة نبلاء بنادقة هذه المهمة ، بعد أن نادى النبلاء البنادقة بعقد مجمع الاثنى عشر، وتم فيه منح الأبواب الأربعة بواسطة المجمع إلى أربعة من نبلائنا .

تم منح مهمة حماية البوابه الأولى المعروفة باسم كريسكا Cresca[١] إلى كاتارين كونتاريني Catarın Contarıni [٢]، وحماية البوابة الثانية إلى فابروزى كورنر ، وعهد بحماية البوابه الثالثة

١- هى نفس البوابة المعروفة باسم البوابه الذهبية Golden Gate .

٢- عن دور كاتارين كونتاريني فى حراسة البوابة الذهبية . انظر:

Nicol, " Byzantium and Venice ", pp. 400, 405 .

الذى يذكر أيضًا سقوط كونتاريني أسيرًا فى يد العثمانيين بعد سقوط القسطنطينية وبرفقته العديد من البنادقه مثل كابرييل تريفيكسان Cabriele Trivixan ، وزكريا جريوني Zaccaria Grioni : انظر كذلك.

Bartusis, M, The Late Byzantine Army , Arms and Socity , 1204-1453 , philadelphia , 1992, p. 124 .

وانظر أيضًا المصادر التاريخية التى ذكرت دور كاتارين كونتاريني وباقى النبلاء البنادقة فى حراسة بوابات القسطنطينية:

Dolfin, Z, "Cronaca, FF. 313-322 (Selectıas) , pp. 125-130 , ep. p. 129 .

كما أشاد ليونارد الخيوسى ببسالة كونتاريني عند البوابة الذهبية . انظر:

Leonard of Chios, in, Jones (ed.), "The Siege of Constantinople 1453 " pp. 11-41 . esp . p. 27 .

إلى نيقولو موزينجو ، وهى التى عرفت باسم Elpigi . أما البوابة الرابعة والأخيرة ، الموجودة بالقرب من قصر الامبراطور الأجلّ ، فقد عهد بها إلى دولفين دولفين Dolfin Dolfin (١).

وحصل هؤلاء النبلاء الأربعة على مفاتيح تلك البوابات وقاموا بحراستها بشكل جيد.

وبدأ القتال منذ ذلك الوقت فصاعداً، وحضر السلطان وقام بنصب معسكره حول المدينة . وبهذا الخصوص. فاننى أنوى أولاً أن أذكر كافة أسماء النبلاء البنادقة الذين كانوا فى مدينة القسطنطينية عندما بدأت الحرب ضد محمد بك ، من أجل الذكرى الأبدية ، وحتى يتم التعرف على جميع النبلاء الذين حضروا الحرب:

١- السيد جيروليمو مينوتو بايل القسطنطينية .

٢- السيد جورجى مينوتو ابن السيد جيروليمو .

٣- السيد بولو مينوتو ابن السيد جيروليمو (٢).

٤- السيد الفيكس دييدو قبطان السفينة القادمه من تانا.

٥- السيد ماركو دييدو ابن السيد الفيكس .

٦- السيد كابرييل تريفكسان نائب القبطان على السفينتين.

٧- السيد ماركو تريفيكسان ابن السيد جابرييل .

٨- السيد زكريا جريونى، الفارس الذى تم ذكره سابقًا.

٩- السيد سيلفسترو تريفكسان ربان الشينية الكبيرة.

١٠- السيد جاكومو كوكو ربان الشينيه الكبيرة.

١١- السيد جيروليمو موريكسينى ابن السيد برناردو ربان الشينية الكبيرة .

١- عن الدور الذى قام به كل من : دولفين دولفين ، وفابروزى كورنر ونيقولو موزينجو فى حراسة باقى بوابات القسطنطينية . انظر:

Nicol, Op. cit , p. 400 .

٢- يبدو أنه ابن البايل البندقى جيروليمو مينوتو . ولم ترد عنه أية اشارة بالكتاب تفيد بذلك. على عكس أخيه جورجى مينوتو .

١٢- السيد كاتارين كونتاريني ابن السيد جوان.

١٣- السيد مارتن كونتاريني ابن السيد برتوزي.

١٤- السيد بيرو كونتاريني ابن السيد جاكامو

١٥- السيد الويز كونتاريني ابن السيد جاكامو.

أخوان

١٦- السيد جابرييل كونتاريني ابن السيد نيقولو

١٧- السيد نيقولو موريكسيني ابن السيد جاكامو .

١٨- السيد نيقولو جستنيان ابن السيد برناردو .

١٩- السيد برناردو جستنيان ابن السيد نيقولو .

٢٠- السيد دومينجو بالبي ابن السيد نيقولو .

٢١- السيد نيقولو بالبي ابن السيد مارين .

٢٢- السيد برناردو بالبي ابن السيد دومينيجو .

٢٣- السيد الويز بيمبو ابن السيد بينتن .

٢٤- السيد انطونيو بيمبو ابن السيد بينتن

أخوان

٢٥- السيد نيقولو موزينجو ابن السيد ليوناردو الأول.

٢٦- السيد توما موزينجو ابن السيد مارين.

٢٧- السيد الويز نافاير ابن السيد ميخائيل.

٢٨- السيد جيروليمو كورنر ابن السيد ...

٢٩- السيد انطونيو دي كا دي بيكسارو ابن السيد بييرو.

٣٠- السيد بييرو ناني ابن السيد جوان.

٣١- السيد بييرو تريفيكسان ابن السيد جوان .

٣٢- السيد أدامو تريفكسان ابن السيد ...

٣٣- السيد ميشيل بولدو ابن السيد بينيدتو

٣٤- السيد باتيستا جرينى ابن السيد أومويون .

٣٥- السيد لوكا جريتى ابن السيد تريادان .

٣٦- السيد زكريا باربارو ابن السيد ماتيو.

٣٧- السيد نيقولو باربارو ابن السيد ماركو[١]

٣٨- السيد فرانشيسكد فانيير ابن السيد برناردو.

٣٩- السيد جوان فانيير ربان السفينه القادمه من كانديا (كريت) .

٤٠- السيد جوان لوريدان ابن السيد بولو .

٤١- السيد مافيو دى بريولى ابن السيد بييرو.

٤٢- السيد الويز دى بريولى ابن السيد بييرو.

أخوان

٤٣- السيد انطونيو كويو ابن السيد جاكامو.

٤٤- السيد فابروزى كورنر ابن السيد جوان.

٤٥- السيد جيروليمو أبرامو ابن السيد أنطونيو .

٤٦- السيد ماركوا أبرامو الكريتى.

٤٧- السيد اليساندرو لولينى ابن السيد أنزولو

٤٨- السيد جوان لولينى ابن السيد انزولو.

أخوان

٤٩- السيد نادال سينولو الكريتى .

٥٠- السيد بييرو بارباريجو الكريتى .

٥١- السيد دانيال ڤيتورى ابن السيد رينيه .

٥٢- السيد أندريا ماليبيرو ابن السيد ...

١- لم يغفل نيقولو باربارو ذكر اسمه ضمن البنادقة الموجودين بالقسطنطينية ابان الحصار العثمانى للمدينة ١٤٥٣م . وهذه هى المرة الأولى التى يذكر المؤلف اسمه داخل يومياته . حيث سيشير إلى ذلك عدة مرات فى الصفحات الأخيرة من كتابه .

٥٣- السيد انطونيو بيزامانو ابن السيد نيقولو .

٥٤- السيد بييرو ميشيل ابن السيد دونادو .

٥٥- السيد فرانشيسكو ميشيل ابن السيد ... .

٥٦- السيد نادال سالامون ابن السيد نيقولو .

٥٧- السيد فانتين جن ابن السيد انطونيو .

٥٨- السيد دوناد ترون ابن السيد بييرو .

٥٩- السيد زكريا دا موليني ابن السيد جوان.

٦٠- السيد ماركو داليزى ابن السيد فرانشيسكو .

٦١- السيد نيقولو بيزانى ابن السيد اندريا .

٦٢- السيد الويز دى كانال بن السيد بورت. ⎤ أخوان

٦٣- السيد جيروليمو دى كانال ابن السيد بورت . ⎦

٦٤- السيد جاكامو تايا بييرا ابن السيد بييرو.

٦٥- السيد فيليبو كونتاريني ابن السيد ...

٦٦- السيد دولفين دولفين ابن السيد دومينجو.

٦٧- السيد بورتولو جورجى ابن السيد فرانشيسكو .

وهنا تبدأ قصة حصار المدينة حيث تتابعت الاشتباكات بشكل يومى ، كما سوف أبيّن ذلك فيما يلى :

فى الخامس من شهر أبريل وبعد الفجر بساعة ، حضر محمد بك أمام القسطنطينية على رأس مائة وستين ألف رجل [1]، وأقام معسكره على مسافة ميلين ونصف من أسوار المدينة.

١- يذكر نيقولو باربارو هنا أن عدد قوات محمد الفاتح بلغ مائة وستين ألف مقاتل قبل فتح القسطنطينية بشهرين تقريبًا . لكنه يعود فيذكر أن الهجوم العثمانى النهائى على المدينة (فجر التاسع والعشرين من مايو ١٤٥٣م) كان بواسطة مائة وخمسين ألف مقاتل تحت قيادة السلطان محمد الفاتح. عن ذلك انظر ما يلى، ص١٦٨ . =

في السادس من هذا الشهر ، تحرك الامبراطور التركي بنصف قواته إلى مسافة ميل واحد من أسوار المدينة . وفي السابع من نفس الشهر، تحرك مع جزء كبير من قواته لمسافة ربع ميل عن الأسوار وانتشر جنوده في خط بطول أسوار المدينة ، التي بلغ طولها ستة أميال. من بوابة كريسكا Cresca إلى بوابة Chingino .

وشرع الأتراك منذ ذلك الوقت في عمليات القتال ضد المدينة ، وبدأت استعداداتهم من أجل الهجوم، ولم ينجح ذلك العدو الوثني في تنفيذ خططه تجاهنا، ونتيجة لأمر الامبراطورا لأجلّ ، توجه كل قائد من المسئولين عن البوابات أو القلاع، أو القادة الآخرين ، كل إلى موقعه برفقة رجاله ، من أجل القيام بأعمال الحراسة، ومراقبة عدونا .

في يوم السادس من أبريل ، اتخذ الامبراطور الأجلّ موقعه على الأسوار عند الجانب البري القريب من البوابة المعروفة باسم Cressu ، التي كانت تعد أضعف من باقي البوابات الأخرى . وكان برفقة الامبراطور عدد ضخم من باروناته ، وفرسانه، من أجل تقديم الدعم والمساندة . وعلى الرغم من كل هذا، كان الامبراطور مسكونًا بالشك تجاه كافة ما يتعلق بعدوه التركي الغادر، الذي ينتظر نشوب المعركة معه، يومًا بعد يوم.

ومرة ثانية في السادس من أبريل أيضًا، غادر قنصلنا البندقي جيروليمو مينوتو قصره ، وتوجه إلى قصر الامبراطور الذي كان قريبًا من الأسوار، وحضر لمشاهدة التجهيزات التي جرى اتخاذها حول الأسوار ، وذلك لكي يتأكد من أنه لايمكن لأحد أن يقوم باقتحام

= والجدير بالذكر أن المصادر قد اختلفت بشكل واضح حول تعداد الجيش العثماني المحاصر للقسطنطينية فعلى حين ذكر خالكوكونديليس Chalcocondylas أنه بلغ ٤٠٠ ألف رجل، ذكر دوكاس Dou-kas أنه أكثر من ٤٠٠ ألف رجل، بينما ذكر فرانتزس Sphrantzes أنه تألف من ٢٠٠ ألف مقاتل، انظر:

Chalcocondylas, Op. cit, p. 43 , Doukas , Op. cit, p. 83 , Idem , p. 212 ; Sphrantzes, "The Fall of The Byzantine Empire", p. 69

أما مؤرخ عصر محمد الفاتح فرانتز بابنجر Franz Babinger فيناقش أعداد الجيش العثماني ، ويصفها بالمبالغة الكبيرة ، ويذكر أن أعداد المقاتلين العثمانيين كانت تزيد قليلاً عن ٨٠ ألف مقاتل فقط. باضافة الرجال الذين لايشتركون في القتال بشكل مباشر. ويذكر أن امكانيات الدوله العثمانية آنذاك لم تكن تسمح بجمع ١٦٥ ألف مقاتل. (في قراءة خاطئة لما ذكره نيقولو باربارو (١٦٠ألف) علاوة على أن بابنجر قام بقراءة خاطئة للأعداد التي ذكرها دوكاس ٢٦٥ ألف مقاتل، وفرانتزس ٢٥٨ ألف مقاتل!! انظر: Babinger, Op. cit,p.84

القصر، الذى كان يحوى الآن العديد من تجارنا النبلاء، الذين قاموا بملازمة قنصلنا، وأمدّوه – والمدينة– بالدعم والمساندة .

كان القائد العسكرى الأعلى Megaduk (١)، الرجل الأكثر أهمية فى القسطنطينية – بعد الامبراطور– يقوم بحراسة السواحل بالقرب من الميناء، وكان لديه مائة جواد بشكل احتياطى قام بالاحتفاظ بهم من أجل استخدامهم فى ارسال المساعدة للمدينة ، كلما كان ذلك ضرورياً.

وكان الرهبان يقومون أيضاً بأعمال الحراسة على مسافة ميل من الأسوار البحرية. وقام التركى دورجانو Dorgano (٢)، الذى كان يعمل فى خدمة الامبراطور بالقسطنطينية، بحراسة

١– تم ابتداع هذا اللقب بعد العام ١٠٨٥م وكان يعنى قائد الأسطول. واستمر اللقب حتى العام ١٤٥٣م يضمن لصاحبه مكانة عليا فى الوظائف الرسمية. كما حمل هذا اللقب عدداً من الأجانب غير البيزنطيين. وكان يعنى هذا اللقب «القائد الأعلى للجيش» فى ابان الحصار ثم الغزو العثمانى للمدينة ، وكان نوتاراس Notaras هو القائد البيزنطى الذى حمل لقب Megadux آنذاك . انظر:

O. D. B. vol . 2 , p. 1330 ; Nicol, Op. cit . p. 439 .

كذلك استخدم هذا اللقب Mega doux للاشاره إلى منصب القائد العسكرى للأقاليم البيزنطية الغربية منذ بداية القرن الرابع عشر الميلادى . انظر:

وسام عبد العزيز فرج ، الألقاب والمناصب الحكومية فى بيزنطة بين الاستمرار والانقطاع. الكتاب السنوى الثالث ، الجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية، تحرير : أحمد عتمان ، القاهرة ، ١٩٨٨م، ص٣١٧ .

٢– كان اسمه الحقيقى أورخان Orhan ، وهو بن الأمير سليمان بن بايزيد ، ونتيجة للهزيمه المروعة التى حدثت للعثمانيين فى موقعة أنقره ١٤٠٢م على يد تيمور لنك، وأسر السلطان بايزيد وموته فيما بعد ، اجتاحت الحرب الأهلية البيت العثمانى، وتنافس أبناء بايزيد محمد وموسى وسليمان على الحكم . ولعب الامبراطور البيزنطى مانويل الثانى باليولوغس Manuel II Palaologus (١٣٩١–١٤٢٥م) على وتر الحرب الأهلية العثمانية، وساند الأمير سليمان فى دعواه لكن هزيمة الأخير أمام أخيه موسى دفعت بابنه أورخان إلى اللجوء للبلاط البيزنطى، مع آخرين من أبناء وبنات البيت العثمانى. عن ذلك انظر:

ابن عربشاه ، عجائب المقدور فى نوائب تيمور، تحقيق أحمد فايز الحمصى ، بيروت ، ١٩٨٦، ص٣٢٨–٣٣٦ .

القرمانى، أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ ، القاهرة، د.ت ، ص٣٠١–٣٠٢ ؛ اسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار، ج١ ، القاهرة ، ١٣١٢هـ ، ص٤٩٦–٤٩٧ . =

أحد أحياء المدينة، القريبة من البحر، برفقة الأتراك الذين كانوا يعملون تحت امرته، وكان قد تمرد فى وقت سابق على سيده.

وهكذا قامت كافة الشخصيات البارزة فى القسطنطينية بحراسة المناطق الرئيسية بالمدينة، وكانت هناك حراسة قوية عند بوابة Chinigo بشكل خاص.

Barker , J , Manuel II Palaeologus , 1391 - 1425 , AStudy in Later Byzantine States- = manship , New Jersey , pp. 247-251 .

Doukas , Op. cit, pp. 95-100 ; Nicol, "The Last Centuries" , pp. 95-6 , 400 ; Wittek , p De la defaite D'Ankara ala Prise de Constantinople, in , R.E.I, XII , 1938 , p. 17 . Hidden , A, The Ottoman Dynasty , New York , 1912 , p. 36 .

La Vallée, The Histoire de L'Empire Ottoman , 1855 , p. 158 . Dereksen , D , The Crescent and the Cross, New York, 1964 , p. 124 .

Pears, E, The Destruction of the Greek Empire and the Story of the Capture of Constantinople by The Turks, New York, 1968 , p. 149

صلاح محمد ضبيع ، المرجع السابق، ص٢٠٩-٢١٢ ، ٢٨٠ .

ويذكر لنا المؤرخ البيزنطى دوكاس Doukas أن أورخان هذا قد قتل ابان اقتحام العثمانيين للقسطنطينية، وذلك عندما قام باستبدال ملابسه بملابس أحد الرهبان، ثم قفز من أحد أبراج القسطنطينية إلى خارج المدينة، لكن بعض البحارة العثمانيين قاموا بأسره وحجزه مع الأسرى البيزنطيين فى احدى السفن العثمانية، وأراد أحد الأسرى البيزنطيين افتداء نفسه ، فاستدعى قبطان السفينة ، وأخبره بأمر أورخان Orhan، وأمر القائد العسكرى الأعلى الذى كان ضمن الأسرى. وبعد أن تعرف القبطان العثمانى على أورخان، قام بقطع رأسه، والابقاء على حياة القائد العسكرى الأعلى

انظر . "Decline and Fall of Byzantium" , pp. 232-233 . وانظر أيضًا :

Kritovoulos, "History of Mehmed. The Conqueror", pp. 74-75 .

حيث يذكر أن أورخان قفز من فوق السور فمات ، ثم قطع الجنود العثمانيون رأسه وقاموا بتقديمها إلى السلطان محمد الفاتح ، الذى كان متلهفًا على القبض عليه ، حيًا أو ميتًا. انظر أيضًا.

Runciman , Op. cit , p. 150 .

وأمر الامبراطور فى نفس ذلك اليوم- السادس من أبريل- بأن تشارك السفن الثلاث القادمه من تانا، وكذلك السفينتان اللتان تميزتا بطولهما فى المعركة . واتخذت السفن طريقها من المنطقة التى كانت قد رست فيها، واتجهت نحو اليابسة أو المكان المسمى Chinigo . وبلغ عدد المقاتلين على متن السفن الخمس، آلف رجل، غادروا سفنهم وهم مسلحين بشكل كامل ، ومنظمين جيداً ، وتقدم كل ربان برفقة بحارته، ورفرفرت الرايات أمامهم ، وتقدم القادة العسكريين أمام الربابنة ، وقدموا أنفسهم برفقة رجالهم إلى حضرة الامبراطور الأجل ، وقاموا بالاستفسار منه عن الأوامر الموجهة اليهم.

أصدر الامبراطور أوامره بأن يتوجهوا للدوران حول أسوار المدينة، حتى يراهم أعداؤنا الأتراك الكفرة ، وهم منظمين بشكل جيد ، ويدركوا أن هناك عدداً كبيراً من الرجال بالمدينة .

وبالفعل ، توجهوا للدوران حول أسوار المدينة، بطول السور الذى كان يعسكر جيش العدو على مسافة ستة أميال منه ، وبعد ذلك عاد الجميع إلى السفن، وتخلصوا من عتادهم الحربى، وعادت السفن إلى مرساها بالقرب من بيرا . وبعثت تلك القوات الكثير من مشاعر الارتياح والطمانينة لسكان المدينة، كما تسببت فى إحداث بعض المفاجاة للعدو.

في يوم التاسع من أبريل ، تمت مشاهدة الأتراك الوثنيين وهم يحضرون برفقة أسطولهم ، وجيشهم البرى، من أجل تحقيق هدفهم اللعين، وهو التدمير الكامل لمدينة القسطنطينية البائسة ، وبدأت الاستعدادات تتخذ مواقعها على جانب الميناء ، ولهذا السبب قمنا بوضع تسع من أضخم السفن بطول السلسلة التى امتدت عبر الميناء ، بحيث رصّت تلك السفن بطول السلسلة من القسطنطينية إلى بيرا، وكانت مسلحة ومنظمة بشكل جيد ، ومستعدة للدخول فى المعركة، بالإضافة إلى سفينة أخرى مجهزة كالأخريات، وكان بيان السفن وربابنتها كالتالى:

جورجى دوريا الجنوى بسفينة حمولتها	Botte ٢٥٠٠
جوان جستنان بسفينة حمولتها	Botte ١٢٠٠
سفينة تابعة لمدينة انكونا Ancona ، حمولتها	Botte ١٠٠٠
سفينة تابعة لامبراطور القسطنطينية ، حمولتها	Botte ١٠٠٠
سفينة زوان فانيير من كانديا Candia ، حمولتها	Botte ٨٠٠
سفينة تابعة لنيلاماتى من كانديا ، حمولتها	Botte ٨٠٠

جيرون كانديا بسفينة حمولتها ٧٠٠ Botte

جاتالوكا الجنوى بسفينة حمولتها ٨٠٠ Botte

سفينة أخرى من جنوا حمولتها ٦٠٠ Botte

· باليتجير الجنوى بسفينة حمولتها ٧٠٠ Botte

وفى داخل الميناء ، خلف السلسلة ، كانت هناك سبع عشرة سفينة قوية ومجهزة والسفن الثلاثة القادمة من تانا ، بالإضافة إلى السفينتين الخفيفتين القادمتين من البندقية وخمس سفن تابعة للامبراطور، وكانت السفن الأخيرة غير مسلحة، كما كان هناك بعض السفن الغارقة وغير المسلحة ، وذلك لاستخدامها من أجل الحماية فى حالة اطلاق النيران أو قذائف المدافع .

فى يوم الحادى عشر من أبريل ، قام السلطان بنصب مدفعه بالقرب من الأسوار عند الجزء الأضعف منها، وبدا أنه قد اقترب تماماً من تحقيق هدفه. وتم توزيع المدافع فى أربعة أماكن : ثلاثة مدافع تم نصبها بالقرب من قصر الامبراطور الأجلّ ، وثلاثة مدافع أخرى تم نصبها بالقرب من بوابة Pigi، ومدفعين عند باب Cressu، وأربعة مدافع أخرى عند بوابة القديس رومانوس St. Romano عند الجزء الأضعف من أسوار المدينة وكان أحد المدافع الأربعة التى تم نصبها عند البوابة الأخيرة ، يقوم بإطلاق قذائفه ، التى يبلغ وزن الواحدة منها حوالى ١٢٠٠ رطلاً ، ويبلغ محيطها ١٣ quarte[1]، وتسبب تلك القذيفة خسائر فادحة لدى ارتطامها بالأرض . وكان المدفع الثانى يطلق قذيفة يبلغ وزنها ٨٠٠ رطلاً ، ومحيطها ٩ quarte وكان هذان المدفعان هما أكبر مدافع الخان التركى. وتألفت المدافع الأخرى من مقاسات مختلفة ، بحيث تتراوح أوزان قذائفها ما بين ٥٠٠-٢٠٠ رطل ، وما دون ذلك .

١- الـ quatre حوالى ٦٩ بوصة مكعبة Cubic Inches حسب المقياس البريطانى للمواد الجافة والسائلة، كما يبلغ أيضاً حوالى ٦٧ بوصة مكعبة حسب المقياس الأمريكى للمواد الجافة . انظر:

Webester's New Collegiate Dictionary, Massachusetts , p 1329 (Weights and Measures) .

والحقيقة أن استخدام العثمانيين للمدافع كان له الاثر الاكبر فى اسقاط أسوار القسطنطينية، وخاصة ذلك المدفع الضخم الذى صنعه المهندس المجرى اوربان Urban الذى كان يعمل لدى الامبراطور البيزنطى =

وصل الأسطول التركى إلى ميناء القسطنطينية فيما بين الساعة الثانية والثالثة من يوم الثانى عشر من أبريل، وتوجه ناحية ساحل الأناضول ، الذى كان فى قبضة الأتراك لأنهم إذا ما اتجهوا مباشرة نحو ساحل القسطنطينية، فسوف يواجهون صعوبة كبيرة من قبل أسطولنا المسيحى .

= قسطنطين الحادى عشر، ثم فر إلى العثمانيين حيث حصل على راتب يبلغ أربعة أضعاف ما كان يحصل عليه فى القسطنطينية . وطلب محمد الفاتح من أربان أن يصنع له مدفعًا ضخمًا لامثيل له ، وفعلاً برّ أوربان بوعده خلال ثلاثة أشهر . وأمر الفاتح باعداد تجربة لاطلاق هذا المدفع الجبار، وبالفعل أحدثت قذيفة المدفع انفجاراً هائلاً ، وسمع انفجارها على بعد عشرة اميال ، وسقطت على مسافة ميل من المدفع ، وأحدثت فجوة فى الأرض عمقها ستة أقدام ونتيجة لما كان يمكن أن تحدثه عملية اطلاق قذيفة المدفع من رعب وهلع للسكان فى مدينة أدرنة –حيث تمت تجربة المدفع العملاق – فان السلطان أمر المنادين بأن يخبروا الناس بأنه سيحدث انفجار هائل ، وربما يؤدى إلى اجهاض النساء الحوامل، أو افقاد البعض للنطق خوفًا وهلعًا . انظر:
Doukas , Op. cit, pp. 200-201

وقام المؤرخ البيزنطى المعاصر دوكاس بوصف المدفع العملاق بأنه كالحيوان الخرافى الضخم Monster عن المدافع العثمانية ، والمدفع العملاق انظر المصادر المعاصرة التالية:

Kritovoulus, Op. cit, pp. 43-47 ; 51-53 ; Chalcocandylas , Op. cit . pp. 44-45 .

لكنه يذكر أن المهندس أوربان كان من إقليم داشيا Dacia برومانيا الحالية انظر أيضًا :

الذى ذكر أن مهندس المدفع كان من ألمانيا. Zorzi Dolfin, Op. cit , p. 127.

Riccherio, C, p. 119 ; Tedaldi, Op. cit , p. 3 ; Leonard of Chios, in , Op. cit pp. 17-18 , 20, 22 , Tursun Bey , op. cit, p. 47 ; Babinger , F , Op. cit , pp. 80-81 , 85-87-88, 89-91 .

انظر أيضًا : صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص٢٥٧ وكذلك . Schlumberger, Op. cit, pp. 84-88

Runciman , Op. cit, p. 78 , 116 .

وللدلالة على الآثار المدمرة التى الحقها المدفع العملاق بأسوار القسطنطينية ، قام أحد الباحثين المحدثين بتشبيهه بالنقبلة الذرية انظر: . Kielty, Op. cit., p. 125

وانظر أيضًا صورة المدفع العملاق عند عبد الرحمن فهمى: ابن اياس واستخدام الأسلحة النارية فى ضوء ما كتبه فى كتاب بدائع الزهور ، بحث مستخرج من كتاب ابن اياس (دراسات وبحوث) ، اشراف أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، ١٩٧٣ ، شكل (٨) .

وفى الساعة السابعة من نفس اليوم، وصل الأسطول التركى إلى المرسى المعروف باسم الأعمدة The Columns على مسافة ميلين من القسطنطينية فى اتجاه البحر الأسود، وقام الأسطول بالرسو فى تلك المنطقة ، وتصاعدت صيحات رجاله بطريقة عنيفة ، وتعالت أصوات الدفوف والصنج ، وهكذا امتلأت قلوب رجالنا على متن السفن، وأولئك الموجودين فى المدينة بالرعب والفزع .

كان الأسطول التركى يتألف من ١٤٥ سفينة من أنواع ، الشينية Galley (١) ، Fuste (٢) Parandarie(٣) و bregantini (٤)، فكان به ١٢ سفينة (شينية) مجهزة، ومن سبعين إلى ثمانين سفينة طويله من نوع Fuste ، ومن عشرين إلى خمس وعشرين سفينة من نوع Parandarie ، والسفن الباقية من نوع bregantini كذلك كان بالأسطول التركى سفينة ذات حمولة تبلغ ٢٠٠ botte ، حضرت من سينوبوليس Sinopolis (٥)، محملة بالأحجار من أجل قذائف المدافع ، وأيضاً بالحواجز والألواح الخشبية ، والذخائر اللازمة لامدادات جيشهم.

١- عن الشينيات Galleys ، انظر ما سبق، ص٨٣، هامش (١) .

٢- عن الـ Fuste انظر ما سبق ، ص٨٣ ، هامش (٢) .

٣- عن Paranderie . انظر ما سبق ، ص٨٣ ، هامش (٢) .

٤- استخدم نيقولو باربارو الأسماء الايطالية للتعريف بالسفن الحربية من ذلك bregantini للدلالة على سفينة بحاريين، انظر : خليفة محمد التليسى، قاموس ايطالى عربى، طرابلس، ١٩٨٢م، ص١٢٨ ، انظر أيضاً : قاموس عربى ايطالى، ايطالى عربى، لندن ، ١٩٨٩، ص١٢٤ .

وغالباً ما تعنى brigantini السفينة التى عرفت فى المصادر العربية باسم «الغراب» انظر:-

Dozy , R, Supplément Aux Dictionnaires Arabes, Tom, 2, Beyrouth, 1981 , pp. 204-205,

والغراب اسم من أسماء الشينى، حيث يذكر ذلك ابن مماتى. انظر كتاب قوانين الدواوين ، جمع وتحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ، ١٩٩١م، ص٣٤٠ ، انظر أيضاً : درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم، الاسكندرية، ١٩٧٤ ، ص١٠٤-١١٤ . حيث يتحدث عن الغراب والشينى Galley.

٥- اعتقد أن المقصود بها هى مدينة Sinope ، الميناء الرئيسى والمركز التجارى الهام على البحر الأسود، كانت ميناءً بيزنطياً هاماً ارتبط بعلاقات تجارية مع كريميا Crimea . وذلك قبل أن يقوم الأتراك السلاجقة فى القرن الثالث عشر الاستيلاء عليها، ثم عادت لبيزنطة ، قبل أن يستولى عليها الأتراك السلاجقة ثم العثمانيين فى القرنين الرابع عشر الميلادى . انظر . O. D. B. vol ,3, p. 1904

بعد أن قام الأسطول التركى بالرسو عند الأعمده ، لم تحدث تطورات أخرى خلال باقى اليوم، وكان الرجال يتحركون بهدوء ، ولم نكن نحن المسيحيون نعرف ما يفعل عدونا، فرفعنا درجة استعدادنا القتالى ليلاً ونهاراً، كذلك الأمر بالنسبة للسفن، والسلسلة الممدودة فى البحر، منتظرين مجيئهم لمهاجمتنا ساعة بعد أخرى، بينما ظل أسطولهم رابضاً عند الأعمدة .

قمنا بوضع ترتيبات معينة لمنع أعدائنا من القيام بهجوم ليلى أو نهارى مفاجئ ، وقررنا ضرورة وجود رجلين ، يقفان بالتبادل على أسوار بيرا، لمراقبة شروع الأسطول التركى فى التحرك نحونا. وإذا ما رأى المراقبان سفينة واحدة من نوع Fusta أو شينية ، أو bregantino وهى تقوم بالتحرك ، أو أية اشارات أو دلائل على تحرك أى Fusta ، فيجب عليهم الحضور فى الحال، واخبار ربان السفن القادمة من تانا باعتباره المسئول عن الميناء.

وإذا ما وصلت الربان معلومات بتحرك أية سفينة ، كان عليه أن يقوم بالنفخ فى نفير المعركة فى الحال، وكان على كل شخص أن يتفقد أسلحته وأن يكون مستعداً لنشوب القتال . أما أولئك الذين كانوا على متن السفن خلف السلسلة فكان عليهم ضرورة التسلح جيداً. واتخذنا مواقعنا فى انتظار هجوم الأسطول التركى طوال اليوم.

وكما هو واضح تماماً ، فقد كنا نعانى من المتاعب يومياً، وشعرنا بخوف كبير، كما ذكرت سابقاً، ولم نكن لنتخلى عن أسلحتنا ليلاً أو نهاراً، حتى وإن لم يقم اسطولهم بالتحرك، وحتى إذا لم تقم سفينة واحدة به بالتحرك، والاتجاه نحو أناتاليا Anatalia [١] أو باتجاه البحر الأسود ، للذهاب نحو قلعتهم المشيدة حديثاً [٢] .

وعلى الرغم من كل هذا، فلم يحضر أسطولهم لمهاجمتنا ، لكننا لم نقم بالتخلى عن أسلحتنا خشية هجومهم المباغت ليلاً أو نهاراً، وذلك خلال الفترة من الثانى عشر من أبريل، حتى التاسع والعشرين من مايو.

١- يقصد باربارو هنا سواحل الأناضول Anatolia. ولايعرف الباحث سبباً لترجمتها هكذا Anatalia ، علماً بأنها تكررت بالترجمة الصحيحة عدة مرات فى الكتاب انظر الصفحات (١٢٢ ، ١٤٦ ، ١٦٧) وربما كانت خطـاً مطبعياً. وتمتد سواحل هضبة الاناضول التركية فى شبه جزيرة آسيا الصغرى، إلى الشرق من خليج الاسكندرونة Iskanderun حتى البحر الأسود مكونة حوالى ثلاثة أخماس مساحة الأقاليم التركية انظر:

Webester's New Georgraphical Dictionary , p. 47 .

٢- يقصد باربارو قلعة الروملى حصار. (قاطعة الرقبة) .

جرت أحداث بسيطة سواء فى البحر أو على البر فى الفترة من الثانى عشر من أبريل ، حتى الثامن عشر من نفس الشهر، من ذلك سقوط القذائف المعتادة ليلاً ونهاراً، وبعض الاشتباكات التى قام بها الأتراك بشكل دائم مع الحراس الموجودين أعلى أسوار المدينة، حيث وصل الأتراك إلى أسفل الأسوار ، وهم يلتمسون القتال، وبشكل خاص جنودهم الانكشارية Janissaries(١) الذين مثّلوا جنود السلطان التركى نفسه، ولم يكن أحد منهم يهاب الموت، وكانوا مثل الأسود الضارية ، وإذا ما قتل واحد أو اثنين منهم، كان زملاؤه يحضرون فى الحال، ويخطفون جثث قتلاهم ، ويحملونها على أكتافهم ، كما لو كانوا يحملون خنزيراً ، فى روح عالية، ودون حذر، على الرغم من كونهم على مسافة قريبة من أسوار المدينة .

١- الانكشارية Janissaries هم مشاة الجيش النظامى العثمانى، والطائفة الممتازة فى الجيش الذى كان يعرف باسم القابيقولية (الجيش النظامى الذى يضم الخيالة والمشاة) . وقبل تأسيس الانكشارية ، أى قبل عصر مراد الأول، لم يكن للعثمانيين جيش نظامى. ودعت الحاجة إلى وجود جيش قوى منظم على غرار السلاجقة. فتقرر تأسيس هذا الجيش ، وتشكيل فرقة لتغذيته بالعناصر اللازمة التى عرفت باسم (عجمى أو جاغى) . وليس معروفًا على وجه التحديد تاريخ تأسيس هذا الجيش. وإن كان من المحقق أنه تأسس فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى ، عقب فتح أدرنة . وترجح العديد من الروايات الكلاسيكية التى لايمكن التأكد منها، وكذا الكثير من قوانين الانكشارية أن تأسيس هذا الجيش كان فى العام ١٣٦٢م. انظر:

Midhat Sertoglu , Osmanli Tarih Lügati , 2. Baski , Istanbul, 1986 , p 365 .

وعن دور جنود الانكشارية فى فتح القسطنطينية انظر المصادر الآتية :

ويصفهم بأنهم لابسى العمامات البيضاء الشجعان Tursun Bey , Op. cit, pp. 48-49 , 57 .

ويذكر أنهم كانوا يرتدون العمامات البيضاء. Chalcocondylas, Op. cit, pp. 43, 45 .

لكنه يخلط بين الانكشارية والعزبان. Doukas, Op. cit, p. 128 ; Leonard of Chios, Op. cit , p. 15

وكان خمس الأسرى يؤخذ لخزينة الدولة، ويرسل الباقى إلى الانكشارية (عجمى أو جاغى) فى غاليبولى، بعد تعليمهم اللغة التركية، ومبادئ الإسلام من خلال عملهم لدى القرويين الأتراك. وبعد الانتهاء من فتح القسطنطينية ١٤٥٣م، تأسست فرقة أخرى من الانكشارية فى العاصمة الجديدة، لتستقبل أيضًا أسرى الحرب، والدوشرمة Devsirme (أبناء النصارى)، وبعد تدريب أولئك المبتدئين لمدة ست أو سبع سنوات على الأقل، يؤخذ منهم عدد معين للانكشارية ولم يكن لطائفة الانكشارية حين تأسيسها علاقة بالطريقة البكتاشية=

وقام رجالنا بتصويب بنادقهم تجاه الأتراك، وكذلك رميهم بالسهام ، فكانوا يسددون الطلقات على الجندى التركى الذى يقوم بنقل جثة رفيقه، مما كان يؤدى إلى سقوط كليهما صريعًا على الأرض . وعلى الرغم من هذا ، فكان الأتراك يحضرون ثانية ، ويقومون بنقل جثثهم بعيداً ، دون خوف من الموت، فقد كانوا يفضلون أن يتم قتل عشرة منهم عن معاناة العار الذى سيلحق بهم إذا ما تركوا جثة تركية واحدة عند الأسوار.

وفى الساعة الثانية من ليلة الثامن عشر من أبريل ، اتجه عدد كبير من الجنود الأتراك باتجاه الأسوار، واستمرت المناوشات بينهم وبين البيزنطيين حتى الساعة السادسة . وقتل العديد من الأتراك، الذين كانوا قد حضروا فى ظلمة الليل فى ذلك القتال، فلم يتوقع رجالنا هجومهم المفاجئ ، كما أننى لا أستطيع أن أصف الصيحات التى أطلقها الأتراك عند الأسوار، وكمية الصخب والجلبة التى قاموا بها، كل هذا ساهم فى الايحاء بضخامة عددهم ، بشكل أكبر من عددهم الحقيقى، وكانت صيحاتهم قوية، لدرجة أنها وصلت بعيداً حتى أناضوليا Anatolia، على مسافة ١٢ ميلاً عن معسكرهم .

وفى الوقت الذى انتشرت فيه الصيحات الصاخبة والضجة الهائلة للاتراك ، كان الامبراطور الحزين يندب حظه، مخافة أن يقوم الأتراك بهجومهم الكبير فى تلك الليلة، لأن المسيحيين لم يكونوا مستعدين للصمود والمقاومة أمامهم . وقد سبب له هذا الكثير من الحزن والأسى ، ولم يسمح الرب الخالد بحدوث صدمة كبرى، وعار مخز ذلك الوقت .

= لكنهم واعتباراً من القرن الخامس عشر الميلادى، اعتبروا أنفسهم من أتباع الحاج بكتاش، وتسموا بطائفة بكتاشيان . وكان هؤلاء الانكشارية يتمتعون بامتيازات خاصة ، فكانوا يحاكمون ويعاقبون على ما يقترفونه داخل الفرقه، ومن يستحق منهم الاعدام، كان يجرى اعدامه سراً . وحققت الانكشارية انتصارات عظيمة للدولة العثمانية . وتدهورت أحوال تلك الفرقة فى وقت متأخر، حتى قضى عليها السلطان محمود الثانى ١٨٢٦م فيما عرف باسم «الواقعة الخيرية» عن ذلك انظر:

Medhat Sertoglu , Op. cit, pp. 365-366

وانظر أيضاً: Goodwun, G, The Jannissarıes ", London, 1997 .

خاصة الفصل الأول : "The Ongins of The Janissary Gorps", pp. 19-31 .

وعند الساعة السادسة من الليل سيطر الهدوء على جبهة القتال، ولحق بالوثنيين عار كبير وخسارة فادحة، إذ قتل منهم ما يزيد على مائتى رجل، وبتوفيق وعناية من الرب. لم يُقتل أىّ من رجالنا أو حتى يصاب بجرح (١).

فى الساعة الثالثة من يوم العشرين من أبريل . لاحت لنا أربع سفن وصلت إلى الدردنيل Dardanelles قادمة من غرب أوربا. واعتقد الجميع أن تلك السفن تخص مدينة جنوا ، وحضرت لتقديم المساعدة للقسطنطينية ، وذلك بموجب الأمر الذى كان الامبراطور الأجلّ قد أصدره للجنوية، بأن كل سفينة تحضر من جنوا لمساعدة القسطنطينية ، سوف تنال اعفاءً تامًا من آية ضرائب يتوجب دفعها للامبراطور، بصرف النظر عن أنواع السلع والبضائع الموجودة على متنها .

كانت تلك السفن الأربع قد أبحرت بمساعدة الرياح الجنوبية ، لتصل إلى موقع قريب من القسطنطينية ، تلك المدينة التى تشعر الآن بالهّم والقلق طبقًا لمشيئة الرب، فقد توقفت الريح فجأة ، بينما كانت السفن قد اقتربت للغاية من القسطنطينية ، حيث وجدت نفسها فى حالة سكون تام . وبينما كانت السفن لاتراوح مكانها بسبب انعدام الرياح، فقد تحرك أسطول محمد بك التركى، عدو الدين المسيحى، بنشاط كبير من موقعه عند الأعمدة ، وأبحر مع صيحات رجاله وصخبهم . وأخذوا فى التجديف بأقصى سرعة باتجاه تلك السفن الأربع . وكانوا كالرجال المتلهفين على غزو أعدائهم .

إلاّ أن صلواتهم إلى محمد لم تكن (٢) كافية ، لتجلب لهم النصر ، بينما استمع ربنا الخالد إلى صلواتنا ، نحن المسيحيين، فانتصرنا فى تلك المعركة ، كما ستعرفون فيما يلى .

١- من الواضح أن هناك مبالغة كبرى من قبل باربارو فى تقدير أعداد القتلى الاتراك ، كذلك فى ذكره لعدم مقتل أو حتى اصابة أى جندى بيزنطى أو لاتينى .

٢- ذكر ليونارد الخيوسى وصول تلك السفن الأربع من جزيرة خيوس Chios ، كما ذكر أنها تألفت من ثلاث سفن جنوية تحمل الأسلحة والامدادات الغذائية ، بالإضافة إلى سفينة تخص الامبراطور البيزنطى ، قدمت من صقليه Sicily محملة بالقمح . انظر: Leonard of Chios , Op. cit , p. 21 .

وانظر كذلك Doukas , Op. cit, p. 85 . أما المؤرخ العثمانى طورسن بك فيذكر وصول سفينتين تتسمان بالضخامة ، كل منهما تشبه سفينة نوح فى الاتساع حسب قوله ، تحملان الأسلحة والامدادات العسكرية والغذائية لأهل القسطنطينية انظر: Tursun Bey , Op. cit . cit , p. 53 .

٣- الترجمة الحرفية هنا هى (.. ولم تكن صلواتهم إلى محمد هم Thier Mahmet كافية ...)، ويخطئ باربارو هنا فى فهمه للإسلام والمسلمين ، فلم تكن صلوات العثمانيين تتجه إلى الرسول محمد -صلعم-=

بينما كانت السفن الأوربية تفرد أشرعتها، وتقف فى سكون تام. نتيجة لتوقف الرياح ، بدأ الأسطول التركى فى التحرك باتجاهها، وفى همة شديدة ، قام قائد الأسطول التركى بمهاجمة مؤخرة Stern سفينة إمبراطور القسطنطينية . بينما قامت باقى سفن الأسطول ، بكل ما يمكنها من قوة ، بمهاجمة تلك السفن الأربعة . ونظراً لأن سفينة قائد الأسطول التركى لم تحرك كبشها Ram من مؤخرة سفينة الامبراطور؛ فقد استمرت بالضغط بقوة ، وكذلك فعلت باقى سفن الأسطول التركى، وتم حصار السفن الأربع كل منها بخمس سفن ، بخلاف وجود ثلاثين Fuste وحوالى أربعين Parandaric وهكذا كان الدردنيل مغطى بالسفن المسلحة ، وأمكن رؤية المياه بصعوبة شديدة بسبب كثرة سفن الأتراك (١).

استمرت المعركة ما بين ساعتين إلى ثلاث ساعات ، وفى بداية الأمر ، لم يستطع أى من الطرفين تحقيق النصر، لكن سفننا الأربعة المسيحية حازت فى النهاية على الشرف الكبير، لأنها تفوقت على ١٤٥ سفينه تركية ، ونجت من هجومها . بعد أن حاربت بأسلوب فرضه وقوفها ساكنة بسبب انقطاع الرياح ، ثم توجهت للرسو بالقرب من مدينة القسطنطينية (٢).

شعر رجالنا على الأسطول بالخوف الشديد خشية مهاجمتهم ليلاً ، فقد كانت الليلة ظلماء، واتخذنا خطوات لمساعدة تلك السفن . فتم ارسال كابرييل تريفيكسان ، قائد السفينتين الخفيفتين ، برفقة سفينة زكريا جريونى الفارس، وأبحرا خارج سلسلة ميناء القسطنطينية بنشاط كبير، وقاما باطلاق أصوات الأبواق فضلاً عن الصيحات العالية للبحارة لترك انطباع لدى أعدائنا بكثرة أعدادهم، وأنهم على متن سفن متعددة ، أكثر مما هم عليه فى الواقع .

= لكنها اتجهت إلى الله . ونظراً لمكانة النبى عيسى فى أذهان المسيحيين الكاثوليك الذين يعبر باربارو عن أفكارهم، من حيث كونه نبيًا وإلهًا فى نفس الوقت . فقد اختلط عليه الأمر، وتصور أن النبى محمد- صلعم- يحتل نفس المكانة المزدوجة فى الدين الإسلامى، وهو الأمر غير الصحيح .

١- الترجمة الحرفية لهذه الجملة «... بسبب كثرة سفن تلك الكلاب الشريرة» .

٢- تناول المؤرخ البيزنطى المعاصر كريتوفوليس Kritovoulus هذه المعركة بالتفصيل الشديد . انظر "History of Mehmed The Conqueror", pp. 53-55 .

انظر كذلك رواية المؤرخ البيزنطى المعاصر دوكاس Doukas لهذه المعركة بالتفصيل أيضاً، الذى قدّر عدد السفن العثمانية بثلاثمائة سفينة، والسفن المسيحية بخمس سفن ، وهو مالايتسق مع المنطق. انظر:

"Byzantine History", p. 84 ; Nicol , " The Last Centuries of Byzantium p. 403 .

كان فى كل سفينة بوقين أو ثلاثة ، ولهذا السبب بدا أن عدد السفن يبلغ عشرين سفينة على الأقل . وعندما سمع الأتراك تلك الضجة ، وذلك الصخب، أصابهم الفزع ، وقامت بعدها سفينتينا بقطر السفن الأربعة بأمان إلى داخل ميناء القسطنطينية(١).

أما الأسطول التركى، فقد ظل فى مكانه عند الأعمدة ، لأن الأتراك اعتقدوا أن جميع سفننا سوف تبحر لمواجهتهم .

فى اليوم التالى ، الواحد والعشرين من أبريل ، انتقل السلطان التركى من موقعة القريب من أسوار القسطنطينية ، وامتطى صهوة جواده ، وبرفقته عشرة آلاف من فرسانه ، وحضر إلى مكان الأعمدة، حيث يرسو أسطوله ، لكى يبحث عن السبب الذى جعل قائده البحرى لايتمكن ، رغم سفنه العديدة، من أسر السفن الأربعة (٢).

عندما وصل السلطان التركى تجاه الأسطول، أمر بضرورة احضار القائد البحرى إلى الساحل ، لكى يمثل أمامه، وكان السلطان التركى الكافر يمتلئ غضبًا على قائده البحرى، فبادره قائلاً ، «يا من خنت دين محمد، وقمت بخيانتى أيضًا ، أنا ، سيدك، لماذا لم تتمكن من أسر تلك السفن الأربعة المسيحية ، وتحت قيادتك كل تلك السفن، ألم تكن تستطيع أن تفعل ذلك بسهولة ، وبهدوء تام ؟ إذا لم تستطع القيام بأسرهم، فكيف تتوقع أن تقوم بأسر الأسطول الراسى فى ميناء القسطنطينية ؟».

١- تذكر بعض المصادر المعاصرة أن محمد الفاتح كان يراقب المعركة عن كثب، وعندما أدرك فشل الأسطول التركى فى أسر السفن المسيحية الأربع ، ونجاحها فى دخول ميناء القسطنطينية ، تميز غيظًا لذلك واندفع على صهوة جواده داخل مياه البحر يبغى الاشتراك فى المعركة ، وأنه كان يسب ويلعن ، ويمزق رداءه وهو فى حالة من الغيظ والغضب الشديد. عن ذلك انظر:

Krituvoulus, Op. cit, p 54; Daukas, Op. cit, p. 84; Leonard of Chios, Op. cit, pp. 21-22 .

٢- التمس المؤرخ العثمانى المعاصر طورسون بك Tursun Bey العذر لقائد الأسطول العثمانى بلطه أو علو سليمان بك Balta - öglu Süleyman Beg ، حيث ذكر فى كتابه «.. ماذا يفصل شخص واحد ولو كان أسدًا أمام بلد كامل ، لم يتيسر النصر .. وفتح الكفار باب الميناء (فى اشارة إلى سلسلة الميناء) وادخلوهما انظر. Tarih- ı Ebul - Feth", p. 53 ,

كما يذكر أن تلك الهزيمة سببت توترًا وقلقًا للعثمانيين، لكنه يستدرك معتمدًا على آيات القرآن الكريم «وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم» (سورة البقرة- آية ٢١٦) .

أجابه القائد البحرى قائلاً ، «سيدى، انظر بعينيك ، ثم بعدها سوف يمكنك أن تصدق بقلبك بأن ذلك قد حدث ، لاتندفع فى غضبك الشديد تجاهى، لقد رأيت بعينيك أنه قتل على سفينتى فقط ١٥٠ من المسلمين[١]، إبان القتال ضد المسيحيين ، كما أنك تعرف ، ولابد أن الجميع قد شاهدوا اننى استخدمت كبش Ram سفينتى ، وغرستها فى مؤخرة سفينة الامبراطور ، ولم أدعها ترحل ، وحاربت بشجاعة طوال الوقت ، وإن ما حدث كان واضحًا للعيان ، وقتل العديد من رجالى على متن السفن الأخرى، الـ Fuste والـ Parandarie وغرقت سفن Bregantini . وفيما يتعلق بى، فقد حاولت قدر استطاعتى ، ولذلك – سيدى– فاننى أتوسل إليك، أن تغفر لى، والاتّحنق علىّ» .

وكان السلطان يبدو كرجل تملكته الأفكار الشريرة ، فاظهر نية سيئة تجاه قائده البحرى، وقال له فى هدوء وبدون انفعال «أيها الخائن، سوف أقوم بقطع رأسك بنفسى» .

وتمكن القائد البحرى فى النهاية، عبر استخدامه لكلمات وعبارات مناسبة من اقناع سيده بالابقاء على حياته، وتمكن من الافلات من نوبة الغضب الشديد التى اجتاحت سيده.

لكن السلطان التركى قام باقالته من قيادة الأسطول البحرى. وبعد ذلك تقدم ابن الرجل الذى كان قائدًا للأسطول (التركى) فى زمن بييرو لوريدان Piero Loredan ، عندما تمت هزيمة والد السلطان الحالى[٢]. لشغل منصب قائد الأسطول ، وقال للسلطان «سيدى ، إذا ما قمت بتسليمى قيادة أسطولك البحرى ، من أجل مهاجمة المسيحيين، فاننى أعدك الآن أن أقدم لك كامل الأسطول المسيحى مستسلمًا بين يديك، وأن أقوم بالانتقام لوالدى . وإذا لم أستطع تحقيق ما وعدتك به ، فاننى أقول – وبلا مقدمات– أنه يمكنك أن تأمر بقطع رأسى».

استحسن السلطان التركى كلماته ، وقام بتعيينه قائدًا عامًا على الأسطول، ومنحه عصا القيادة فى يده ، وقدم له سلطات واسعة كما لو كانت للسلطان نفسه، فى عمليات تعيين واستبعاد قادة السفن.

ويمكننا الآن أن نترك ما جرى من أحداث فى البحر، ونتحول لما جرى عند أسوار المدينة، فطوال ذلك اليوم، الواحد والعشرين من أبريل، كانت القذائف تتساقط كالعادة عند أسوار بوابة القديس رومانوس . كدرجة أن البرج قد انهار على الأرض ، على بعد ياردات من السور نتيجة لعنف القذائف.

١– الترجمة الحرفية لهذه الجملة «.. قتل على سفينتى فقط ١٥٠ رجلاً من أتباع محمد – صلعم– ...» .

٢– يقصد انتصار البنادقة على أسطول السلطان مراد الثانى .

جرى ذلك فى الوقت الذى شعر فيه كافة سكان المدينة، والذين على متن الأسطول بالخوف، والفزع ، خشية قيام الأتراك بالهجوم الكبير والنهائى فى ذلك اليوم .

وكان هناك اعتقاد عام بأنه سوف يمكن رؤية العمائم Turbans التركية، داخل أسوار المدينة خلال وقت قصير . لكن ربنا الرحيم، يسوع المسيح، الممتلئ شفقة وعطفًا علينا . أراد أن يؤخر النهاية ، من أجل أن تتحقق النبوءة ، التى جاءت من قِبل، قسطنطين ، ابن القديسة هيلينا ، عندما كان امبراطورًا على القسطنطينية (١).

١- الواقع أن الكتابات اللاتينية امتلأت منذ عدة قرون بالإشارة إلى نبوءات تتحدث عن سقوط القسطنطينية فى أيدى أعدائها ، سواء أكانوا من اللاتين القادمين من الغرب، أو الأتراك القادمين من الشرق، من ذلك ما ذكره المؤرخون اللاتين . روبرت كلارى ، وفلها ردوين بعد نجاح الحمله الصليبيه الرابعة فى الاستيلاء على القسطنطينية ١٢٠٤م، حيث ذكرا وجود عمودين بالقسطنطينية عاش الرهبان والنساك فى قلايات أعلاهما، ونقش على جدرانهما صور وتهاويل، ونبوءة بكل ما سيجرى للقسطنطينية من أحداث ، وكان استيلاء اللاتين على المدينة مدونًا عليهما ، وكذلك السفن التى استخدموها كانت مرسومة أيضًا عليهما . بالإضافة إلى سطور مكتوبة تذكر «أن قومًا قصار الشعر بأسياف حديدية ، سيأتون من الغرب لغزو القسطنطينية». انظر: روبرت كلارى «فتح القسطنطينية على أيدى الصليبيين»، ص١٣١-١٣٢ ، فلهاردوين «فتح القسطنطينية» ص١٤٧-١٤٨ .

أما نيقولو باربارو فيشير هنا إلى ما يزعم أنها النبوءة الأولى حول سقوط القسطنطينية والتى قال بها الامبراطور قسطنطين العظيم Constantine The Great (٣٠٦-٣٣٧)م مؤسس القسطنطينية وابن القديسة هيلينا Helena ، والتى ذكرها باربارو فيما بعد بالتفصيل ، حيث أشار إلى أن الأمبراطور قسطنطين كان على صهوة جواده، وسير بالقرب من العمود الكائن بالقرب من كنيسة أيا صوفيا ، وأشار بيده شرقًا باتجاه الأناضول Anatolia حيث تقع الأراضى التركية قائلاً «أن الشخص الذى سيقضى علىّ ، سوف يأتى من هذا الاتجاه» . انظر ما يلى ص١٦٧ .

كذلك أشار باربارو أيضًا إلى نبوءة قديمة تذكر أنه عندما يُحدث القمر علامة فى السماء، ويحتجب بينما تكون السماء صافية تمامًا ، ثم يبدأ حجم القمر فى الازدياد حتى يكوّن دائرة كاملة . فإن ذلك يعنى أن القسطنطينية سوف تسقط آنذاك. انظر ما يلى ص١٤٩، ١٥٩-١٦٠ .

كما يذكر ليونارد الخيوسى Leonard of Chios نبوءات قديمة حول سقوط القسطنطينية مثل ما ذكره موروسينى Tomaso Morosini كبير الأساقفة اللاتين فى القسطنطينية (١٢٠٤-١٢١١م) من أن الجنس الذى يحمل الحراب سوف يتقدم إلى مواجهة القسطنطينية، ويستولى على مينائها الشهير ، حيث تتم ابادة الجنس البيزنطى .

كذلك يشير ليونارد الخيوسى إلى نبوءة الكاهن والعراف Oracle الذى كان موجودًا فى منطقة Eryth-raea ببلاد اليونان حول سقوط القسطنطينية ، كما لجأ ليونارد أيضًا إلى نبوءة الأب يواقيم Joachim حول سقوط القسطنطينية عندما كتب «.. وأسفاه عليك ، تلك المدينة المشيدة فوق تلال سبع، صاحبة الأيدى المبتورة، محرومة من المساعدة» انظر: Leonard of Chios , 1453 ", p. 15 .

كان قد جرى تدمير جزء كبير من السور بفضل قذائف المدافع، واعتبر كل شخص نفسه مفقودًا ، وساد اعتقاد أنه خلال بضعة أيام، سوف يسقط هذا الجزء من السور مثل ذلك الذى سقط سابقًا .

وفى الحقيقة ، فإنه يمكننى ابلاغكم بأنه إذا ما هاجم الأتراك الأسوار بعشرة آلاف رجل فقط ذلك اليوم ، كانوا سينجحون - بدون شك- فى دخول المدينة ، والاستيلاء عليها ، وكنّا سنفقدها بسهولة ويسر.

لكن وكما يحدث عادة فى كل منطقة من العالم ، فإن هناك رجالاً بواسل، مليئين بالشجاعة، كان بعضهم موجودًا فى القسطنطينية ذلك الوقت ، هم النبلاء البنادقة الذين كانت روحهم المعنوية مرتفعة للغاية عن المدافعين البيزنطيين ، فقاموا باجراء ترميمات قوية للأسوار التى جرى تدميرها، وتم ذلك عبر استخدام البراميل المليئة بالصخور والرمال ، وخلف الأسوار كان هناك قناة عريضة ، تمت تغطيتها بفروع أشجار الكروم، والأغصان التى تم غمرها بالمياه لتكتسب صلابة من أجل أن تكون قوية كجزء من السور تمامًا . ولم تعد هناك حاجة فى تلك المنطقة بعد ذلك للخوف المبالغ فيه من الأتراك.

= وفى تصوّرى أن ليونارد الخيوسى كان يقصد الأب يواقيم من فيورى Joachim of Fiore (١١٤٥-١٢٠٢م) ، الذى كان من الرهبان السسترشان ، وترجع شهرته البالغة إلى قدرته على التنبؤ الملهم . وكان يعكف لساعات طويلة على قراءة كتابات يوحنا - سفر الرؤيا والانجيل الرابع- واعتقد يواقيم أنه نفذ إلى الحقائق السرية المخبوءة وراء الكتابات المقدسة. عن الاب يواقيم انظر: موريس كين ، حضارة أوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة ، ٢٠٠٠م، ص١٤٦-١٤٧ .

كذلك تعرض المؤرخ البيزنطى المعاصر دوكاس Doukas لمسألة النبوءات الخاصة بسقوط القسطنطينية فى أيدى الأتراك، فذكر أنه ابّان اقتحام العثمانيين للمدينة ، وبعد أن أصبح «العدو الآن داخل أسوار القسطنطينية، ويقوم بقتل البيزنطيين» التجأ كافة سكان القسطنطينية إلى كنيسة أياصوفيا . ويتساءل دوكاس عن السبب الذى جعلهم يفرون باتجاه الكنيسة ، فيذكر أنهم سمعوا منذ وقت بعيد من الكهنة والعرافين المزعومين أن القسطنطينية سوف تسقط، فى أيدى الأتراك العثمانيين بعد أن يقوم جنودهم باقتحامها، وأن الجنود البيزنطيين سوف يتهاوون تحت ضربات سيوفهم . لكن دوكاس يذكر- ربما فى محاولة يائسة لتغيير الأمر الواقع- أن البيزنطيين الهاربين عندما يصلون إلى عمود قسطنطين العظيم ويجعلوه خلفهم، فإن ملاكًا سوف يهبط من السماء، شاهرًا سيفه ليخلص الامبراطورية البيزنطية ، ثم يقوم بتقديمه إلى أحد الرجال الفقراء والبسطاء قائلاً له «تناول هذا السيف، واثأر لشعب الرب». وبهذا سوف يتمكن البيزنطيون من هزيمة الأتراك وطردهم خارج القسطنطينية، ودفعهم إلى بلاد فارس ، حيث المكان المسمى Monodendnon .

انظر : "Decline and Fall of Byzantium", pp. 226

لم يتوقف أولئك الأتراك الأشرار ، طوال ساعات النهار والليل، عن قذف بوابة القديس رومانوس بكامل قوتهم ، فى نفس المنطقة التى تم اجراء الترميمات والاصلاحات بها، وتركزت ضرباتهم عليها بواسطة قذائف مدفعهم الضخم، الذى كان محيط قذيفته يبلغ ١٥ راحة يد Palme (١)، وكذلك من مدافعهم الأخرى، وأيضًا من العدد الضخم من البنادق، والسهام التى لاحصر لها . وكذلك البنادق اليدوية التى استمرت فى اطلاق نيرانها على أولئك الذين قاموا بأعمال الاصلاح والترميم .

وكانت الأرض غير واضحة تمامًا ، ومغّطاة بالأتراك ، وبشكل خاص بالانكشارية ، الذين كانوا أشرس الجنود الأتراك، وكذلك امتلأ الميدان بأعداد كبيرة من عبيد السلطان، الذين ميزتهم عماماتهم البيضاء ، بينما كان الأتراك العاديون يرتدون العمائم الحمراء، وتمت دعوتهم بالعزبان Axapi (٢). وفى ذلك اليوم، لم تجر أية أحداث فى المناطق الأخرى.

١- يذكر ليو الخيوسى أن محيط الحجر / القذيفة التى يطلقها هذا المدفع تبلغ ١١ راحة يد . انظر :

Leonard of Chios, op. cit , p. 17 .

٢- لعبت الجنود المعروفة بالعزبان Axapi، Azabs دوراً هامًا فى فتح القسطنطينية تحت قيادة السلطان محمد الفاتح ، وكان أفرادها يرتدون العمائم الحمراء ، انظر: . Tursun Bey , Op. cit , pp. 49-50

حيث يذكر أن سهام العزبان كانت «تمزق الصدر وتخرق القلب وتأخذ الروح» . ولاتجدى الدروع أو الخوذات فى الوقاية منها. وكان أفرادها يشبهون «القلعة الحمراء» ، وكان العزبان يؤلفون ميمنة وميسرة الجيش العثمانى، انظر كذلك Chalcocondylas , Op. cit , p. 45

حيث يصفهم بأنهم أصحاب العمامات الحمراء ، ومع أنه لم يذكرهم بالاسم، لكنه فرق بينهم وبين الانكشارية حيث ذكر « ... قام الانكشارية، وباقى أفراد الجيش العثمانى ، وهم يرتدون أغطية الرأس البيضاء، والحمراء، باعداد الملاجئ والمخابئ ...»

أنظر أيضًا : Midhat Sertoglu; Osmanlı Tarih Lûgati, 2 . Baski , Istanbul . 1986 , p. 26.

الذى يذكر أن العزب: تعنى الرجل غير المتزوج أو الذى لم يتزوج بعد، وقد اطلق هذا الاسم على الجند الذين كانوا فى خدمة الأسطول العثمانى فى إمارات الأناضول . كما أطلق على طائفة المشاة (البيادة) من جنود الولايات عند العثمانيين . وقد ظلت هذه الطائفة تستخدم حتى النصف الأول من القرن السادس عشر، وبالإضافة هؤلاء كانت هناك طائفة أخرى من العزب تستخدم فى حراسة القلاع مع قرنائهم الذين كانوا يخدمون فى =

فى الثانى والعشرين من أبريل ، أعمل السلطان فكره، ورأى أنه - على الرغم من كل ماجرى- فلم يسبب أية خسائر تذكر فى الأسوار البرية، مع أنه قد حاول إحداث ذلك بكل قوته، ولهذا فإن الوثنى الشرير، قام بوضع خطة تقضى بأن يرسل جزءًا من أسطوله البحرى، الذى كان راسيًا عند الأعمدة، إلى داخل ميناء القسطنطينية ، ومن أجل تحقيق هدفه الشرير، وحتى يمكنكم معرفة كيف قام بتنفيذ خطته(١) ، سوف أقوم بقصها عليكم كالتالى (٢).

نظرًا لأن السلطان قد انتوى الاستيلاء على القسطنطينية بشكل نهائى ، فقد كان يحتاج إلى أن يُنفذ أسطوله إلى داخل الميناء. وبينما كان الأسطول راسيًا عند الأعمدة على مسافة ميلين من المدينة ، أمر السلطان بضرورة حضور جميع البحارة إلى الساحل .

وكان التل الواقع أعلى مدينة بيرا واضحًا ، ويبدأ من الساحل ، وكانت المسافة ما بين الأعمدة حيث يربض الأسطول والميناء تبلغ ثلاثة أميال. ثم قام الأتراك بتسوية الطريق وتمهيده، ووضعوا به عددًا ضخمًا من البكرات Rollers التى جرى تشحيمها جيدًا بالدهون والشحوم ، حتى يمكنها أن تقوم بسحب بعض السفن إلى الميناء .

وبدأ الأتراك فى جر وسحب سفن الـ Fusta الصغيرة ، بوضعها على البكرات، وقاموا بسحبها فى وقت قصير جدًا إلى حوض الميناء Basin فى بيرا. وعندما رأى الأتراك أن الخطة قد جرى تنفيذها بشكل جيد ، أقدموا على سحب العديد من السفن التى كانت تحوى من خمسة عشر مقعدًا إلى عشرين أو اثنين وعشرين مقعدًا للمجدفين.

= الترسانة العثمانية ، وكانت هذه الطائفة من المشاة العزّب الذين يسكنون القلاع، وكان الخيالة منهم يعرفون باسم فارسن (Farisön) ، وكان قسم من هذه الطائفة من ذوى الرواتب والقسم الآخر من أصحاب التيمار، ويمكن لذوى الرواتب الترقى إلى أصحاب التيمار إذ استحقوا ذلك . وكان عزب البحرية ، وهم قسم من العاملين فى الترسانة ، يتولون المهام الرئيسية فى الأسطول العثمانى، وهؤلاء من الترك وليسوا من الدوشيرمة (أبناء النصارى) .

١- الترجمة الحرفية لهذه الجملة «كيف قام هذا الكلب بتنفيذ خطته».

١- ملاحظة هامشية قام شخص مسيحى بإسداء هذه النصيحة إليه. (الترجمة الإنجليزية)

ويعتبر باربارو هو المصدر التاريخى الوحيد الذى يذكر هذا ، دون أن يحدد شخصية ذلك المسيحى، مما يجعلنا نعتبرها محاولة منه لتجريد محمد الفاتح من شرف ابداع هذه الفكرة العبقرية، ومن مجد ذلك الانجاز التاريخى .

لم يكن لأحد أن يعتقد بأن في امكان الأتراك(١)، أن يقوموا بجر وسحب السفن عبر التل . حيث قاموا بعد ذلك بجر وسحب ٧٢ Fuste إلى حوض السفن في القرن الذهبي، وبالتالى جعلوا لأنفسهم حضوراً قوياً هناك ، علاوة على كونهم مسلحين جيداً ، ومنظمين تماماً (٢).

يمكنكم أن تكونوا واثقين أنه عندما شاهد رجالنا على متن الأسطول ، تلك السفن التركية شعروا بفزع كبير ، خشية أن تتسلل فى احد الليالى لمهاجمة أسطولنا ، بالإضافة إلى خوفهم

١- الترجمة الحرفية لهذه الجملة هي «.. فى إمكان أولئك الكلاب».

٢- يذكر المؤرخ التركى المعاصر طورسون بك، أن السلطان محمد الفاتح لم يستطع الدخول بسفنه من سلسلة الميناء، فأمر بسحب وجر السفن العثمانية براً خلف غلطه ، وانزالها إلى القرن الذهبى فى عملية عسكرية رائعة ، بواسطة العديد من المهندسين والملاحين ، وعبر فرد أشرعة السفن، حيث سارت السفن على البر وكأنها تمخر عباب البحر. ويستخدم طورسون بك بلاغته بشكل كبير فيذكر عن السفن أنهم «... ربما طيّروها» «وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره» (سورة ابراهيم، آية ٣٢) انظر : Tursun Beg , Op. cit, p. 52 .

كما تناولت كافة المصادر البيزنطية واللاتينية المعاصرة، تلك الخطه العسكرية العبقرية ، التى قام بتنفيذها محمد الفاتح وأظهرت اعجاباً ودهشة كبيرة بها انظر:

Kritovoulus, Op. cit , pp 55-58 , Doukas, Op. cit, pp. 85-86 .

حيث يشبه خطة محمد الفاتح بخطة الملك الفارسى اكسرخسز Xerxes ، الذى عبر البوسفور Hellespont لغرو اليونان قبل أن يقوموا بهزيمته فى العام ٤٨٠ ق.م عن الملك اكسرخسز وحربه مع اليونان. انظر : حسين بيرنيا ، مشير الدولة، تاريخ ايران القديم من البدايه حتى نهاية العصر الساسانى ، ترجمة : محمد نور الدين عبد المنعم، السباعى محمد السباعى ، مراجعة وتقديم يحيى الخشاب ، الطبعة الثالثة، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ص١١١-١١٦ . وانظر أيضاً . Hignett, C, Xerxes's invation of Greece , Oxford , 1963.

وانظر أيضاً : Chalcocondylas , Op cit , p. 46 ; Leonard of Chios, Op. cit , p. 21 .

Runciman , Op cit , pp. 105-106 ; Nicol , "Byzantium and Venice", p. 401 , Idem , " The Last Centuries of Byzantium " p. 404 ; Babinger , Op. cit , pp. 88-89

الذى يذكر أنه تم سحب وجر عدد من السفن صغيرة الحجم أولاً كتجربة لسحب وجر باقى السفن وانظر كذلك . Mecingen, V, Byzantine Constantinople, London , 1899, pp 212 , 214, 244-246; Op. cit , p. 68 .

وعن ذلك : انظر أيضاً :صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص٢٨٥ : السيد محمد المتولى، المرجع السابق، ص١٣٩-١٤٠؛ اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية مراجعة حسن الدين، بيروت ، د.ت، ص٤١ حيث يذكر أن محمد الفاتح أمر بنقل السفن من المكان المسمى ضوله باغجه حتى المكان المسمى قاسم باشا .

من الأسطول التركى الراسى عند الأعمدة ، وذلك لأن أسطولنا كان داخل السلسلة والأسطول التركى كان موجوداً داخل السلسلة وخارجها أيضًا .

وهكذا يمكن ادراك حجم الخطر الممكن حدوثه ، كذلك كنّا نخشى من عملية اطلاق القذائف فى حالة تمكنهم من احراق سفننا التى كانت موجودة عند السلسلة، وتم اجبار رجالنا على متن الأسطول على عدم التخلى عن أسلحتهم ليلاً ونهاراً، وكانوا فى حالة هلع كبيرة من وجود الأتراك.

وبالنسبة لنا، فقد قررنا استخدام سفينة خفيفة عند بيرا ، كموقع حراسة متقدم، لمراقبة الأسطول التركى، إذا ما قام بالتحرك من مرساه عند الأعمدة .

وعندما شاهدت تلك السفينة تحرك الأسطول التركى، قدمت على الفور لاخبار الوفيكس دييدو ، الربان المسئول عن السفن . وفى الحال توجه كل رجل مسلح إلى مكانه وتكرر هذا عدة مرات ، الاّ أن الأتراك كانوا يخشون من الحضور حتى السلسلة ، وشعروا أنه من المجازفة الشروع فى القتال ضد العديد من سفننا الموجودة هناك .

لقد فكر الأتراك فقط فى المبادرة بهجوم ليلى، لكن ربنا الخالد، الذى أسبغ عطفه علينا نحن المسيحيين ، لم يشأ أن يحدث لنا أمر سيئ فى ذلك الوقت ، وحث المسيحيين على التمسك بالشجاعة ، وعلى ضرورة مهاجمتهم ، وسوف ترون فيما بعد كيف قمنا بمهاجمة الكفرة ، على الرغم من أن هجومنا لم ينته إلى النتيجة التى تمنيناها.

فى يوم الثالث والعشرين من أبريل ، تسارعت وتيرة الأحداث خاصة بالنسبة للسفن التركية التى تم سحبها عبر التلال إلى ميناء القسطنطينية ، وهكذا فقد عقدنا ذلك اليوم مجمع الاثنى عشرة فى كنيسة القديسة مريم بالقسطنطينية ، من أجل الشروع فى انجاز مهمة احراق السفن التركية الموجودة فى حوض السفن فى بيرا.

تم اجراء التصويت ، وتمت الموافقة على ضرورة القيام بمحاولة لتحقيق ذلك. ومع ذلك فيجب أن يكون مفهوماً أنه قد حدث جدال ومناقشات مستفيضة حول أفضل السبل للقيام بهذه المهمة . وأدلى كل عضو فى المجمع برأيه فى ذلك.

أراد البعض أن نقوم بتحريك جميع سفننا من الميناء عند الفجر، والقيام بهجوم كبير ومباغت على أسطولهم ، دون أن يصاحبه اطلاق للقذائف عليهم[1]، بينما طلب البعض الآخر

١- المقصود هنا أن لايشعر الأتراك ببداية ذلك الهجوم.

ضرورة وجود قوة برية تكون مهمتها الهجوم على الخيام التركية التى يقوم الجنود داخلها بحراسة سفن الأسطول . وضرورة استخدام سفينتين خفيفتين فقط لانجاز هذه المهمة.

وقام جامو كوكو Gacomo Coco ربان سفينة طرابيزون Trabizon بالادلاء برأيه أيضًا ، حيث وافق الجميع على القيام بمحاولة اشعال النيران بالسفن التركية .

وانتهت تلك المحاولة إلى حدوث فاجعة رهيبة، كما لابد وأنكم قد سمعتم بذلك.

فى يوم الرابع والعشرين من أبريل ، قاد جاكومو كوكو ، ربان السفينة القادمة من طرابيزون(١)، سفينتين تبلغ حمولة كل منها ٥٠٠ Botte، وقام بتحزيمهما بعدة أجولة وأكياس من القطن والصوف ، وهكذا كان من المستحيل اصابتهما بقذائف البنادق، مهما كانت ثقيلة، وكان من الصعب إحداث أضرار بهما.

لم يكن فى وسع السفينتين مهاجمة الأسطول التركى، دون تلقى المساعدة من الشينيات Galleys وسفن الـ Fuste ، فتم اعداد شينيتين خفيفتين ، وقامت كل شينية كبيرة بتسليح السفينة التابعة للامبراطور ذات الاربعة عشر مقعدًا للمجدفين، وقامت كل سفينة أيضًا بتسليح أحد قواربها الكبيرة .

عندما أصبحت جميع السفن مستعدة لمحاولة إشعال النيران فى سفن الأعداء ، صدر الأمر بأنه يجب أن يكون الرجال والسفن فى وضع الاستعداد فى أول ساعات الليل، حيث تقرر منتصف الليل موعدًا للهجوم.

١- عن دور جاكومو كوكو فى محاولة اشعال النيران بسفن الاسطول العثمانى فى خليج القرن الذهبى انظر أيضًا:

Leonard of Chios , Op. cit , p. 24 ; Babinger , Op. cit, p. 89 ; Runciman , Op. cit, pp. 106-108 , Nicol Op. cit , pp. 396, 401-02 .

Schlumberger , Op. cit , pp. 172 - 177 ; Kielty Op,cit, pp. 115-119 .

Pears , E, "The Ottoman Turks to The Fall of Constantinople" in, C.M.H. 1 , (4) , 1927 , pp. 699-700 ; Menzies , S History of the Ottoman Empire in Europe, London, 1977 , p 85.

Kinross, I, The Ottoman Centuries , The Rise and Fall of The Turkish Empire, London , 1977 , p. 103 .

وكان جاكومو كوكو مواطنًا بندقيًا عمل ربانًا للسفينة البندقية القادمة من طرابيزون، ولم يكن مجرد «بحار مغامر من طرابيزون يعرف باسم كوكو» كما ذكر السيد المتولى، انظر: «الدولة البيزنطية فى عالم القرن الخامس عشر الميلادى»، ص١٤٠ .

وحضر الجميع عند منتصف الليل إلى متن سفينة الوفيكس دييدو ، قائد الميناء، وجرت مناقشة حول القيام بهذه المحاولة أو ارجائها لوقت آخر . وأيّدت الأغلبية محاولة القيام بالهجوم، واطلاق القذائف والنيران على السفن التركية. وبالفعل بدأت الاستعدادات الأولى للهجوم فى منتصف الليل.

فى تلك الأثناء حضر جنوية بيرا، أعداء الدين المسيحى[1]، واستمعوا إلى خطتنا الرامية إلى اشعال النيران فى السفن التركية. وفى الحال قام بودستا Podesta[2]، بيرا بارسال اثنين من مواطنيه كسفراء للسلطان ، الذى كان موجوداً أمام أسوار القسطنطينية عند بوابة القديس رومانوس.

١- يأتى وصف باربارو البندقى للجنوية بأنهم أعداء الدين المسيحى متسقًا مع موقف البندقية تجاه منافستها الدائمة جنوا، حيث استمر التنافس البندقى- الجنوى حول أسواق القسطنطينية والامتيازات التجارية بها لعدة قرون ، بدأت منذ الربع الأخير من القرن الثانى عشر الميلادى، عن ذلك انظر :

حاتم الطحاوى، بيزنطة والمدن الايطالية (العلاقات التجارية) ١١٨١-١٢٠٤م، القاهرة، ١٩٩٩م.

واستمر هذا التنافس فى القرن الأخير للدولة البيزنطية، واستمرت حالة التوجس المتبادلة بين الطرفين ، علاوة على العلاقات الطيبة التى كانت قائمة بالفعل بين الجنوية والعثمانيين، كل ذلك جعل باربارو البندقى يتهم الجنوية بأنهم أعداء للمسيحية ، لأنهم فضّلوا مصلحتهم الشخصية ، وأخبروا محمد الفاتح بنتيجة ذلك الاجتماع الذى دعى إلى حرق السفن العثمانية..

الحقيقة أن موقف الجنوية فى بيرا كان يهدف إلى اقناع كلا الطرفين : البيزنطى والعثمانى، أنهم معه ، وذلك من أجل الدفاع عن مصلحتهم الاقتصادية فى مستعمرة بيرا، وهو الأمر الذى تأكد فيما بعد نتيجة للمعاملة الطيبة التى عاملهم بها السلطان محمد الفاتح بعد نجاحه فى فتح القسطنطينية، حتى أنه عقد معهم معاهدة تجارية بعدها مباشرة ، تعهد فيها بعدم الاستيلاء على منازلهم أو ممتلكاتهم ، وسفنهم ، كما منحهم حق بيع سلعهم وبضائعهم دون دفع أية ضرائب ، إذ لم يدفعوا فقط سوى ضريبة الرأس. كما صرح محمد الفاتح للجنوية باستخدام قوانينهم وأعرافهم الخاصة، وكنائسهم ، دون أن يقوموا بدق الأجراس بها، كما تعهد لهم بعدم تحويل كنائسهم إلى مساجد، مقابل عدم قيامهم ببناء كنائس جديدة ، بالإضافة إلى بعض الشروط والمنح والامتيازات الأخرى. عن معاهدة محمد الفاتح مع الجنوية بعد فتح القسطنطينية مباشرة . انظر: Miklosich & Müller , Op. cit, pp. 287-288 , Jones (ed.) Op. cit , pp. 136-137 .

٢- كان البودستا هو لقب الموظف الجنوى المسئول عن رعاية الجاليات الجنوية فى مستعمرات جنوا فى البحر المتوسط والبحر الأسود. وبرز هذا اللقب منذ الأحياء التجارية الجنوية فى الموانئ الصليبية فى الشام=

وخلال المناقشات التى اشترك فيها الجنوية على متن سفينة القائد ، فإن أولئك التافهين والحقيرين قالوا «سيدى القائد، لايجب عليك القيام بهذه المحاولة الليلة، لكن إذا ما انتظرت ليلة أخرى، يمكننا تقديم المساعدة لك، من أجل احراق السفن التركية بشكل أفضل».

عندما استمع القائد البحرى لهذا الغرض بتقديم العون والمساندة ، كان على استعداد تام للانتظار ليلة أخرى، وكان الجنوية يدركون أنهم قد عقدوا معاهدة مع الأتراك، فقاموا بفتح أحد بوابات بيرا، وأرسلوا من خلالها رجلاً إلى الأتراك.

كان ذلك الرسول الجنوى الذى حضر إلى خيمة السلطان يدعى فايوزو Faiuzo (١)، وقام بابلاغ السلطان بكل ما حدث فى الليلة السابقة.

= فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد. كذلك تواجد هذا اللقب فى الحى الجنوى بالقسطنطينية منذ منح الامبراطور مانويل كومنينوس الجنوية أولى امتيازاتهم بالقسطنطينية عام ١١٥٥م. عن ذلك انظر :
Sauli, D. L, Della Colonia Dei Genovesi in Galata, Tomo Secundo , Torino , 1831 , pp. 181-182 . Doc . I .
وانظر أيضًا

حاتم الطحاوى «المرجع السابق ، ص٧٥ : «الاقتصاد الصليبى فى بلاد الشام»، ص١٠٥ . وهناك مصدر فى غاية الأهمية عن الفتح العثمانى للقسطنطينية عبارة عن رساله أرسلها البودستا الجنوى الأخير فى القسطنطينية لوميللينو إلى أخيه يخبره فيها بأحداث سقوط المدينة . انظر Jones, Op. cit, pp. 132-135

١- ذكر نيقولو باربارو فى الأسطر السابقة أن بودستا الجنويه فى بيرا قام بارسال اثنين من مواطنيه للسلطان محمد الفاتح . ثم عاد وذكر أن البودستا - بعد أن علم بخطة البنادقة حول اشعال النيران بسفن الأسطول العثمانى- قام مرة أخرى بارسال رسول جنوى إلى خيمة السلطان ليخبره بتفاصيل الخطة. وينفرد باربارو من دون كافة المصادر اللاتينية والبيزنطية والعثمانية بذكر اسم الرسول الجنوى فايوزو Faiuzo . ويمكننا هنا أن نعلن دهشتنا حول معرفته باسم ذلك الرسول الجنوى، ازاء صمت باقى المصادر المعاصرة عن اسمه خاصة وأن البودستا الجنوى لوميللينو ، الذى سلم مفاتيح بيرا لمحمد الفاتح . كتب أنه ، خشية منه على سقوط بيرا مع القسطنطينية ، فقد قرر أن يتخذ خطوات من أجل تأمين عدم سقوطها وأرسل سفراءه للسلطان محمد الفاتح مع العديد من الهدايا الثمينة ، لتذكيره بالعلاقات الطيبة بين الجنوية والعثمانيين ، ويطلب تجديد المعاهدات والمواثيق بينهما، لكنه لم يذكر أى اسم من أسماء المبعوثين الجنوية ، عن ذلك راجع:

Jones, Op. cit, pp. 132-135 , esp. p. 133 .

بل إن البودستا الجنوى ذكر أيضًا أنه قام بنفسه بزيارة السلطان محمد الفاتح ، من أجل انقاذ المستعمرة الجنوية فى بيرا . وانظر أيضًا . - Runciman , Op. cit , 142 , 162 -3 , 196, 221 .

وفى ذلك الوقت كان البنادقة قدأعدّوا أنفسهم للتوجه واشعال النيران فى سفن الأسطول التركى، فى حوض بيرا.

عندما استمع السلطان إلى حديث الرسول الجنوى، وجه إليه الشكر الوافر، وأمر باعادته على وجه السرعة. وبمجرد رحيل الرسول، قام السلطان بارسال عدد كبير من الرجال، مسلحين ببنادقهم إلى أسطوله فى حوض بيرا، وبالإضافة إلى ذلك آمر بنصب مدفعين على مقربة من الشاطئ، ومدفعين اضافيين على الجانب الآخر من حوض السفن فى بيرا، وجرت عملية حماية منطقة حوض السفن جيداً بواسطة الحواجز والسياج، التى لم يكن يصيبها الضرر نتيجة القذائف أو السهام القصيرة القوية Botts. وهكذا قام الأتراك بتأمين دفاعاتهم. وهكذا قام جنوية بيرا؛ المتمردين على الدين المسيحى، بارتكاب تلك الخيانة.

وانتظرنا من الرابع والعشرين حتى الثامن والعشرين من شهر أبريل من أجل القيام بتلك المحاولة، التى أعتقد أن ارادة الرب قد تدخلت، وأرادت لها أن تحدث بهذه الطريقة من أجل معاقبة بعض الخطاة والآثمين الذين لاقوا مصيرهم.

وسوف ترون -فى السطور التالية- الكارثة الرهيبة التى حدثت، متذكرين بأننا نحن البنادقة لم نكن نعلم شيئًا عن خيانة الجنوية الأشرار.

فى يوم الثامن والعشرين من أبريل، وتحت اسم سيدنا يسوع المسيح، قررنا القيام بمحاولتنا لحرق سفن الأتراك الوثنيين. وقبيل الفجر بساعتين، وباسم الروح القدس، غادرت السفينتان الميناء، وكانت جوانبهما تحظى بالحماية عبر أجولة وأكياس القطن والصوف، وخرجت لمرافقتهم سفينتا كابرييل تريفكسان، وزكريا جريونى الفارس، وكانت كلتاهما مسلحة تماماً كالسفينتين السابقتين، وكانت هناك ثلاث سفن من نوع Fusta من ذات الأربعة وعشرين مقعداً للمجدفين، تحت قيادة ثلاث ربابنة من سفن رومانيا Romania[1] وبحارتهم.

١- استخدم اسم رومانيا Romania منذ القرن الرابع الميلادى للاشارة إلى الامبراطورية الرومانية فى مواجهة عالم القبائل الجرمانية والبرابرة، ومنذ العام ١٠٨٠م استخدم المؤرخون الغربيون الكلمة كمقابل للامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) بعد زوال الشطر الغربى والامبراطورية الرومانية، وفى العام ١٢٠٤م تم اطلاق اسم رومانيا على المملكه اللاتينية بالقسطنطينية. وبعد آن استعاد ميخائيل الثامن باليولوغس القسطنطينية وحتى نهاية الامبراطورية البيزنطية فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى، أخذت الوثائق البيزنطية، فى عدم الاشارة إلى هذا اللقب إلا فى حالات نادرة. انظر: =

وكانت أسماء الربابنه كالتالى: سلفسترو تريفيكسان Silvestro Trivixano، جيروليمو موريكسنى Jeruolemo Morexini ، وجاكومو كوكو Jacomo Coco ، بالإضافة إلى ذلك قام بعض الربابنه بتسليح عدد من سفن Bregantini بكميات من القار والقطران والأغصان اليابسه والبارود، حتى يتمكنوا من وضعها فى النيران، والقائها على السفن التركية .

وصدر الأمر بضرورة سير السفن إلى الامام ، حتى تستطيع تجنب قذائف المدفع ، لكن جاكومو كوكو ، ربان سفينة طرابيزون ، قاد سفينته بشجاعة ، وقاده قدره المشئوم، وأراد أن يقوم بالضربة الأولى ضد سفن الأتراك ، ليحرز الشرف والمجد فى هذا العالم.

وبدأت سفننا فى الاقتراب ببطء من الحوض الذى رست فيه سفن الأتراك. ولم تستطع الإبحار بسرعة أكبر بسبب وجود أربعين مجدفًا فى كل جانب من جوانب السفينة ، الأمر الذى جعلها لاتستطيع الإبحار بسرعة أكبر كما تفعل الشينية.

وكان جاكومو كوكو، ربان سفينة طرابيزون، مثل الرجل التواق إلى احراز الشرف فى هذا العالم، فلم ينتظر أن تبادر السفن بالهجوم ، وأراد أن ينال سبق توجيه الضربة الأولى ضد السفن التركية، ولهذا فقد أخذ فى التجديف بسرعة قصوى بحيث تقدم كافة السفن الأخرى، وعندما اقترب من مرمى نيران الأتراك، قاموا باطلاق قذائف أحد مدافعهم، وسقطت القذيفة بالقرب من مؤخرة السفينة ، دون أن تسبب أية خسائر . فقاموا باطلاق قذيفة ثانية سقطت على أرضية سفينته، وتدحرجت يمينا داخلها، وعندها لم تستطع السفينة أن تظل طافية على الماء لمدة نستطيع من خلالها أن ننتهى من قراءة الصلاة الربانية Paternosters عشر مرات[1]، وغاصت مباشرة نحو القاع ، بالرجال الذين كانوا على متنها.

O.D.B, vol , 3, p. 1805 . =

ويظهر من استخدام باربارو للكلمة ، أنها ما زالت تستخدم فى أدبيات المصادر اللاتينية عند الحديث عن الإمبراطورية البيزنطية فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى.

١- يذكر قاموس الكتاب المقدس أنها الصلاة التى قام الرب بتعليمها لتلاميذه ، ولذلك سميت بالربانية ، وهى صلاة الصلوات، وملخص الديانة المسيحية، وتحتوى على الدعاء والطلبات والتمجيد انظر: بطرس عبدالله، جون الكساندر طومسون، ابراهيم مطر ، قاموس الكتاب المقدس، الطبعة الثانية عشرة ، ١٩٩٩م، ص٥٥١-٥٥٢ .

وما يقصده نيقولو باربارو هنا أن قذيفة المدفع العثمانى عاجلت سفينة جاكومو كوكو ، التى لم تستطع أن تطفوا طويلاً فوق الماء .

وعندما شاهدنا جميعًا السفينة وهى تغرق ، امتلأنا بالأسى والأسف على رجالها ، لكننا لم نكن لنستطيع مساعدتهم بأية طريقة.

وكان الرجال ذوى المكانة والشهرة ، والأكثر جدارة على متن السفينة الغارقة هم : جاكومو كوكو الربان ، انطونيو من كورفو، اندريا دارودو ، مارين جبليني وكيل الربان، بولو كاتانيو وكيل الربان ، اندريا دل اكوا وكيل الربان، اندريا ستيكو وكيل الربان ، بالإضافة إلى رماة الاقواس الآتى أسماءهم: جوان مارانجون ، جوان دى شيراتو جوان ابن نيكولو دا كاتارو ، نيقولو داندرو ، نيقولو جولياس ، ليو فوكسون ، رينالدو من فيرارا ، ترويلو دى جريزى ، جورجى داترو بابارو جرادينيجو ، ستيفانو دى ساردايا، بخلاف ٧٢ من المجدفين . غاص جميع هؤلاء مع السفينة، وغرقوا جميعًا ، لعل الرب يشملهم برحمته [١].

فى الوقت الذى اندفعت فيه السفينة باتجاه القاع لتلقى مصيرها المحتوم، فإن أولئك الذين كانوا على متن السفن الخفيفة لم يدركوا بعد أنهم قد أصبحوا الآن بلا حماية ، فواصلوا تقدمهم معتقدين أن تلك السفينة تتبعهم فى الخلف، وأن الأمور تسير بشكل جيد، لأنهم لم يشاهدوها وهى تغرق ، إذ لم يكن باستطاعتهم رؤية ذلك بسبب وجود الدخان الكثيف للغايه الذى انبعث من المدفع ومن البنادق، مما جعل من المستحيل عليهم رؤية أى شئ. وامتلأ الجو بالصيحات الصادرة عن الجانبين، وهكذا فانهم – فيما بعد– لم يصدقوا ما حدث.

أثناء اندفاع سفينة كابرييل تريفيكسان إلى الامام ، قام الأتراك [٢]، باطلاق قذائف مدفيعهما عليها، فأصابت السفينة بحيث قامت بشطرها إلى نصفين وبسبب انخفاض أرضية السفينة، فقد أصيب اثنين من رجالها، الذين قاموا فى الحال بسد الثقوب التى أحدثتها القذائف عبر استخدام عباءاتهم. ولهذا السبب ظلت السفينة تطفو فوق سطح الماء، على الرغم من غمرها بالمياه حتى منتصفها ، وقام رجالها بالتجديف بكل ما استطاعوا من قوة ، حتى نجحوا فى النهاية فى الوصول إلى مرسى السفن فى الميناء .

١– عن تلك المعركة البحرية انظر أيضاً : . Leonard of Chios , Op. cit , p. 24

٢– الترجمة الحرفية حسب كلمات المؤلف «قام الأتراك الكلاب.......» ورأينا التصرف فى الجملة على هذا النحو.

عندما شاهدت باقي السفن ما جرى من أمور سيئة ، قررت العودة والرسو في مكانها الذى انطلقت منه . ولم تنجح خطتنا المتعلقة بأعدائنا الكفرة .

وهكذا أحرز الأتراك النصر، وانخرطنا، نحن المسيحيون، فى البكاء والنحيب ، بمرارة وأسى ، وأسفنا بشدة على الرجال سيئ الحظ ، الذين غرقوا ، عسى الرب أن يشملهم جميعًا برحمته .

واستمر نحيبنا وعانينا من الرعب والفزع ، خشية تحقيق الأتراك النصر النهائى بواسطة أسطولهم، لأننا أدركنا أنهم إذا ما قاموا بشن المعركة فى ذلك اليوم ، فسوف نسقط جميعًا دون شك فى قبضتهم ، سواء كنا فى البحر أم على البر ، لأن الخوف كان قد تمكن من اصابة قواتنا بالشلل ، لكن ربنا الخالد، أراد أن يرجئ سقوط المدينة.

والآن لنرى كيف تصرف الأتراك الكفرة. لقد توجهوا بسفنهم الاثنين والسبعين باتجاه سفينتينا التى جرى تحزيمهما بالأجولة والاكياس المليئة بالصوف ، وكانت السفينتان قد القت مراسيها قريبًا من السفن التركية، وقاموا بذلك لأنهم توقعوا مساعدتنا نحن المسحيون، لكن كان من المستحيل تمامًا مد يد المساعدة إليهم، لأننا كنا سوف نتعرض للأسر بشكل فورى من قبل السفن التركية .

وعندما لاحظ الأتراك أن الحظ يبتسم لهم، قاموا بوضع الخطط اللازمة ، واندفعوا بجميع سفنهم لمهاجمة السفينتين بضراوة بالغة ، ونشبت معركة عنيفة ورهيبة ، وكان صخب وضجيج أصوات الأتراك(١). يبدو كأنه الجحيم الحقيقى، وانطلقت القذائف والسهام التى لا حصر لها ، وتكررت عملية اطلاق القذائف من المدافع والبنادق .

استمرت تلك المعركة لأكثر من ساعة ونصف الساعة ،ولم يستطع أى من الطرفين حسمها، حيث عادت سفننا إلى مكان رسوها ، وعادت السفن التركيه الاثنين والسبعين إلى حوضها. ولم يحدث شئ آخر فى هذا اليوم سواء فى البحر أو فى البر، فيما عدا حدوث احتفالات كبرى فى المعسكر التركى ، لأنهم نجحوا فى اغراق سفينة جاكومو كوكو.

١- الترجمة الحرفية هى «... أصوات أولئك الكلاب».

حدث كل هذا نتيجة لخيانة الجنوية ، أعداء الدين المسيحي، فقد قاموا بخيانة المسيحيين من أجل أن يظهروا أنفسهم كأصدقاء للسلطان التركي[١].

ونتيجة لغرق جاكومو كوكو ، ربان السفينة القادمة من طرابيزون، كان لابد من تعيين ربان جديد لسفينته . وهكذا قام الوقيكس دييدو القائد العام على السفن، بتعيين دولفين دولفين[٢] ربانًا وقائدًا لسفينة طرابيزون خلفًا لجاكومو كوكو ، عسى الرب أن يشمل الأخير برحمته .

وكان دولفين دولفين معينًا من قبل لحراسة احدى بوابات المدينة ، المعروفة باسم بوابة القصر، وكان يتصف بشجاعته ، ويقظته ، فقام بترك مكانه هناك، وتوجه إلى موقعه الجديد على متن السفينة ، بينما تم تعيين جوان لوريدان Zuan Loredan مكانه لحراسة بوابة القصر.

وفى الأيام الأخيرة لشهر أبريل لم يحدث شئ يذكر فى البحر أو على البر، سوى بعض المناوشات العسكرية المتكررة، واطلاق المدفع لقذائفه تجاه الأسوار، تلك القذائف التى لم تكن لتتوقف طوال النهار والليل.

حدثت هجمات مستمرة على الأسوار من ناحية البر، وضعت المدينة فى حالة خطر دائم، وكنّا بالداخل نقوم بأعمال الترميمات على نحو جيد، عبر استخدام البراميل والدعامات

١- انظر ما سبق ص١٣٥-١٣٧ ، بالإضافة إلى الهوامش ١، ٢، ٣ .

والحقيقة أن الجنوية كانوا قد اتخذوا قرارهم بمساعدة الطرفين من أجل مصلحتهم الذاتية ومن أجل الحفاظ على ممتلكاتهم وامتيازتهم التجارية فى منطقة غلطه (بيرا) كما عقدوا معاهدة مع السلطان محمد الفاتح لحماية مصالحهم وامتيازاتهم . عن النص اليونانى الأصلى للمعاهدة. انظر:

Miklosich & Muller , Acta et Diplomata Graeca, vol , 3 , pp. 287-88 .

٢- ذكر باربارو من قبل أن دولفين دولفين كان مسئولاً عن حراسة البوابة الرابعه للقسطنطينية وهى البوابه القريبه من قصر بلاخرناى Blachernai ، عن ذلك انظر ما سبق، ص١١٠ وانظر أيضًا السطور التالية لباربارو . بالإضافة إلى:

Nicol, " Byzantium and Venice " , pp. 400 , 402 , 405 .

الخشبية ، والرمال، كلما احتاج الأمر إلى ذلك. وهكذا كانت الترميمات قوية كما الأسوار الحقيقية، ولم تستطع قذائف المدفع أن تحدث أضراراً بها .

فى اليومين الأولين من شهر مايو (١٤٥٣م) لم تحدث أية تحركات فى البحر أو على البر، فيما عدا استمرار القذائف والمناوشات الخفيفة، والصراخ العالى، والأصوات المزعجه طبقاً لعادة الأتراك . وعانت مدينة القسطنطينية من النقص الحاد فى الامدادات الغذائية وبشكل خاص الخبز ، والنبيذ، وغيرها من السلع والمواد الضرورية للبقاء على قيد الحياة.

فى الثالث من مايو، تم وضع خطه لنصب مدفعين كبيرين عند أحد البوابات البحرية بالقرب من المدفع المجاور للأسطول ، وكان ذلك المدفع هو الذى قام باغراق سفينة جاكومو كوكو ، وهكذا قامت مدافعنا باطلاق القذائف على السفن التركية ، وتسبب ذلك فى حدوث حاله من القلق والخطورة لديهم .

وبعد أن شاهد الأتراك مدافعنا وهى تقوم باغراق سفنهم، وتقتل العديد من رجالهم، قرروا أن يقوموا باسكات مدافعنا حتى لاتلحق أية خسائر اضافية بهم . فقاموا بنصب ثلاث مدافع كبرى، إلى جوار بعضها البعض ، قريباً من سفنهم ، واستمرت تلك المدافع فى اطلاق قذائفها طوال النهار والليل ، وسببت لنا الكثير من الخسائر والأضرار، وذلك بسبب قربها من بعضها البعض ، مما زاد من حجم تأثير قذائفها.

وهكذا استمرت المدافع على الجانبين فى اطلاق قذائفها لمدة عشرة أيام كاملة، لم يتوقف فيها أحد الطرفين عن اطلاق قذائفه . وكان مدفعانا موجودين داخل الأسوار ، وجرت حمايتهما بشكل جيد عبر متاريس مرتجلة Breastwarks يبلغ ارتفاعها مقدار ارتفاع الصدر، وبلغت المسافة التى أمكن للقذيفة الوصول إليها نصف الميل..

وأثناء هذه المعركة العنيفة، قال الامبراطور المبجل لقادة بحريتنا «أيا ربابنة ونبلاء البندقية، لقد رأيتم بجلاء كيف أن سيدكم حاكم البندقية، لم يقم حتى الآن بارسال أسطول بحرى من أجل مساعدتى، ومد يد العون لمدينتى التعسة، ولهذا فاننى أرى أنه من الضرورى[١] أن أقوم

١- الحقيقة أن الترجمة الإنجليزية للنص الأصلى قد أغفلت ترجمة العديد من المصطلحات الفنية مثل أسماء السفن والموازين والمقاييس والعملات، وهو ما اعترف به المترجم ج. ر جونز فى مقدمة الترجمة الإنجليزية انظر: Introdution, P.5. وحاولت الترجمة العربية- منذ البداية- تحديد وترجمة أسماء السفن =

بارسال Gripo باتجاه نجروبونت Negropont(١)، لملاقاة أسطولكم البندقى».

ويمجرد حلول يوم الثالث من مايو ، كانت سفينة الـ breganuno مجهزة ومزودة باثنتى عشر رجلاً للابحار عبر الدردنيل، بالقرب من الأرخبيل ، وهناك سوف تستطلع تلك السفينة ما إذا كانت هناك أية اشارة تدل على وصول أسطولنا . وإذا ما عثروا عليه، فإنهم سوف يقومون باخبار قائده جاكومو لوريدان Jacomo Loredan(٢) بضرورة الاسراع بالتوجه نحو القسطنطينية ، لأن المدينة ما زالت صامدة وقوية بفضل المسيحيين الموجودين بها، كذلك ضرورة الاسراع بالحضور بشجاعة ، وبدون خشية الأسطول التركى.

= التى أشار إليها نيقولو باربارو فى لغتها الأصلية، وعلى هذا فقد توصل الباحث من قبل إلى معانى السفن المسماه brigantino ، Parandaria ، Fusta ،galley انظر: ما سبق ، ص٨٣ ، هامش (٢،١) ، وأيضًا انظر ص١٢٠ ، هامش (٤) وبالبحث عن تأصيل للسفينة المسماه gripo، والتى أمر الامبراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر بارسالها لملاقاة الأسطول البندقى المنتظر قدومه ، يجد الباحث نفسه أمام ثلاث احتمالات تدل على أن هذا الاسم مأخوذ عن أسماء السفن الإسلامية، الاحتمال الأول أن تكون gripo هى السفينة المسماه «الجراب»، وهى السفينة الفارغة من الشحن انظر : درويش النخيلى، المرجع السابق، ص٢٢ . والاحتمال الثانى أن تكون gripo هى السفينة المسماه «الجريبية» ، وهى نوع من سفن القتال النهرى، استخدمها المسلمون فى العراق فى منتصف القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، انظر . الطبرى، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ج٩ ، ط٤ ، القاهرة، ١٩٧٩م، ص. ٤٢١ وانظر أيضًا : النخيلى، المرجع السابق ، ص٢٣ . والاحتمال الثالث أن تكون gripo هى السفينة المسماة «الغراب»، الذى هو اسم من أسماء الشينى أو هو نوع منه . عن ذلك انظر. ابن مماتى، قوانين الدواوين ، ص. ٣٤٠ النخيلى ، المرجع السابق، ص١٠٤-١١٢ .

ويرجّح الباحث الاحتمال الأخير : «وذلك لأن المؤلف نيقولو باربارو يذكر فى السطر التالى مباشرة أنه جرى تجهيز سفينة bregantino للخروج فى هذه المهمة . وسبق أن أثبتنا أن تلك السفينة تعنى السفينة المعروفة باسم بالغراب. انظر ما سبق ، ص١٢٠ هامش (٤)

١- نجروبونت هى الاسم الايطالى لايوبيا Euboea. استولت عليها البندقية وجعلت منها قاعدة لعملياتها العسكرية والتجاريه فى بحر ايجه منذ أوائل القرن الثالث عشر للميلاد ومنذ العام ١٣٣٢م فصاعداً بدأ الأتراك فى مهاجمة المناطق المحيطة بنجروبونت، ونجح العثمانون فى الاستيلاء عليها فى العام ١٤٧٠م انظر:

O. D B, Vol , 2 , pp. 1448 - 49 .

٢- أرسل البايل البندقى جيروليمو مينوتو إلى البندقية فى ٢٦ يناير(١٤٥٣م) رسالة يناشد فيها ضرورة=

وأبحرت الـ bregantino خارج سلسلة الميناء فى منتصف ليلة الثالث من مايو، وقام جميع ركابها بارتداء زى الأتراك ، كما قاموا برفع راية السلطان التركى. وتحت اسم الرب، رحلوا بحرية وسلام ، ودون أية صعوبة ، حيث توجهوا إلى مقربة من الأرخبيل، ولم يستطيعوا مشاهدة أسطولنا هناك أو فى أى مكان آخر .

وعندما رأى البحارة على متن الـ gripo أنه ليست هناك أية اشارة تدل على وجود أسطولنا، قال أحدهم للآخرين «اخوتى، لقد لمستم بوضوح أن الهجوم التركى النهائى على القسطنطينية هو أمر متوقع فى أية لحظة ، وأن المدينه سوف تسقط ويجرى احتلالها بواسطة الأتراك الوثنيين، لأننا رحلنا عنها وهى تعانى من نقص فى الرجال الشجعان. وهذا يا اخوانى ، يجعلنى أقول أنه يجب علينا إذن أن نتوجه بسرعة إلى أية أراض مسيحية. لأننى أدرك جيداً أن الأتراك قد استولوا على المدينة، خلال الوقت الذى رحلنا فيه عنها» وأجابه رفاقه قائلين «أيها الأخ، لقد أرسلنا الامبراطور من أجل عمل محدد ، وهو ما جئنا من أجله. وهكذا، فنحن نتمنى العوده للقسطنطينيه سواء سقطت فى يد الأتراك، أم ما زالت مع المسيحيين، وسواء أكنا متوجهين نحو الموت أم إلى الحياة . دعنا نتخذ طريقنا نحوها». وبالفعل ، عادوا إلى القسطنطينية بأمن وسلام ، حيث وجدوا المدينة ما زالت تحت سيطرة الإمبراطور .

عندما وصلوا إلى المدينة. قدموا تقريراً للامبراطور، ذكروا فيه أنهم لم يجدوا الأسطول البندقى . وعندما أدرك الامبراطور ذلك، بدأ فى البكاء والنحيب بمرارة وأسى ، لأن البنادقة لم يقوموا بارسال المساعدة له، وقرر الامبراطور حينذاك أن يضع نفسه رهن مشيئة ربنا يسوع المسيح الأكثر شفقة ورحمة، والقديسة مريم العذراء، والقديس قسطنطين المدافع عن المدينة، لكى يقوموا بحراستها، وذلك لأن «العالم المسيحى كله لم يرغب فى مساعدتى ضد أولئك الأتراك الكفار، أعداء الأمه المسيحية».

÷ ارسال اسطول بحرى بندقى للدفاع عن القسطنطينية ، ووصلت الأخبار إلى السناتو البندقى فى ١٩ فبراير حول الوضع السيئ فى القسطنطينية . وحدث تأخير لحوالى الشهرين ، فرضت فيها البندقية الضرائب على التجار البنادقة وجمعت حوالى ١٦٠٠ دوكات من أجل تجهيز سفينتين حربيتين كبيرتين تحمل كل منهما ٤٠٠ مقاتل، حدث هذا التأخير فى الوقت الذى كان الامبراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر ينتظر فيه الأسطول البندقى على أحرّ من الجمر ، وخاصة عندما علم بأن قيادة هذا الأسطول قد آلت إلى الربان البحرى الشهير جاكومو لوريدان. لكن هذا الأسطول وصل إلى القسطنطينية بعد نجاح محمد الفاتح فى اسقاط المدينة بالفعل. انظر: Nicol, Op. cit , pp. 397-9 , 402-406 ; Run ciman Op, cit, pp. 81 , 113-114, 161 .

فى الخامس مايو قام الأتراك الأشرار بنصب مدفع ضخم على قمة التل الذى يقع أعلى بيرا Pera، وبدأوا- من خلاله- فى اطلاق القذائف على أسطولنا الموجود قرب السلسلة، واستمروا لعدة أيام فى اطلاق القذائف ، وكانت الأحجار التى يقوم المدفع بقذفها يبلغ وزن الواحدة منها مائتى رطل. وتكفلت القذيفة الثالثة التى أطلقها المدفع الضخم، بارسال سفينة جنوية تبلغ حمولتها ثلاثمائة botte نحو القاع .

وكان على متن السفينة سلع مختلفة كالحرير، والشمع، وبضائع أخرى تبلغ قيمتها اثنتى عشر آلف دوكات بندقى. ولقد اندفعت السفينة بسرعة نحو قاع البحر، حتى أن رأس الصارى Masthead ، وجسم السفينة hull قد اختفيا تماماً ، كما غرق عدد من الرجال الذين كانوا على متنها.

عندما شاهد الأتراك هذه السفينة وهى تغرق نتيجة للقذيفة الثالثة فقط من مدفعهم، شعروا بالثقة الكاملة فى أنفسهم، واعتقدوا أنهم خلال عدة أيام سوف يقومون باغراق جميع سفن الأسطول المسيحى بواسطة قذائف المدفع الضخم.

وعندما اتضح لنا حجم الخسائر والأضرار التى سببها المدفع لسفننا، قررنا أن نقوم بحلّ سلسلة الميناء، حتى نستطيع تحريك السفن ، التى تحركت فعلاً إلى مكان قريب من أسوار بيرا ، حتى تبتعد عن مرمى قذائف المدفع. وقامت بذلك عشر سفن بالاضافة إلى الشوانى التابعة لنا، تحت وابل من قذائف الأتراك، مما تسبب فى حدوث أضرار جسيمة ، وخشى كثير من الرجال على حياتهم، لأن كل قذيفه تسببت فى قتل وجرح بعض الرجال على متن سفننا. وعلى سبيل المثال، قتلت بعض القذائف حوالى أربعة رجال، وبعضها قتلت رجلين ، وكان من الصعوبة بمكان أن تفشل مجرد قذيفة واحدة فى ايجاد ضحية لها، بسبب اندفاعها القوى باتجاه السفن والشينيات. واستمرت تلك القذائف لعدة أيام متوالية، مما سبب الكثير من الأضرار .

وقام الأتراك - بعد ذلك- بنقل المدفع الضخم إلى مكان آخر، حيث نصبوا المدافع فى مكان مواجه لجزء من أسوار القسطنطينية عرف باسم Chinigo ، وهناك استمروا، فى اطلاق القذائف الثقيله، لكن - ومع خالص الشكر للرب- لم تسبب أية خسائر.

وبعد ذلك قام السلطان بنقل المدافع من هذا المكان ، ونصبهم إلى جوار مدافع أخرى من أجل مواصلة عملية دك أسوار المدينة بوابل من القذائف .

فى يوم السادس من مايو، لم يحدث شئ يستحق الذكر سواء فى النهار، أو خلال الليلة السابقة ، فيما عدا عمليات القذف المستمر لأسوار المدينة ، والصيحات الصاخبة المعتادة، وأصوات الصنج من أجل اصابة سكان المدينه بالرعب .

فى الساعة الرابعة من ليلة السابع من مايو، تسلل حوالى ثلاثين ألف تركى ، إلى أسفل آسوار القسطنطينية ، وكان بحوزتهم العديد من الكباش (المدكّات) Rams بنية اقتحام المدينة غدراً ، لأننا لم نتوقع حدوث مثل هذا الهجوم، لكن الرب الخالد قام بمساعدتنا ، وأمد رجالنا بالقوة ، فنجحوا بشجاعة فى رد الأتراك على أعقابهم ، وأذاقوهم العذاب، بعد أن أصابوهم بخساره فادحة ، وقاموا بقتل العديد منهم . وفى الحقيقة لقد تم قتل عدد ضخم من الأتراك .

وبينما نحن على متن السفن فى تلك الليلة، سمعنا صراخًا همجيًا ، قام به أولئك الكفرة الملاعين ، الذين كانوا يحيطون بأسوار المدينة المسكينة، وقد سُمع هذا الصراخ بالقرب من ساحل الأناضول Anatolia على مسافة اثنتى عشر ميلاً من المعسكر التركى .

عندما سمعنا ذلك الصراخ ، كنا متأكدين تماماً بانهم الآن يحاولون القيام بالهجوم النهائى الشامل، مستخدمين أصوات الصنج والدفوف التابعة لهم، وكان الصوت المنبعث منهم ومن آلاتهم لايمكن تصوّره أو تصديق حدوثه، الا للذين كانوا هناك بالفعل وسمعوه .

وكما ذكرت سابقًا، بسبب كوننا على متن السفن ، فقد اعتقدنا أنهم توجهوا للقيام بالهجوم فى تلك الليلة ، وفى الحال قمنا لحمل أسلحتنا ، وتوجهنا جميعًا بشجاعة نحو مواقعنا، سواء على متن السفن أو على الشينيات. واستمر القتال البرى حتى الساعة السابعة من الليل . ولم يستغرق آكثر من ثلاث ساعات ، لكن الأسطول التركى لم يظهر أية رغبة فى التحرك ، لأنهم كانوا يشعرون بالخوف من اسطولنا الذى كان يربض عند السلسلة مستعداً لمواجهتهم .

وهكذا، فلم يحدث شئ فى البحر ذلك اليوم، وكذلك لم تحدث أية تطورات جديدة على البر بقية الليل.

وبمجرد انسحاب الأتراك من المكان الذى دارت فيه المعركة ، بعد أن أدركوا أنهم لن يتمكنوا من احراز النصر، قاموا بتبنى خطة جديدة ، وتوجهوا نحو بوابة القصر بصيحاتهم القوية ، وقاموا باطلاق القذائف عليها، ونجحوا فى اشعال النار بها . وبمجرد اشتعال البوابة، أخذ رجالنا فى الجرى باتجاهها، حيث قاموا بهزيمة الأتراك، وردهم على أعقابهم. وقاموا باغلاق تلك البوابة .

وفى نفس هذا اليوم أيضًا – السابع من مايو- عادت السفن إلى مكانها عند السلسلة، وكانت قد تركت مكانها السابق للحماية من قذائف المدفع، حيث توجهت بمحاذاة ساحل بيرا. وقامت السفن بحراسة السلسلة ، كما كانت تفعل ذلك من قبل .

فى يوم الثامن من مايو ، قمنا بعقد مجلس الاثنى عشر، وتم أخذ التصويت بأن تنزل إلى أراضى القسطنطينية ، كافة السلع والبضائع التى كانت على متن السفينتين القادمتين من تانا، وكذلك من أجل إغراق تلك السفن الثلاث فى ترسانة الامبراطور.

وعندما تم اجراء التصويت لتفريغ حمولة السفن، وتم البدء فى ذلك بالفعل ، قام البحارة بالوثوب – بشكل مفاجئ – شاهرين سيوفهم نحو الفتحات الموجودة فى جوانب السفن Ports(١) من أجل تحميل وتفريغ السلع والبضائع ، صائحين «دعونا نرى ذلك الرجل الذى سوف يستطيع أن يأخذ السلع والبضائع من تلك السفن ! ونحن نعرف ، أنه حيثما تكون ممتلكاتنا ، تكون أوطاننا أيضًا. ونعرف أيضًا أنه حالما نقوم بتفريغ تلك السفن ثم اغراقها فى الترسانة الامبراطورية ، فإن البيزنطيين سوف يقومون فى الحال باستبقائنا بالقوة فى مدينتهم كى نصبح عبيدًا لهم . بينما نحن نمتلك الآن حرية الرحيل أو البقاء».

و«هكذا فإنه من الأفضل التوقف عن تفريغ السفن، وأن نضع أنفسنا تحت رحمة الرب، الذى سيقوم بحسم هذا الأمر ، ولأن كافة الأمور تسير بمشيئته ، حيث يقوم بفعل كل ما يراه مناسبًا، ولأننا نعرف أنه لايوجد مسيحى واحد وجد نفسه فى هذه المدينة التعسة ، سوف يتمكن من الافلات من غضب أولئك الكفرة الملاعين ، وأننا جميعًا سوف نلقى نهايتنا بالسيف التركى، ولهذا ، فقد قررنا ، نحن الذين على متن السفن، أن نموت هنا على متنها، لأنها بمثابة وطننا ، ولن نموت على البر».

كان احتجاج البحارة مؤثرًا للغاية، وهكذا شعر ربابنة تلك السفن بثقة شديدة ، وبقوا على متن سفنهم بالقرب من الحاجز المكون من الأوتاد الخشبية Palisade عند بيرا، برفقة البحارة.

١- Ports هى الفتحات الموجودة فى جنب السفينة من أجل تحميل السلع والبضائع . وغالبًا ما تكون فى الجانب الأيسر للسفينة . انظر :

"A Comprehensive Maritime Dictionary ", p. 397 .

"The Oxford Companion to Ships & The Sea" , p. 660 .

وطوال هذا اليوم، لم يتوقف الأتراك عن اطلاق قذائفهم على أسوار المدينة عند بوابة القديس رومانو بواسطة مدفعهم الضخم ، وباقى المدافع الأخرى.

فى يوم التاسع من مايو ، عقدنا مجلس الاثنى عشر، وتم أخذ التصويت على ضرورة توجه كابرييل تريڤيكسان ، قائد السفينتين براً عبر أسوار القسطنطينية برفقة أربعين رجلاً من رجاله ، وأن يقوم بتجريد السفينتين من السلاح ، وأن يتركهما تحت مسئولية الوفيكس دييدو ، قائد السفن القادمة من تانا .

وأطاع تريڤيكسان الأوامر الصادرة إليه من المجمع ، وقام باخلاء سفينته من السلاح ، وتوجه براً برفقة أربعمائة رجل من الذين كانوا على متن السفن، التى ظلت كما ذكرت منذ قليل، تحت مسئولية الوڤيكس دييدو.

فى اليوم العاشر من مايو ، عقدنا مجلس الاثنى عشرة، مستخدمين كنيسة القديسة، مريم بالقسطنطينية لأجل هذا الغرض.

«بالنظر إلى ما نمر به الآن من خطر محدق ، فإنه لأمر جدير بالثناء أن نستعد للعمليات البحرية، ونظراً لأنه من الواضح بجلاء أن أسطول أولئك الأتراك الكفرة فى غاية القوة مقارنة بأسطولنا ، ولأنه توجد فى ميناء القسطنطينية وبيرا العديد من السفن والشينيات ، وأنواع أخرى من السفن لأمم شتى ، ومن مناطق مختلفة ، ومن أجل ادراك الأسلوب الأمثل للقيام بالمعارك البحرية، وحتى نستطيع نحن المسيحيين تحقيق النصر والشرف فى هذا العالم على حساب الأتراك، من أجل هذا كله، تم عقد تصويت تحت سلطة المجمع ، قضى بضرورة تعيين النبيل الوڤيكس دييدو ربان السفن القادمة من تانا، قائداً بحرياً عاماً على الأسطول البحرى الموجود بالميناء ، كما يجب عليه أن يتمتع بكافة السلطات من أجل اصدار الأوامر اللازمة لجميع السفن الموجودة فى الميناء».

وبعد الانتهاء من التصويت ، وافق دييدو على تسلم زمام القياده البحرية ، وبدأ فى الحال بوضع نظام مناسب للسفن والشوانى الموجودة فى الميناء . وبشكل خاص بالسلسلة الموجودة فى الميناء لأن سلامة سفننا ومينائنا تعتمد عليها . وعندما تم الانتهاء من تنظيم السفن والميناء بهذه الطريقة ، شعرنا بثقة أكبر، ولم نعد نشغل بالنا بأمر القتال البحرى .

فى يوم الحادى عشر من مايو ، لم يحدث شئ فى البر أو البحر، فيما عدا الكميات الهائلة من القذائف التى قام باطلاقها المدفع تجاه الأسوار البرية، ولم يحدث شئ آخر يستحق الذكر.

فى منتصف ليلة الثانى عشر من مايو ، وصل إلى أسوار القصر خمسين ألفًا من الأتراك المنظمين جيداً، حيث أحاطوابالقصر[1]، مستغلين صيحاتهم الوحشية ، وأصوات الصنج والدفوف ، وقاموا بهجوم عنيف على أسوار القصر ، لدرجة أن معظم سكان المدينة اعتقدوا أن المدينة ستسقط فى تلك الليلة .

لكن ربنا الرحيم ، يسوع المسيح ، لم يرغب فى سقوط المدينة ببساطة ، وكذلك رغب الرب فى أن تتحقق النبوءة التى وضعت بواسطة القديس قسطنطين ، أول أباطرة القسطنطينية، الذى سبق وأن تنبأ بأن المدينة لن تسقط، حتى طلوع القمر على هيئة بدر معتم، ما يلبث أن يختفى تصفه [2]، وهكذا فإن الوقت الحالى ليس وقت سقوط المدينة، على الرغم من أن تدميرها وهزيمة الامبراطورية التابعة لها وفقدانها، قد لاح فى الأفق .

فى الثالث عشر من مايو، ترك كابرييل تريڤيكسان، ربان السفن الخفيفة ، سفنه تحت مسئولية قائد الميناء، وتوجه لاتخاذ موقعه بصحبة رجاله عند أسوار المدينة، من أجل حراسة الأسوار التى سبق أن قاموا بترميمها بعد تعرضها للأضرار من قبل قذائف المدفع. وظل فى مكانه عند الأسوار ، حتى احتلال الأتراك للمدينة. وخلال هذا اليوم أيضًا ، وصل عدد من الأتراك حتى الأسوار ، وقاموا بمناوشات هجومية ، لكن لم يحدث شئ ذو قيمة طوال النهار والليل، باستثناء القذائف التى قام المدفع باطلاقها بشكل مستمر على الأسوار سيئة الحظ.

فى الساعة الثالثة من يوم الرابع عشر من مايو ، قام السلطان التركى بتحريك المدفع الذى كان يقع فوق التل المطل على بيرا، والذى كان حتى ذلك الوقت يقوم بقذف سفننا ، وأمكن حصر الأحجار التى قام المدفع باطلاقها على أسطولنا ، فبلغت مائتين واثنى عشر حجرًا ، كان وزن كل منها يبلغ مائتى رطل على الأقل .

وبعد تحريك ذلك المدفع من موقعه ، قام السلطان بنصبه فى مكان يستطيع منه اطلاق قذائفه على البوابة المعروفة باسم Chinigo ، وهو مكان قريب من قصر الامبراطور الأجلّ .

قام الأتراك باطلاق كميات وافرة من قذائف مدفعهم، لكنها لم تسبب آية أضرار، ولهذا السبب قاموا بسحب المدفع بعيداً عن مكانه، وقاموا بنصبه إلى جوار بعض المدافع الأخرى

١- الترجمة الحرفية للجملة هى «... وأحاط هؤلاء الكلاب الأتراك بالقصر».

٢- عن تلك النبوءة ، والنبوءات الأخرى المتعلقة بسقوط القسطنطينية . انظر ما ذكره باربارو سابقًا ص١٢٨-١٢٩ . وانظر أيضا هامش (١) . كذلك انظر ما ذكره باربارو لاحقًا الصفحات ١٦٩-١٧٠ .

قريبًا من أسوار المدينة ، من أجل اطلاق القذائف على بوابة القدس رومانوس ، حيث الجزء الأضعف من أسوار المدينة .

ولم يتوقف المدفع – طوال الليل والنهار – عن اطلاق قذائفه على الأسوار المنكوبة، وقام بتحطيم أجزاء واسعة منها، بحيث اشتركنا نحن سكان المدينة ، نهاراً وليلاً ، فى القيام بعمليات ترميم ، واصلاح جّيده للأسوار التى تهدمت ، عبر استخدامنا للبراميل الخشبية ، والأغصان والشجيرات القصيرة والرمال، وكل ما يلزم لذلك ، ولهذا عاد ذلك الجزء من الأسوار قويا كما كان، ولم نعد نخشى هدم الأتراك له مرة أخرى .

وعند تلك البوابة (بوابة القديس رومانوس) التى تضررت أكثر من غيرها ، قمنا بنشر ثلاثمائة رجل فى كامل سلاحهم ، من أجل توفير الحماية للمكان ، كان جميعهم من الأجانب ، إذ لم يكن من بينهم أى بيزنطى ، لأنهم يتصفون بالجبن، وكان مع أولئك الرجال بعض المدافع والبنادق ، فضلاً عن وجود عدد كبير للغاية من رماة القوس والنشاب ، والأسلحة الأخرى.

فى الخامس عشر من مايو، لم تجر أية أحداث ذات قيمة فى البحر وعلى البر، فيما عدا استمرار المدفع فى اطلاق قذائفه على الأسوار ، وبمجرد تداعى جزء من الأسوار ، كنا نشرع فى ترميمه وكذلك فى تجهيز القنوات الداخلية للأسوار كما ذكرت سابقًا . وفى هذا اليوم ظل الأتراك هادئين للغاية فى معسكرهم دون أن يقوموا بمناوشاتهم المعتادة حول الأسوار.

فى السادس عشر من مايو. وعند الساعة الثانية والعشرين ، خرجت عدة سفن تركية من نوع الـ bregantini من بين أسطولهم الذى كان راسيًا عند الأعمدة، وانطلقت بسرعة قصوى تجاه سلسلة الميناء ، بينما نحن المسيحيون ننتظر وصولهم بفرح بالغ، معتقدين أنهم المسيحيون الذين هربوا من السفن التركية ، وأرادوا الحضور الينا من أجل تجنب المخاطر ، لكن عندما اقتربت السفن من السلسلة، قاموا باطلاق العديد من الأصوات المزعجة . وعندما آدركنا حقيقة ما يحدث ، قررنا القيام بهجوم مضاد عبر استخدام سفننا من نوع الـ bre-gantini أيضًا ، وعندما شعر الأتراك بهجومنا ، لاذوا بالفرار، وأخذ رجالنا فى مطاردتهم حيث تمكنوا من الامساك ببعضهم، وحثّ الأتراك مجاديفهم من أجل الهرب بسرعة باتجاه آسطولهم . وعادت سفننا إلى داخل سلسلة الميناء، ولم يحدث شئ آخر ذو قيمة فى البحر ذلك اليوم.

فى السادس عشر من مايو ، جرت الأحداث التالية على البر : قام الأتراك بحفر نفق من أجل النفاذ منه إلى المدينة من تحت الأسوار. وتم اكتشاف النفق فى نفس اليوم. وكان الأتراك

قد بدأوا بحفره من مسافة تبعد نصف ميل عن أسوار القسطنطينية ، ومر النفق أسفل أساسات الأسوار، لكن رجالنا فى المدينة سمعوهم يعملون ليلاً فى حفر النفق.

١- استخدم الأتراك العثمانيون أسلوب حفر الانفاق تحت أسوار القسطنطينية ، من أجل النفاذ إلى داخل المدينه ، لكن هذا الأسلوب فشل رغم تكراره أكثر من مرة . انظر:

Tursun Bey , Op. cit , pp. 47-51 .

لكنه لم يتحدث عن فشل ذلك الأسلوب فى اقتحام المدينة. انظر أيضاً :

Runciman, Op. cit, pp. 118-119 .

حيث يذكر أن الأتراك قاموا بحفر نفق فى السادس عشر من مايو، تحت السور القريب من قصر بلاخرناى Blachernae، بالقرب من بوابة كاليجاريا Caligaria ، لكن البيزنطيين اكتشفوا ذلك وقام القائد الأعلى البيزنطى باستدعاء المهندس يوحنا جرانت Johannes Grant الذى قام بحفر نفق مضاد ، نجح من خلاله فى الوصول إلى نفق الأتراك ، واشعال النيران به مما أدى إلى مصرع العديد من حفارى النفق الأتراك . لكنهم لم يصابوا باليأس ، وقاموا يوم الحادى والعشرين من مايو بحفر نفق آخر بالقرب من بوابة كاليجاريا . وقام البيزنطيون بحفر نفق آخر مضاد بمساعدة المهندس جرانت ، واشعال النيران فى النفق التركى ، ما أدى إلى اختناق العديد من الأتراك ، وهروبهم .

والحقيقة أن البيزنطيين هم الذين فكروا أولاً فى استخدام الانفاق تحت أسوار القسطنطينية ، حيث يذكر المؤرخ البيزنطى دوكاس أن بعض البيزنطين من كبار السن، كانوا يعرفون أحد الانفاق، أسفل الطرف المنخفض من القصر (بلاخرناى) وكان مغلقًا منذ سنوات. وعندما سمع الامبراطور بوجود هذا النفق، أمر باعادة حفره ، بحيث يستطيع الجنود البيزنطيون استخدامه فى هجومهم المباغت على الأتراك ، وذلك لأنه كان محمياً بجدران صلبة ، بحيث تقوم المعركة مع الأتراك العثمانيين فى الفناء الخارجى له. وكان اسم باب النفق يدعى كيركوبورتا Kerko Porta ، انظر:

Doukas , " Decline and Fall of Byzantium", p. 221 .

وكان هذا الباب يسمى أيضاً زيلوكيركون Xylokerkon لانه يقود إلى ميدان مقفر خارج القسطنطينية انظر:

Millingen , Op cit, pp 89-94

وانظر أيضاً : حاتم الطحاوى ، اقتحام العثمانيين للقسطنطينية. شهادة المؤرخ البيزنطى دوكاس ، مجلة «الاجتهاد»، العددان ٤١ ، ٤٢ ، السنة العاشرة ، بيروت ١٩٩٩م، ص١٩٣-٢٣٠ ، خاصة ص٢٠٣-٢٠٤ =

وبمجرد سماع الضجة الناتجة عن حفر النفق، قام القائد العسكرى الأعلى فوراً بابلاغ الامبراطور الأجلّ ، وأخبره أيضًا بالمرحلة التى وصلت إليها عملية حفر النفق ، وانتابت الامبراطور دهشة كبيرة لهذا الأمر، وقام فى الحال بالنظر فى ما يجب فعله تجاه هذا الأمر .

تم البحث عبر المدينة كلها عن كافة الرجال الذين يتمتعون بخبرة فى عمل الأنفاق ، وعندما تم العثور عليهم. أرسلوا لمقابلة القائد العسكرى الأعلى، الذى أمرهم بالشروع فى حفر نفق داخل المدينة، يمكنه مقابلة النفق الذى يقوم الأتراك بحفره، وبهذه الطريقة تمكنا من العثور على الأتراك تحت الأرض، وكان رجالنا مستعدين لذلك، فقاموا بسرعة بقذفهم بالنيران المشتعلة، ونجحوا فى احراق كافة الأعمدة والدعامات الخشبية التى اعتمدت عليها عملية حفر النفق، وذلك حتى يُهال التراب فوق رؤوس الأتراك، ويختنق أولئك الموجودين بالنفق، أو يحترقوا بفعل النيران [١].

كان ذلك النفق موجوداً تحت المكان المسمى كاليجاريا Calegaria، وقام الأتراك بحفره فى هذه المنطقة لأنه لم يكن بها حصون أماميه barbicans . وتسببت تلك المحاولة فى حدوث المزيد من الخوف والذعر فى القسطنطينية ، لأنه ساد اعتقاد بأن الأتراك ربما يقومون بهجوم على المدينة فى أية ليلة ، عبر استخدام الانفاق التى قاموا بحفرها، وذلك على الرغم من أنه تم احباط محاولتهم هذه المرة .

ولم يجر شئ آخر فى هذا اليوم، باستثناء الكمية الضخمة من قذائف المدفع، التى تساقطت على الأسوار بشكل معتاد، والصيحات العديدة التى تشق السكون .

وفى الساعة التى سبقت غروب شمس السابع عشر من مايو ، اقتربت خمس سفن من نوع الـ Fusteمن سلسلة الميناء ، لكى تراقب الوضع الذى كان عليه أسطولنا ، وكيفية تنظيمه ،

= ونجح العثمانيون فى استغلال هذا النفق البيزنطى فتسلل منه خمسون محارباً عثمانيًا، نجحوا فى الوصول إلى أعلى الأسوار، ومباغتة الحراس المرابطين هناك ، والسيطرة عليها ، انظر: Doukas, Op. cit, p. 223.

١- عن ذلك انظر أيضًا :

Leonard of Chios , Op. cit, pp. 17-18 , kielty, Op. cit , pp. 106-107 ; Schlumberger, Op. cit , pp. 203-204 .

ولكى تستكشف ما إذا كنا نشعر بالخوف منهم. وعندما شاهد رجالنا على متن السفن تلك السفن الخمسة تقترب من السلسلة ، بدأوا فى اطلاق نيران مدافعهم عليهم، وبدأ الجميع ، أولئك الذين بداخل القسطنطينية وأولئك الذين على متن السفن ، والآخرين على متن الشوانى، بدآوا جميعًا فى اطلاق أكثر من سبعين قذيفة ، لكن لسوء الحظ لم تصب واحدة منها مكانها الصحيح .

عندما شاهدت السفن التركية قذائف المدافع تنطلق تجاهها، قررت العودة إلى باقى سفن الأسطول الذى كان قد ألقى مراسيه عند الأعمدة . وهناك قدموا تقريراً إلى قائدهم البحرى بأنهم قد قاموا بمعاينة أسطولنا. ومنذ هذا الوقت فصاعداً ، بدأ الأتراك يشعرون بالخوف الشديد من اسطولنا البحرى.

ولم يحدث شئ آخر فى البحر ذلك اليوم، على الرغم من انطلاق العديد من قذائف المدافع عند الأسوار البرية ، وبعض المناوشات البسيطة، لكن لم يحدث شئ هام يستحق الذكر، فيما عدا أن كل شخص على البر كان يشعر بالخوف الشديد، ويتوقع الهجوم النهائى من يوم لآخر، ونتيجة لذلك، توقع كل شخص أنه سيجرى استرقاقه من قبل الأتراك، وهو ما حدث بالفعل فيما بعد [١].

فى ليلة الثامن عشر من مايو ، قام الأتراك ببناء برج قوى للغاية بالطريقة التالية: عملت أعداد كبيرة منهم طوال الليل، حتى نجحوا فى تشييد البرج على حافة الخندق، بحيث يصل ارتفاعه إلى مسافة أعلى من أسوار الحصون الأمامية ، بالقرب من المكان المسمى Cresca ، وتم عمل هذا البرج بطريقة معينة، بحيث لايصدق أحد أنه كان من الممكن أن يتم بهذا الشكل كما أنهم لم يقوموا بتشييد مثله من قبل[٢].

١- عن وقوع العديد من الرجال والنساء البيزنطيين فى أسر العثمانيين ، انظر ما ذكره باربارو فى الصفحات التالية، ص١٧٤-١٧٦

وانظر أيضًا المصادر البيزنطية والعثمانية واللاتينية المعاصرة: Chalcocandylas , Op. cit , p. 52 Kritovoulus, Op. cit, pp. 71-74 ; Doukas, Op. cit , pp. 226-227 , 229-231,239 ; Tursun bey , Op. cit , pp. 59-63 , Asik Pasa Oglu , Op. cit, p. 134 , Riccherio, Op. cit, p. 23 ; Lomellino , op. cit , p. 132 .

٢- عن هذا البرج الذى ساهم بشكل فعال فى الوصول إلى أعلى أسوار القسطنطينية انظر:

Tedaldi, Op. cit, p. 5 . حيث يذكر أن زاجان باشا هو الذى أمر بتشييد هذا البرج الخشبى.

ويبدو أن كلام باربارو هنا لايتصف بالدقة . إذ كيف يشيد الأتراك برجًا فى ليلة واحدة، إلاّ إذا كانوا قد قاموا بمثل هذا العمل من قبل. مع ملاحظة أنه يصفهم هنا أيضًا بالكفار» .

ودعونى أخبركم ، أنه إذا ما رغب كافة المسيحيين فى القسطنطينية فى اقامة أى برج على هذا المستوى، فإنهم لن يستطيعوا اقامته فى شهر واحد، لكن الأتراك فعلوها فى ليلة واحدة.

كان هذا البرج الجديد بالملاحظة يقع على مسافة عشر خطوات عن الأسوار الرئيسية للمدينة، وتجمع أعلى الأسوار عدد كبير من الرجال المسلحين ، الذين ذهلوا جميعًا من ذلك البرج ، وعلى الرغم من اننى قلت أنه تم الانتهاء منه فى ليلة واحدة، فإن الحقيقة أن تشييده تم فى أقل من أربع ساعات. لقد انتهوا منه بسرعة بحيث أن أولئك الرجال الذين كانوا على الأسوار لحراستها، لم يدركوا أنه قد تم بناءه سوى فى الصباح ، عندما شاهدوه بعد اكتمال بنائه ، حيث أصابهم الرعب والفزع .

عندما قام البيزنطيون بمعاينة هذا العمل الرائع، توجهوا بسرعة لاخبار الإمبراطور الأجلّ، الذى حضر فى الحال برفقة نبلائه لرؤية هذا العمل المدهش . وعندما شاهدوه أصيبوا بالرعب والهلع ، وتصاعد خوفهم من أن يتسبب هذا البرج فى سقوط القسطنطينية ، لأن ارتفاعه يعلو على ارتفاع الحصون الأمامية للأسوار.

تم تشييد ذلك البرج بالطريقة التالية : فى البدايه تم صنع اطار من الدعامات الخشبية المتينة، وتمت تغطيها وتطويقها بجلود الجمال من أجل حمايتها[1]. وكانت مليئة من الداخل بالرمال حتى المنتصف ، كذلك أحاطت بها الرمال من الخارج حتى منتصفها ، كى لاتستطيع قذائف المدفع أو البنادق، أو حتى السهام القصيرة القوية botte ، أصابتها بأضرار ، كذلك قاموا بوضع حواجز خشبية تمت تغطيتها بجلود الجمال .

كما قاموا بتعبيد طريق يبدأ من البرج إلى معسكرهم يبلغ طوله نصف الميل، مغطى بطبقة مزدوجة من الحواجز الخشبية المطوقة أيضًا بجلود الجمال، حتى يتمكنوا من التحرك من البرج إلى المعسكر تحت الحماية ، ودون التعرض لخطر البنادق أو السهام القصيرة القوية أو قذائف المدافع الصغيرة ، وداخل البرج كان الأتراك يقومون بحفر الأرض ، ويقومون فى نفس الوقت برمى التراب فى الخندق، واستمروا فى تكوين التراب بهذه الطريقة .

١- عن ذلك البرج انظر أيضًا : . Leonard of Chios, Op. cit, p. 18

لكنه يذكر أنه تمت تغطية الحواجز الخشبية بجلود الثيران .

قام الأتراك بتكويم كميات هائلة من التراب، حتى استطاعوا أن يصبحوا فى موقع أعلى من جدران الحصون الأمامية، وكان لهذا البرج مساهمة عظيمة فى استيلائهم على المدينة.

شعر الأتراك بأنهم قد أحرزوا تقدما هائلاً، عندما انتهوا من تشييد هذا البرج المتميز ، والاستثنائى . وقاموا أيضًا بردم الخندق بالتراب أينما كان ذلك ضروريا(١).

ولم يحدث شئ آخر فى ذلك اليوم، سواء فى البحر أو فى البر، طوال النهار والليل، لكن يبدو من الواجب أن نتذكر أن الأتراك قاموا فى ذلك اليوم، بإطلاق عدد كبير من السهام من مكانهم بالبرج ، باتجاه المدينة، وبدأ أن روحهم المعنوية عالية تمامًا ، بينما كان رجالنا يشعرون بالحزن الشديد ، فضلاً عن الرعب والفزع .

فى يوم التاسع عشر من مايو ، قام أولئك الأتراك الملاعين - المليئيين بالشر والخبث - بعمل جسر عبر الميناء بجوار بيرا باتجاه القسطنطينية ، وله سياج من الأوتاد الخشبية القوية، وقاموا بصنعه مستخدمين البراميل الخشبية الكبيرة بعد صفّها جنبًا إلى جنب ، وعبر استخدام أعمدة خشبية طويلة تمتد من جانب لآخر، تم ربطها وشدها بإحكام لتصنع فى النهاية جسرًا قويًا ومحكمًا(٢).

١- Runciman , Op . cit , p 119 .

٢- عن ذلك الجسر انظر Asik Pasa Oglu, Op. cit , p. 138

ومن أجل معرفة التفاصيل المتعلقة بكيفية صناعة هذا الجسر ، انظر المؤرخ البيزنطى المعاصر للأحداث دوكاس الذى ذكر بأن السلطان محمد الفاتح أمر باقامة جسر امتد من غلطه إلى مكان يقع بالقرب من بوابة Kenegon (Chinigo) . وهكذا تم جمع أكثر من ألف برميل من براميل الخمور الفارغة ، وربطها معًا بالحبال، بحيث يصبح عرضها يساوى طول برميلين ، مكونة صفًا واحداً ، ثم صف آخر مثل الصف الأول، وبعد ذلك تم ربط الصفين معًا عبر الواح خشبية تم تثبيتها بالمسامير ، بحيث يوضع لوح خشبى سميك فوق البراميل . الأمر الذى أدى فى النهاية إلى ايجاد جسر خشبى يكفى عرضه لعبور خمسة من الجنود إلى الجانب الآخر دون صعوبة تذكر انظر.

Doukas , Op. cit , p 219 .

Leonard of Chios , Op. cit, p. 21 ; Riccherio , Op. cit, p. 119 .

انظر أيضًا : Tedaldi , Op. cit, p. 5. الذى يذكر أن زاجان باشا هو الذى قام بتشييد هذا الجسر الخشبى.

قام الأتراك بصنع الجسر على هذا الشكل ليمتد عبر الميناء عند قيامهم بالهجوم الرئيسى والنهائى ، ولكى يجعل هجومهم أكبر تأثيراً ، وأكثر فاعلية، وليجعل أيضاً رجالنا يتوزعون وينتشرون حول المدينة، ومن أجل أن يمنحوا أنفسهم فرصة كبرى لنجاح الهجوم على الجانب البرى، حيث توجد الأسوار التى أصيبت بالأضرار نتيجة قذائف المدافع.

احتفظ الأتراك بالجسر، ولم يقوموا بنصبه قبل الهجوم النهائى، لأن قذيفة مدفع واحدة كانت كفيلة بتحطيمه، وجعله بلا فائدة، ويمكننى القول بأن الهدف الرئيسى من ذلك كان تشتيت جهود رجالنا حول جميع أسوار المدينة . وكان مقرراً للجسر أن يمتد إلى بوابة -Chi mgo، لكنه لم يمتد إلى الجانب الآخر، لأن الأتراك لم يحتاجوا لفعل ذلك.

كان هذا هو كل ما حدث فى البر والبحر هذا اليوم، فيما عدا ما حدث على البر من استمرار قذائف المدفع التى انهمرت ليلاً ونهاراً ، مما أدى إلى تهدم أجزاء من السور وسقوطها أرضاً ، حيث قام رجالنا بترميم واعادة بناء ما تهدم من السور ، عبر استخدام البراميل الخشبية والرمال لجعلها أقوى مما كانت عليه .

وقام الأتراك أيضاً باطلاق عدد ضخم من السهام والقذائف ، وكنّا نعانى يومياً من اطلاقهم للسهام والقذائف ، وكذلك من صياحهم المعتاد .

فى يوم العشرين من مايو، كانت هناك بالكاد هجمات أو مناوشات فى البحر وعلى البر(١)، واستمرت قذائف المدافع المعتادة بطول الأسوار، مما تسبب فى تهدم أجزاء منها، وكنّا نسرع ، نحن المسيحيين ، إلى ترميم واصلاح الأضرار عبر استخدام البراميل الخشبية والأغصان الطرية Withes والرمال، لجعلها أقوى مما كانت عليه من قبل .

وعمل الجميع ، رجالاً ونساءً ، كباراً فى السن ويافعين، وكذلك عمل القساوسة، حيث اشترك الجميع فى ترميم الأسوار بسبب الحاجة الملحة والعاجلة لذلك ، وحتى تكون الأسوار قوية ومنيعة، فقد قامت المدافع بتجريد المدينة كلها من دفاعاتها .

امتازت المدافع بكبر حجمها بشكل واضح ، وكان لأحدها حجم ضخم بشكل استثنائى ونادر، يلقى بقذيفة يبلغ وزنها ألف ومائتى رطل. وعندما يقوم باطلاق القذيفة ، فإن صوت انفجارها يجعل كافة أسوار المدينة ، والأراضى الداخليه بها تصاب بالارتجاج، حتى السفن

١- انظر : Nicol , Op. cit , p. 403 .

فى الميناء تشعر أيضًا بالاهتزاز من جراء ذلك. وبسبب الضجة الهائلة التى أحدثها هذا المدفع ، فإن العديد من النسوة قد أغمى عليهن جراء الصدمة التى سببتها عملية اطلاق القذائف . ولايوجد مدفع آخر أضخم من ذلك المدفع[١]، الذى قام بتحطيم أجزاء كبيرة من أسوار المدينة ، ولم تجر أية أحداث أخرى فى ذلك اليوم.

فى يوم الحادى والعشرين ، وقبل الفجر بساعتين، تحرك الأسطول التركى، الذى كان راسيًا عند الأعمدة ، عبر التجديف بنشاط وحيوية، حتى اقترب من سلسلة الميناء، وانطلقت أصوات الصنج النحاسية والدفوف فى ضجة هائلة، من أجل بث الرعب فى قلوبنا ، ثم توقفت سفنهم عندما اقتربت من السلسلة ، وكنا نحن البحارة ننتظرهم فى شجاعة أن يقوموا بشن هجوم على اسطولنا . فقد كنا جميعًا مسلحين ومستعدين بشكل جيد، وخاصة السفن العشر الواقفه عند السلسلة[٢]، التى كانت منظمة، ومجهزة تمامًا استعدادًا للهجوم التركى .

١- عن المدافع العثمانية ، وخاصة المدفع العملاق . انظر ما ذكره باربارو سابقًا ، عن أحداث يوم الحادى عشر من أبريل ١٤٥٣م، ص١١٨ ، وانظر الهامش رقم (١) انظر أيضًا : Dolfin, Op. cit , p. 127

حيث يذكر أن المدفع العملاق كان ضخمًا للغاية ، ونظرًا لوجود صعوبة فى نقله، فقد تم ذلك عبر تفكيك أجزائه ، ليكون من السهل حمله ونقله إلى المكان المراد نصبه به .

انظر أيضًا المؤرخ البيزنطى دوكاس الذى يذكر أنه «عندما كانت تنطلق قذيفة المدفع، فإنها تقوم بتحطيم الأسوار واصابتها بالارتجاج . وأن العثمانيين كانوا يستمرون فى اطلاق قذائف المدفع على نفس المكان الذى أطلقت عليه القذائف السابقة . إلاّ أنهم استفادوا بعد ذلك من نصيحة سفير حنا هونيادى ;John Hunyad ، الذى سخر من تلك الطريقة فى التصويب وأسداهم النصح بأنهم إذا ما آرادوا حقيقة اسقاط الأسوار بسهولة ، فيجب عليهم أن يسددا القذائف نحو جزء آخر من السور يبعد عن القذيفة الأولى مسافة ثلاثين إلى ست وثلاثين ياردة . وبعد أن يتم ذلك بشكل متقن ، يجب آن يطلقوا القذيفة الثالثة على نقطة ثالثه . وعندما تكوّن النقاط التى سقطت عليها القذائف شكل مثلث، سوف يصبح سقوط هذا الجزء من السور أكثر سهولة »، انظر.

Doukas, Op. cit , p. 216 .

وتوجد صوره فوتوغرافية للمدفع العملاق الذى استخدمه العثمانيون لدى: عبد الرحمن فهمى، المرجع السابق، شكل (٨) .

٢- عن التفاصيل الخاصة بتلك السفن العشر وحمولتها. انظر ما سبق ص١١٧-١١٨ .

ويدا أنهم سوف يقومون بالهجوم ، على الرغم من وجود عدد كبير من الرجال المسلحين على متن سفننا. وبمجرد اقتراب سفنهم من السلسلة، انطلقت صيحات التحذير عبر أرجاء المدينة كلها، معتقدين أن هذا اليوم هو يوم الهجوم التركى العام والنهائى .

وعندما دقّت نواقيس الخطر وانطلقت صفارات الانذار، اندفع جميع سكان القسطنطينية لحمل السلاح ، وتوجه كل شخص للوقوف فى المكان الخاص به، والذى تم تحديده من قبل بواسطة الامبراطور الأجلّ (١).

عندما لاحظ الأسطول التركى أننا فى غاية التنظيم والاستعداد ، وسمع التحذيرات تتردد بوتيرة واحدة عبر كافة جنبات المدينة كلها، تكوّن لديهم رأى آخر. فاستدارت السفن فجأة ، وعادت إلى مرساها عند الأعمدة.

وهكذا ، فبعد ساعتين من شروق الشمس ، كان الهدوء قد لف المعسكرين ، نتيجة عدم حدوث الهجوم البحرى . وعند ظهر ذلك اليوم ، عثرنا فى المدينة على نفق تحت Calegaria، قام الأتراك بحفره تحت أساسات الأسوار لينفذ إلى المدينة، وذلك بنية اقتحامها، ومباغتتنا ذات ليلة بشكل مفاجى(٢).

ولم يكن ذلك بالأمر الخطير، فعندما اكتشف رجالنا هذا النفق، توجهوا لاشعال النيران بداخله ، وأدرك الأتراك فى الخارج أننا ننوى اشعال النار به، وبالفعل اشتعلت النيران داخل جانبى النفق، وكانت النتيجة أن ربحنا موقعة النفق. وكان هذا مصدر فخر لنا، إذ تجنّبنا خطورة ما كان يمكن أن يحدث .

وفى نفس هذا اليوم أيضًا قام الأتراك بدك الأسوار الضعيفة بالقذائف بشكل رهيب (٣)، وتم اسقاط العديد منها أيضًا ، كذلك سقط أحد أجزاء البرج، وقمنا بسرعة بعملية ترميم ناجحة باستخدام البراميل الخشبية ، والمواد الأخرى اللازمة لذلك.

وهكذا جرت أحداث عديدة فى البحر وعلى البر، وعندا المساء كانت جهودنا قد نفذت تمامًا نتيجة للمشاكل التى تعرضنا لها.

١- عن ذلك انظر : Nicol, Op. cit , p. 403 .

٢- عن ذلك انظر : Runciman , Op. cit, pp. 118-119 .

٣- انظر : Tursun bey , Op. cit, p. 53 .

فى يوم الثانى والعشرين من مايو ، وعند ساعة الـ Compline (١)، عثرنا على نفق آخر قام الأتراك بحفره تحت أساسات الأسوار عند Calegaria ، ويقع بالقرب من النفق الذى تم اكتشافه فى اليوم السابق، وتم حفره بنفس الطريقة .

قام رجالنا باضرام النيران بداخل النفق، وأحرقوه بشجاعة وفخر، واحترق العديد من الأتراك بداخل النفق، أولئك الذين كانوا بداخله ولم يستطيعوا الخروج بسرعة كافية .

وفى نفس اليوم أيضًا ، تم اكتشاف نفق آخر فى نفس المكان عند Calegaria، حيث لم تكن هناك تحصينات خارجية .

وكان اكتشاف هذا النفق من الصعوبة بمكان ، لولا رحمة الرب التى منحنا اياها، لذلك كان يجب أن تفشل خططهم، وأن يقتل كافة الأتراك الموجودين بالنفق .

ولتوضيح الطريقة التى استخدمها الأتراك لحفر الانفاق ، يمكن القول أنه قد تم حفرها فى باطن الأرض واتخذ الرجال طريقهم عبر الرمال بواسطة دعامات متينة من الخشب الصلب، حتى تمكنوا من الوصول إلى أساسات الأسوار، ثم قاموا بالحفر تحتها ، واستمروا بالحفر تحت الأرض داخل المدينة. وكانت تلك هى الطريقة التى قاموا بحفر الانفاق من خلالها .

وفى الساعة الأولى من ليلة الثانى والعشرين من مايو ظهرت علامة عجيبة ومدهشة فى السماء، كى تخبر قسطنطين ، امبراطور القسطنطينية الجدير بالاحترام والاجلال، أن امبراطوريته المتغطرسة ، قد شارفت على نهايتها، وهو ما حدث بالفعل جاءت العلامة على هذا الشكل: ففى الساعة الأولى بعد الغروب، كان القمر مكتملاً (بدرًا) على شكل دائرة كاملة ، لكنه تحول كما لو كان قمرًا عمره ثلاثة أيام، ولم يظهر إلا جزء صغير منه على الرغم من أن الجو كان صافيًا، ولاتوجد به أية غيوم ، فقد كان الجو نقيًا كالبللور .

واستمر القمر على هذا النحو لمدة أربعة ساعات ، وتدريجيًا آخذ حجمه فى الزيادة ليكوّن دائرة كاملة، وهكذا ففى الساعة السادسة من الليل، كان القمر قد اتخذ صورته الكاملة.

وعندما شاهدنا نحن المسيحيين ، وكذلك الكفار ، تلك العلامة العجيبة والمدهشة، شعر امبراطور القسطنطينية ونبلاؤه بالانزعاج الشديد، لأن البيزنطيين كانت لديهم نبوءة تذكر أن

١- ساعة Compline هى ساعة الصلاة السابعة والأخيرة فى المساء وقبل النوم.

القسطنطينية لن تسقط حتى يعطى القمر المكتمل (البدر) علامة على ذلك (١).

وكان هذا هو السبب فى الخوف الذى اعترى البيزنطيين. لكن الأتراك أقاموا احتفالاً كبيراً فى معسكرهم ، ابتهاجًا وفرحًا بهذه العلامة ، لأنهم اعتقدوا أن النصر قد أصبح الآن فى متناول أيديهم . وهو ما حدث بالفعل .

عند فجر يوم الثالث والعشرين من مايو. ثم اكتشاف نفق عند Calegaria بالقرب من مكان وجود الأنفاق الأخرى التى تم اكتشافها من قبل . ولمعلوماتكم ، فإن Calegaria تقع بالقرب من قصر الامبراطور، وعندما وجدنا هذا النفق ، قمنا بسرعة باشعال النيران به، فانهار النفق فى الحال(٢) واختنق عدد من الأتراك الذين كانوا بداخله .

١- عن تلك النبوءة الخاصة بسقوط القسطنطينية ، وكذلك الروايات الأخرى المتعلقة بهذا الأمر، انظر ما سبق ص١٢٨ هامش(١) .

والحقيقة أن سكان القسطنطينية من البيزنطيين واللاتين أصيبوا بالرعب، والهلع الشديد، نتيجة احساسهم بقرب نجاح العثمانيين فى اقتحام المدينة، وكثرت الرؤى والنبوءات التى تتحدث عن ذلك، ولدينا وصف لأحد المصادر اللاتينية يعبر عن حالة الفزع والهلع التى أصابت الناس وتفكيرهم آنذاك «... اضطربت أذهان وأفكار الناس نتيجة قسوة ووحشية المصير الرهيب الذى بدأت نذره فى الظهور تلك الأيام ، سواء فى السماء أو على الأرض أو فى البحر ، فلعدة أيام سابقة – على اقتحام القسطنطينية – المحار الذى كان يتم جمعه من البحر، يقطر بالدماء عند فتحه . وظهرت فى السماء العديد من السنة اللهب ، الاضواء الساطعة بالإضافة إلى هزيم الرعد. وخيّم الظلام ، وأبرقت السماء بالرعود والصواعق ، وهبت العواصف العاتية على الأرض، وحدثت زلازل هددت بتخريب وتدمير المنازل ، وبات من الواضح أن الدمار والخراب النهائى للعالم قد اسبح على وشك الحدوث ، وانتشرت الاشاعات بأن الأفعى الوحشية الهائلة قد حضرت لتنشر الخراب فى القرى، وتقوم بالقضاء على قطعان الماشية وأسراب الأغنام ، ولهذا السبب تخلى الفلاحون عن محاريثهم ، وأهملوا محاصيلهم التى سبق جمعها من الحقول بعد أن قامت الأفعى الهائلة بمهاجمة الجميع عبر لفحهم بأنفاسها النارية». عن ذلك انظر.

Dolfin, Op. cit, p. 129 .

٢- انظر: Runciman Op. cit , pp. 119-120 .

حيث يذكر أن المهندس جرانت Grant كان يقف بالمرصاد لكل نفق يقوم العثمانيون بحفره وأن جهوده ساهمت فى اكتشاف العديد منها، وكذلك فى مهاجمة الأتراك داخل تلك الانفاق ، واشعال النيران بها. مما أدى إلى مصرع الكثيرين منهم حرقًا وخنقًا .

وقام البيزنطيون بأسر رجلين من الأتراك الذين كانوا بداخل النفق، وقاموا بتعذيبهما، وعرفوا منهما مكان باقى الانفاق التى تم حفرها ثم قاموا بقطع رأسيهما وجرى قذف جثتيهما من فوق الأسوار، باتجاه الجانب التركى. وما أن شاهد الأتراك ذلك حتى تميزوا من الغيظ الغضب، وشعروا بكراهية شديدة تجاه البيزنطيين، وتجاهنا نحن .. الايطاليين.

وفى نفس هذا اليوم أيضًا، وقبيل الفجر بساعة ، قدمت سفينة من نوع Bregantino تبدو فى شكلها الخارجى كسفينة تركية ، كانت قد أبحرت نحو الدردنيل، وكانت هى السفينة الوحيدة التى تم ارسالها إلى الأرخبيل لمقابلة اسطولنا [١]، وابلاغه ضرورة الحضور بأقصى سرعة ، لأن القسطنطينية ما زالت تقاوم ببسالة .

وما إن شاهد الأسطول التركى، الذى كان راسيًا عند الأعمده، تلك السفينة ذات الصاريين brig ، هى تقترب مجدّفة بقوة ، أدرك أنها تابعة لنا، وليست سفينة تركية .

وهكذا، قام الأسطول بالتحرك من مكانه ، وتوجه نحوها، وعندما شاهد السلسلة وهى تفتح، والسفينة تدخل الميناء بسلام ، قامت سفن الأسطول التركى بالعودة مرة أخرى، والرسو فى مكانها المعتاد .

وفى تلك الأثناء ، كان جميع الرجال الموجودين على متن أسطولنا فى مواقعهم ، ومسلحين بالطريقة المعتادة، خشية مهاجمة الأسطول التركى للسلسلة . وانتظرنا بهذه الطريقة حتى بعد الفجر بساعة ونصف . وعندها وضعنا أسلحتنا جانبًا . ولم تحدث أشياء مهمه ذلك اليوم، سوى ما حدث من حالة استنفار عام فى المدينة، ومن حديث الناس فى الميناء حول الخوف من الأسطول التركى ، كما أسلفنا سابقًا .

ثم انهمرت القذائف على أسوار القسطنطينية ، وتهاوت بعض أجزاء السور، وقمنا بترميمها بسرعة ، وهكذا كان هذا اليوم مليئًا بالعمل، والأخطار ، سواء فى البحر، أم فى جانب المدينة المواجه للأعداء.

١- انظر : . Nicol, Op. cit, p. 403

وكانت هذه السفينة قد أبحرت من القسطنطينية فى منتصف ليلة الثالث من مايو، تحت علَم السلطان محمد الفاتح ، ويرتدى بحارتها زى البحارة الأتراك من أجل خداع السفن التركية، والوصول إلى الارخبيل لمقابلة الأسطول البندقى المزعوم. عن ذلك انظر ما سبق ص١٤٢-١٤٤ .

في ظهيرة يوم الرابع والعشرين من مايو ، تم اكتشاف نفق آخر، مجاور للأنفاق الأخرى عند Calegaria، وقام الأتراك الملاعين بتشييد نصف برج على دعامات وأعمدة، يبعد عن السور بعشر خطوات ، من أجل القيام برمى النيران إلى الداخل، ومن ثم دخول المدينة . لكن الرب لم يرد لنا أن نقاسى من الشر والأذى فى ذلك الوقت، ولم يشأ أن تسقط المدينة بهذه الطريقة .

عندما عثر البيزنطيون على ذلك النفق الأخير، بدأوا فى اعمال الحفر، وقاموا باحاطته بجدار ملاصق له ، فأصبح المكان محصنًا كما كان من قبل، ولهذا فلم يعد هناك مبرر للخوف.

وفى هذا اليوم قام الأتراك بهجمات عنيفة على أسوار المدينة، عبر استخدام قذائف المدفع والبنادق ، وأعداد لاتحصى من السهام، ولهذا فقد عانينا بالفعل من يوم سئ للغاية . ولم نعان من أية أخطار فى البحر ، وعلى الرغم من هذا، فقد وقفنا مستعدين ، حاملين أسلحتنا خوفًا من أسطولهم ، إذا ما قام بالهجوم علينا دون سابق انذار .

حدث فى ذلك اليوم احتفال كبير فى المعسكر التركى، استخدمت فيه الموسيقى، وكثُر فيه المرح والصخب ، لأن الأتراك أدركوا أنهم قد اقتربوا من القيام بالهجوم الكبير والنهائى .

فى يوم الخامس والعشرين من مايو ، وفى ساعة صلاة الغروب Vespers ، تم اكتشاف نفق آخر فى نفس منطقة Calegaria بالقرب من الانفاق الأولى. وكان هذا النفق محصنًا ، وفى منتهى الخطورة بالفعل، لأنهم قاموا بوضع دعامات وأعمدة خشبية تحت جزء من السور، لكى يقوموا باشعال النيران من جانبهم، ومن ثم ينهار النفق، وبعد ذلك يتمكن الأتراك من النفاذ إلى داخل المدينة ، والاستيلاء عليها دون صعوبة .

كان هذا هو النفق الأخير الذى قاموا بحفره ، والأخير الذى تم العثور عليه، وكان أكثر خطورة من أية أنفاق أخرى تم اكتشافها .

فى نفس هذا اليوم ، قامت القذائف التركية الثقيلة بتهديم جزء كبير من الأسوار ، وقمنا بترميمها بسرعة وبشكل جيد ، عبر استعمال البراميل الخشبية والرمال ، كذلك أطلقوا باتجاهنا أعدادًا لاحصر لها من السهام.

ولم يقم الأسطول التركى بأية تحركات جديدة . كذلك الأمر بالنسبة لأسطولنا ، فيما عدا وقوف رجالنا على متن السفن والشينيات ، حاملين الأسلحة ليلاً ونهارًا .

فى يوم السادس والعشرين من مايو ، وبعد الغروب بساعة ، قام الأتراك باشعال النيران التى توهجت وأضاءت معسكرهم بأكمله ، وقامت كل خيمة فى معسكرهم بايقاد نار كبيرة

أمامها. وكان ضوء النيران ساطعًا لدرجة تجعل المرء يعتقد أن ضوء النهار قد بزغ. واستمرت تلك النيران مشتعلة حتى منتصف الليل(١).

وكان السلطان قد أمر بإيقاد النيران فى المعسكر من أجل استثارة حماسة رجاله، لأن الوقت قد أزف لتدمير المدينة، ومن أجل القيام بالهجوم النهائى.

وكما قام الكفار بإشعال النيران، بدأوا فى الصياح حسب الطريقة التركية (٢)، وهكذا بدا كما لو أن السماء نفسها قد انشقت. وكانت المدينة كلها تعيش حالة من الذعر والهلع، وكان كل شخص يبكى ويصلى للرب، ولمريم العذراء، من أجل تحاشى غضب الكفار الشديد(٣).

إننى لا أستطيع أن أصف مقدار الأضرار التى أحدثها المدفع فى أسوار بوابة القديس رومانوس (٤)، خاصة تلك التى أحدثها المدفع الضخم، وهكذا ففى ذلك الوقت كانت معاناتنا كبيرة، وكنا نشعر بالخوف الشديد. وعلى الصعيد البحرى لم يحدث شئ يستحق الذكر، فيما أننا شاهدنا الأسطول التركى وهو يحتشد فى موقعه.

١- انظر: . Leonard of Chios, Op. cit, p. 33 ; Doukas, Op. cit, pp. 220-221

٢- لابد أن العثمانيين كانوا يبتهلون إلى الله أن ينصرهم وأن يفتح القسطنطينية عليهم، ولابد أن أنهم استخدموا صيحات باللغة العربية مثل «الله أكبر» وغيرها، ويذكر أحد أهم المصادر اللاتينية أنهم كانوا يصيحون «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» ويفسرها بأن الله موجود، وسوف يستمر إلى الابد، وأن محمد هو خادمه. ويذكر أن من يستمع إلى صيحات الأتراك العالية، سوف ينعقد لسانه، ويصاب بالدهشة والذهول. انظر : Leonard of Chios, Op. cit, pp. 33, 36.

وانظر كذلك : Tursun bey, Op. cit, p 55.

٣- انظر : Doukas, Op. cit, p 220

حيث يذكر أن مشهد اشعال العثمانيين للنيران العالية، الكثيفة، وصيحاتهم العالية، والجلبة والضوضاء المصاحبة لتحركات القوات العثمانية، كل ذلك قد أثر بشكل كبير على سكان القسطنطينية وحسب تعبيره «اجتاحت الرعدة أوصالهم، فلم يتمكنوا من التقاط أنفاسهم بسهولة».

٤- كانت بوابة القديس رومانوس St. Romanus، أكثر الأماكن تعرضًا لقذائف مدفعية العثمانيين، الأمر الذى جعلها أكثر الأماكن ضعفًا، وكان سورها هو الأضعف بين الأسوار، لسابق نجاح الأتراك فى هدم الجزء الأكبر منه، انظر:

Tedaldi, Op. cit, p. 7

في يوم السـابع والعشرين من مـايو، استمر الأتراك الملاعين في اطلاق القذائف طوال الليل، كما فعلوا في الليلة الماضية ، فاستمر انطلاق القذائف حتى منتصف الليل، بالإضافة إلى صياحهم البغيض للغايه ، الذى وصل إلى مقربة من ساحل الأناضول Anatolia ، على مسافة اثنتى عشر ميلاً ، وشعرنا ، نحن المسيحيون بالذعر، واستمر هذا الشئ الفظيع طوال اليوم ، لكنهم طوال اليوم التالي، لم يقوموا بفعل شئ سوى قذف الأسوار الضعيفة ، وطرح أجزاء منها أرضًا ، وكان نصف الأسوار قد أصابته أضرار بالغه . ولم يحدث شئ في البحر يستحق الذكر، وهذا هو كل ما حدث في هذا اليوم وهذه الليلة .

في يوم الثامن والعشرين، أصدر السلطان التركي تعليمات بتشغيل أصوات الأبواق عبر كافة أرجاء المعسكر. وخشية التعرض لعقوبة الاعدام ، كان على باشواته Pashas وضبّاطه ، وباقي قادته ، والرجال من كافة المستويات الاجتماعية الذين حكمهم الأتراك، كان عليهم جميعًا أن يكونوا مستعدين في مواقعهم طوال اليو م، لأن السلطان قد انتوى أن يقوم في الغد بالهجوم النهائي على المدينة البائسة .

عندما سرت تلك الأوامر عبر المعسكر، توجه الجميع نحو مواقعهم بأقصى سرعة ممكنة، وطوال بقية ذلك اليوم ، من الفجر حتى آخر الليل. لم يقم الأتراك بأية تحركات فيما عدا احضار سلالم طويلة للغاية تستعمل في تسلق الأسوار، من أجل استخدامها في اليوم التالي، حيث سيبلغ الهجوم ذروته ، كان هناك ألفان من تلك السلالم ، وبعد ذلك قاموا بجلب عدد ضخم من الحواجز الخشبية لحماية الرجال الذين سيقومون بارتقاء السلالم حتى الأسوار.

عندما تم الانتهاء من ذلك كله ، قام الأتراك باطلاق أصوات الأبواق عبر معسكرهم وكذا أصوات الصنج النحاسية ، والدفوف ، من أجل استثارة حماسة وشجاعة الجنود، وأخذوا في الصياح «يا أبناء محمد، لتفرحوا وتبتهجوابشدّة، ففي الغد سوف يسقط العديد من المسيحيين في قبضتنا ، وسوف نقوم ببيعهم كالعبيد، كل اثنين منهم مقابل دوكات ducat بندقية واحدة ، وسوف نصبح أثرياء للغاية لأننا سنقوم بالاستيلاء على كافة كميات الذهب الموجود بالمدينة. وسوف نصنع من لحى البيزنطيين مقاود لكلابنا ، وسوف تكون زوجاتهم وأبنائهم عبيداً لنا. لذلك كله يجب أن تبتهجوا بشدة يا أبناء محمد ويجب أن تكونوا مستعدين للموت بقلوب لاتخشى الردى، إذا كنتم تحبون محمد !».

وهكذا توجه الأتراك الكفار نحو معسكرهم ، ممتلئين شجاعة وحماسة .

وفيما بعد ، تم النداء فى معسكرهم ، بأن كل تركى ، يجب أن يقف ويتحرك ، وأن يقوم بتنفيذ أوامر ضباطه مهما كانت وإلا فإن الموت هو مصيره . وبمجرد حلول المساء، توجه الأتراك جميعًا ، منظمين بشكل جيد، نحو مواقعهم برفقة أسلحتهم ، وأكوام ضخمة من السهام.

عندما حل المساء. كانوا قد وصلوا جميعًا إلى مواقعهم ، متمتعين بقلوب ملؤها الشجاعة، ومتلهفين على الاشتراك فى المعركة، وقاموا جميعًا بالصلاة تجاه محمد لمساعدتهم على النصر(١).

فى هذا اليوم – الثامن والعشرين من مايو– قام الأتراك بإطلاق القذائف بقوة على الأسوار الضعيفة ، بشكل لم يحدث من قبل فى هذا العالم، واستخدموا هذا الأسلوب ، لأنه كان يومهم الأخير فى اطلاق القذائف.

وفى هذا اليوم أيضًا ، قمنا نحن المسيحيون برفع ما يعادل حمولة سبع عربات نقل Car-load من الستائر الواقية النقالة Manetlets، لوضعها عند الأسوار ذات الفتحات العلوية، التى يطلق منها النيران فى أعلى الأسوار البرية.

عندما تم عمل وتجهيز تلك الأستار النقالة ، تم احضارها إلى الساحة Piazza ، وأصدر البايل Bailo البندقى أوامره للبيزنطيين بضرورة حملها إلى الأسوار فى الحال، لكنهم رفضوا القيام بذلك إلا بعد أن يتقاضوا ثمن ذلك مقدمًا.

وحدث جدال ذلك المساء ، لأننا نحن البنادقة أردنا أن يتم الدفع مباشرة لأولئك الذين سيقومون بحملها ، أما البيزنطيون فانهم لم يوافقوا على دفع الأموال.

وأخيرًا ، وعندما تم نقل الستائر الواقية النقالة إلى الأسوار ، كان الوقت ليلاً، ولم يستطع الرجال وضعها على الأسوار ذات الفتحات العلوية، وهكذا لم نستطع استخدامها بسبب جشع وطمع البيزنطيين .

١– هنا يسقط نيقولو باربارو المسيحى الكاثوليكى، أفكاره المسيحية على الدين الإسلامى، فهو يعتقد أن العثمانيين المسلمين توجهوا بالصلاة إلى سيدنا محمد لمساعدتهم على النصر، وهو هنا يتصور أن المسلمين يصلُّون إلى محمد كما يصلى المسيحيون إلى يسوع، غير مدرك للفارق الضخم بين الذهنية الغربية المسيحية والذهنية الشرقية الإسلامية «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل». آل عمران / ١٤٤ . وأن المسلمين يتوجهون بصلواتهم فقط نحو الله سبحانه وتعالى.

وعند الظهيرة، أمر البايل كافة البنادقة بضرورة التوجه نحو الأسوار على الجانب البرى، من أجل محبة الرب، واكراماً للقسطنطينية، ودفاعاً عن شرف الدين المسيحى.

وأطاع كل بندقى أوامره بقلب مفعم بالاخلاص ، وأصبح الجميع مستعدين للموت فى مواقعهم ، وكان كل شخص يحمل بين جوانحه قلباً مخلصاً قد أطاع أوامر البايل، وقمنا بتنظيم أنفسنا ، كأفضل ما يكون . وبنفس الطريقة كان الأسطول مستعداً ، وبشكل خاص السفن والشوانى وسلسلة الميناء.

امتطى السلطان التركى جواده برفقة عشرة آلاف فارس، واتجه ناحية أسطوله الراسى عند الأعمدة ، ليقوم بتفقده ، وجعله فى حالة استعداد للهجوم النهائى فى اليوم التالى. وقام السلطان باتخاذ الترتيبات مع قائده البحرى، حول أسلوب الهجوم الذى ينبغى استخدامه . وعندما تم الانتهاء من تلك الترتيبات ، شعر السلطان ومعه قائده البحرى، وكافة جنوده بالفرح والابتهاج ، وبدأ الجميع فى الشراب والسكر طبقاً لعادتهم (١).

بعد أن قام السلطان بتفقد الأسطول ، قفل عائداً إلى معسكره ، وهو فى حالة من الابتهاج، وطوال اليوم كان صوت الناقوس Tocsin يدق فى المدينة ، من أجل أن يدفع بكل شخص إلى موقعه ، كذلك قام النساء والأطفال بحمل الأحجار نحو الأسوار، لوضعها فى الشرفات ذات الفتحات أعلى الأسوار ، لكى يمكن قذفها إلى أسفل فوق الأتراك . وكان كل شخص فى المدينة ، يبكى من الخوف الشديد الذى يشعر به الأتراك.

بعد حلول الظلام بساعة ، بدأ الأتراك فى إيقاد نيران هائلة فى معسكرهم ، أكبر من تلك التى قاموا بإيقادها فى الليلتين السابقتين ، وأكثر استعاراً ، وكان صراخهم وصياحهم أعلى من آن نستطيع نحن المسيحيين تحمله ، وبالإضافة إلى صراخهم قاموا بإطلاق القذائف بأعداد كبيرة من المدافع والبنادق ، وقذفوا بأحجار لاحصر لها ، حتى بدأ لنا أن ما يحدث لهو الجحيم بعينه .

١- لم يرد لدينا من المصادر ما يدل على أن السلطان محمد الفاتح كان يشرب الخمر، ويبدو - مرة أخرى- أن باربارو يسقط أفكاره الغربية على الأتراك العثمانيين المسلمين .

استمرت هذه الاحتفالات حتى منتصف الليل، عندما خبت النيران، وطوال ذلك النهار والليل، أخذ الكفار الوثنيون فى الصلاة إلى محمدهم [1]. من أجل أن يجلب لهم النصر، ولأجل غزو مدينة القسطنطينية ، أما نحن المسيحيين ، فظللنا طوال النهار والليل نصلى للرب، ولوالدة الرب، ولكافة القديسين فى السماوات . كنا نصلى ونبتهل بالدموع إليهم من أجل أن يقوموا بمنحنا النصر، وأن نفرّ من وجه أولئك الكفرة الملاعين الذين يتملكهم الغضب الشديد.

وبينما أخذ كل طرف يصلى من أجل تحقيق النصر ، هم توجهوا نحو الههم ، ونحن توجهنا ناحية الرب ومريم العذراء والقديسين، كان ربنا فى السماوات قد قرر – مع والدته– أى من الطرفين يجب أن ينتصر فى هذه المعركة، التى تميزت بعنفها الشديد، تلك المعركة التى ستضع أوزارها فى اليوم التالى.

فى يوم التاسع والعشرين من مايو ، آخر أيام الحصار ، كان الرب قد اتخذ قراره ، مع وافر الأسى والأسف للبيزنطيين ، لقد أراد الرب للمدينة أن تسقط هذا اليوم فى قبضة محمد بك التركى ابن مراد ، بطريقة أو بأخرى، وبالأسلوب الذى سيتم ايضاحه لاحقًا .

كذلك فإن الرب الخالد أراد أن يحدث هذا ، كى تتحقق كافة النبواءت القديمة ، وبشكل خاص النبوءة الأولى التى قال بها القديس قسطنطين ، عندما كان على صهوة جواده عند العمود الكائن بالقرب من كنيسة القديسه صوفيا فى هذا المدينة ، حيث تنبأ وأشار بيده قائلاً «من هذه الناحية ، سوف يقبل الشخص الذى سيقضى علىّ » وكان يشير باتجاه الأناضول Anatolia التى تعنى الآن تركيا Turkey[2].

لقد اتخذ الرب قراره هذا لكى تتحقق كافة النبوءات من ذلك نبوءة أخرى تذكر أنه عندما يحكم المدينة امبراطور يدعى قسطنطين ابن هيلينا Helena، سوف تسقط المدينة خلال فترة حكمه. بالإضافة إلى ذلك كانت هناك نبوءة ثالثة تذكر أنه عندما يُحدث القمر علامة فى السماء، فإن الأتراك– وخلال عدة آيام– سوف يتمكنون من المدينة .

١– مرة أخرى يبرز لدى المؤلف نيقولو باربارو خلطًا وتشويشًا كبيرًا عن العقيدة الإسلامية . انظر ما سبق ، ص١٦٥ ، هامش (١).

٢– عن تلك النبوءة والنبوءات الأخرى المتعلقة بسقوط القسطنطينية . انظر ما سبق ، ص١٢٨، هامش (١) ، ١٢٩ ، ١٥٩ ، ١٦٠، هامش (١) .

وحدثت جميع تلك النبوءات الثلاث ، فقد نفذ الأتراك إلى بلاد اليونان Greece وكان هناك امبراطور يدعى قسطنطين ابن هيلينا ، وكذلك أحدث القمر علامة فى السماء. ولهذا كله ، اتخذ الرب قراره ضد المسيحيين ، وبشكل خاص ضد امبراطورية القسطنطينية، كما سوف ترون بعد قليل.

فى يوم التاسع والعشرين من شهر مايو عام ١٤٥٣م . وقبل الفجر بثلاث ساعات[١]، حضر محمد بك ابن مراد بنفسه إلى أسوار القسطنطينية لبدء الهجوم النهائى الذى استولى بمقتضاه على المدينة. وقام السلطان بتقسيم قواته إلى ثلاث فرق ، تكون كل منها من خمسين ألف رجل[٢]، تألفت الفرقة الأولى من المسيحيين الذين احتفظ بهم السلطان فى معسكره ، والفرقة الثانية كانت من الرجال الذين جاءوا من مكانة اجتماعية منخفضة ، كالفلاحين وغيرهم بينما تألفت الفرقه الثالث من الانكشارية Janissaries أصحاب العمامات البيضاء[٣].

كان هؤلاء هم كل جنود السلطان الذين يدفع لهم المال بشكل يومى، وكان الجميع مسلحين بشكل جيد ، ويتميزون بالشجاعة فى القتال. وخلف الانكشارية كان يوجد باقى الجنود، وكان السلطان التركى موجوداً خلف قواته.

١- انظر ك Nicol , Op. cit, p. 403 الذى يتفق مع باربارو فى توقيت بدء الهجوم التركى ، بينما يذكر المؤرخ البيزنطى المعاصر كريتوفوليس أن الهجوم بدأ فى الساعة الواحده والنصف صباحاً . انظر: -Krit ovoulos, Op. cit , pp. 66-67 واعتمد على ذلك أيضاً البروفسير رنسمان انظر : -"The Fall of Con stantinople" ولانرى تناقضاً فى ذلك إذا ما كان فجر التاسع والعشرين من مايو ١٤٥٣م قد بزغ فى الساعة الرابعة والنصف صباحاً .

٢- ذكر المؤلف نيقولو باربارو من قبل فى يومياته عن يوم الخامس من أبريل ١٤٥٣م، أن محمد الفاتح حضر أمام أسوار القسطنطينية وتحت لوائه مائة وستين ألف مقاتل، انظر ما سبق، ص١١٣ ، وانظر مناقشة أعداد الجيش التركى المحاصر فى نفس الصفحة ، هامش (١) .

وربما كان العشرة آلاف جندى الباقين ملازمين للمعسكر التركى ويقومون بأعمال الحراسة وطهى الطعام، والعناية بالخيول فضلاً عن الدعم اللوجستى للقوات المهاجمة.

٣- مثّل جنود الانكشارية العمود الفقرى للجيش التركى ، والعامل المؤثر فى فتح القسطنطينية ، للمزيد عنهم وعن دورهم العسكرى ، انظر ما سبق ، ص١٢٢ بالإضافة إلى هامش (١) ، ص١١٤ .

كانت مهمة المجموعة الأولى التى تألفت من المسيحيين هى حمل السلالم ونصبها على الأسوار، كما حاولوا صعود السلالم حتى أعلى الأسوار. وفى الحال قمنا بطرحهم أرضًا بواسطة رجالنا الذين وضعوا نهاية لهم، فقُتلوا جميعًا فى الحال. وقمنا بقذفهم بأحجار ضخمة من الفتحات العلوية بالأسوار، وربما ظل عدد منهم على قيد الحياة. وفى الحقيقة لقد تم قتل كل شخص نجح فى الاقتراب من الأسوار.

وعندما شاهد أولئك الذين كانوا يحاولون صعود الأسوار مقتل العديد منهم، حاولوا التراجع والتقهقر باتجاه معسكرهم ، حتى لايقعوا صرعى للأحجار .

وعندما شاهدهم باقى الأتراك وهم يهّمون بالهرب ، قاموا فى الحال- وبواسطة سيوفهم بتمزيق بعضهم إربًا إربًا ، وقاموا بدفعهم ثانيةً باتجاه الأسوار. وهكذا فقد كان لديهم فقط حق اختيار الموت، بواسطة أحد الطرفين !

عندما تم تشتيت شمل الفرقة الأولى، بدأت الفرقة الثانية فى القتال بشجاعة . وكان قد تم وضع الفرقة الأولى فى المقدمة لسببين ، الأول لأن الأتراك فضّلوا أن يُقتل المسيحيون على أن يقتل الأتراك . والثانى من أجل ارهاقنا واصابة قواتنا خارج المدينة بالانهاك . وهكذا فعندما سقط أفراد الفرقة الأولى ما بين قتيل وجريح ، تقدم رجال الفرقة الثانية كالأسود التى تحررت من سلاسلها ، لمهاجمة الأسوار فى منطقة القديس رومانوس .

وعندما شاهدنا ذلك الحدث المرعب (الهجوم العنيف للفرقة الثانية) ، دق ناقوس الخطر فى الحال عبر كافة أرجاء المدينة ، وفى كل موقع دفاعى أعلى الأسوار. وأخذ كل شخص فى الجرى وطلب المساعدة. وأظهر لنا الرب الخالد رحمته ضد الأتراك[1] . وهكذا هرول جميع الرجال من أجل صد هجوم الكفرة الوثنيين ، الذين بدأوا فى التراجع خارج الحصون الأمامية.

تألفت الفرقة الثانية من رجال يتصفون بالشجاعة ، فقد هاجموا الأسوار ، وقاموا بارهاق وانهاك أولئك المدافعين عن المدينة ، كما أنهم قاموا بمحاولة هائلة لرفع السلالم وتثبيتها على الأسوار، لكن الرجال المدافعين عنها قاوموهم بشجاعة ، وقاموا - مرة ثانية- بطرحهم أرضًا، حيث قُتل العديد من الأتراك.

١- الترجمة الحرفية للجملة هى «وأظهر لنا الرب الخالد رحمته ضد تلك الكلاب التركية».

ابان تقدم الفرقة الثانية إلى الامام، ، ومحاولتها اقتحام المدينة دون جدوى، قامت الفرقة الثالثة بالتحرك والتقدم خلفها ، وكانت تتألف من الجنود الانكشارية الذين يتم دفع الأموال لهم، مع ضباطهم وقادتهم الكبار، وكان جميعهم يتصفون بالشجاعة والبسالة [١]، وكان السلطان التركى فى موقعه خلف الجميع[٢] .

قامت الفرقة الثالثة بالهجوم على أسوار المدينة البائسة ، لم يكن جنودها يحاربون كالأتراك، بل مثل الأسود الضارية ، وكانت صيحاتهم ، وصوت الصنج النحاسية ، تبدو كشئ ليس له مثيل فى هذا العالم. وتم سماع صراخهم وصيحاتهم على البعد، بالقرب من الأناضول Anatolia ، على مسافة اثنتى عشر ميلاً من معسكرهم[٣].

وتألفت الفرقة الثالثة جميعها من محاربين محترفين، وجدوا أن الرجال المدافعين على الأسوار قد أصابهم التعب والانهاك الشديد، بعد اشتباكهم مع رجال الفرقتين الأولى والثانية، بينما كان الكفار الوثنيون ممتلئين صحة وعافية ، ومتلهفين على القتال. وعبر صيحاتهم وصراخهم المدوى الذى انطلق فى ميدان المعركة . تسببوا فى نشر الذعر فى كافة أرجاء المدينه ، وسلبوا منّا شجاعتنا بواسطة صياحهم وصراخهم والجلبة العالية التى أحدثوها .

شعر السكان البؤساء بالمدينة أنهم قد سقطوا بالفعل، وقرروا اعادة دق ناقوس الخطر فى كافة أرجاء المدينة ، كما قاموا بدق النواقيس فى كل الأماكن الموجودة أعلى الأسوار، وأخذوا فى الصياح والصراخ بكل ما أمكنهم من قوة «الرحمة ! الرحمة! إبعث لنا- أيها الرب- مساعدة من السماء لامبرطورية قسطنطين . لأن الشعب الوثنى الكافر (الأتراك) لايجب أن يقوم بحكم الامبراطورية».

قام كافة سكان المدينة ، رجالاً ونساءً ، بالجثو على ركبهم، ودخل الجميع فى صلاة جادة مكرسة للرب القادر على كل شئ ، ووالدته المقدسة مريم العذراء، وجميع القديسيين الرجال والنساء، أصحاب المراتب السماوية ، من أجل منحنا النصر على هذا الجنس الوثنى ، أولئك الأتراك الملاعين، أعداء الدين المسيحى.

١- على الرغم من كراهية باربارو الشديده للأتراك العثمانيين، فإنه يحترم شجاعة وبسالة الانكشارية . حيث أشاد بهم فى أكثر من موضع من كتابه . انظر ما سبق ص١٢٢، ١٢٣، ١٦٨ .

٢- يتميز أسلوب نيقولو باربارو بالتكرار . فقد ذكر نفس هذا الكلام سابقًا ، فى ص١٦٨ . عن أسلوب التكرار لدى باربارو . انظر مقدمة الترجمة الإنجليزية ص٧: مقدمة الترجمة العربية، ص٧٧ .

٣- هذا مثال صارخ للتكرار فى أسلوب باربارو . انظر ص١٢٣، ١٤٦ ، ١٧٢ .

وبينما كانت تجرى تلك التوسلات والتضرعات ، كان الأتراك يهاجمون الأسوار البرية بضراوة عند بوابة القديس رومانوس، بالقرب من مقر قيادة الامبراطور الأجلّ، وجميع نبلائه وفرسانه الكبار، ورجاله الأكثر شجاعة ، الذين بقوا إلى جواره يحاربون ببسالة .

كان الأتراك يهاجمون ، مثلما ذكرت سابقًا ، مثل رجال عقدوا النية والعزم على دخول المدينة، عند الأسوار البرية بالقرب من بوابة رومانوس ، وقاموا باطلاق وابل من قذائف مدافعهم بشكل مستمر، واستخدموا أعدادًا لاتحصى من البنادق والسهام .

وأخذ الكفرة الوثنيون فى الصياح ، حتى انشق الجو نتيجة لأصواتهم العالية، واستمر مدفعهم الضخم فى اطلاق القذائف ، وكانت الواحدة منها تزن ألف ومائتى رطل، واستمروا كذلك فى اطلاق السهام، بطول الأسوار على الجانب المواجه لمعسكرهم عبر مسافة ستة أميال.

وهكذا كان داخل الحصون الأمامية مالايقل عن حمولة ثمانين جملاً من المهاجمين الأتراك، وكان ما يقارب حمولة عشرين جمل من هؤلاء فى الخندق الموجود أسفل الأسوار. واستمرت تلك المعركة العنيفة حتى الفجر .

وقام رجالنا البنادقة بابداء دفاع مذهل فى البَسْتين bastion،[١] عندما قام الأتراك بتركيز هجومهم عليه . لكن دفاعهم لم يكن ليغيّر من الأمر شيئًا ، لأن الرب الخالد قد اتخذ قراره بأن تسقط المدينة فى أيدى الأتراك .

ونظرًا لأن الرب كان قد حدد ذلك بشكل حاسم، فلم يكن هناك شئ يمكن عمله أو حدوثه ، سوى أننا جميعًا نحن المسيحيين ، الذين وجدنا أنفسنا آنذاك فى المدينة البائسة يجب أن نضع أنفسنا رهن ارادة ربنا المسيح الرحيم ، ووالدته ، القديسة مريم العذراء، اللذان يملكان إسباغ الرحمة على أرواح أولئك الذين قتلوا هذا اليوم فى المعركة.

وقبل الفجر بساعة ، أمر السلطان باطلاق القذائف من مدفعه الضخم، فانطلقت القذائف باتجاه الترميمات التى قمنا بها فى الأسوار من قبل، فقامت بهدمها وطرحها أرضًا .

تسبب الدخان الذى أحدثه المدفع فى حجب الرؤية تمامًا. وتقدم الأتراك تحت ستار الدخان، وقام ثلاثمائة رجل منهم باقتحام الحصون الأمامية .

١- البَسْتَين bastion هو الجزء البارز من الحصن أو القلعة وهو مخمس الأضلاع غالبًا .

ودافع البيزنطيون والبنادقة ببسالة ونجحوا فى اخراجهم من الحصون الأمامية، وتم قتل العديد من الأتراك ، من بينهم معظم الذين تمكنوا من اقتحام الحصون.

هكذا قاتل البيزنطيون ببسالة فى هذه المعركة، واعتقدوا أنهم قد أحرزوا النصر ضد الوثنيين، وشعرنا نحن المسيحيين بالراحة لذلك.

بعد أن تم اخراج الأتراك من الحصون الأمامية، قاموا مرة ثانية باطلاق قذائف مدفعهم الضخم، وتقدم الكفار، ككلاب الصيد hounds خلف دخان المدفع ، وقاموا بهجمات عنيفة فى كل اتجاه مثل الحيوانات المتوحشة ، وهكذا ففى خلال ربع الساعة ، كان هناك أكثر من ثلاثة آلاف تركى بداخل الحصون الأمامية ، مع صراخهم الهائل الذى بدأ كأنه الجحيم بعينه لدرجة أنه سمع بالقرب من الأناضول .

عندما نجح الأتراك فى اقتحام الحصون الأمامية، قاموا فى الحال بالاستيلاء على الصف الأول منها، وقبل أن يحكموا سيطرتهم عليه تماماً، تم قتل عدد ضخم منهم بواسطة البيزنطيين الذين كانوا فى مكان مرتفع عنهم، فوق الأسوار ، حيث قاموا بقذفهم بالأحجار القاتلة .

بعد الاستيلاء على الصف الأول من الحصون الأمامية، أصبح وضع الأتراك قوياً بفضل قوات العزبان Axapi (١)، وبعد ذلك حضر إلى داخل الحصون الأمامية حوالى سبعين ألف تركى بكامل أسلحتهم، وبدا الوضع كأنه الجحيم بعينه (٢)، وخلال وقت قصير ، كانت الحصون الأمامية التى تمتد لمسافة ستة أميال ، قد غصّت بالأتراك.

١- axapı هم قوات العزبان أو العزب Azabs ، عن دور تلك الفرقة فى الجيش العثمانى ، وفى اقتحام القسطنطينية . انظر ما سبق : ص١٣٠ ، ١٣١ هامش (٢) .

٢- عن اقتحام أسوار القسطنطينية انظر المؤرخ العثمانى المعاصر طورسون بك حيث يذكر : «... تقدمت المدافع ، ولم يفق الكفار بعد من صدمتها ، ودارت المعركة فى كل اتجاه ، وتقدم الجنود كالأسود صائحين الله أكبر، وبدأ السلب والنهب. وأخذت السهام تتطاير من البروج، ... كما بدت فى الساحة قوارير النفط الملتهبة ، ورعد المدافع ، «كأنه ظله» خيمت فوق القلعة ، يصدق عليه قوله تعالى: «وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظُلّة» الأعراف ، ١٧١ ، والحاصل أن نيران المدافع والبنادق وكذا السهام، نزلت عليهم كالمطر ، ونوازل القضاء »
انظر: Tarih-i Ebûl- Feth, p. 55.

وكما ذكرت سابقًا ، فإن أولئك الذين كانوا فوق الأسوار، قاموا بقتل أعداد ضخمة من الأتراك عبر استخدام الأحجار ، التى استمروا فى قذفها من أعلى إلى أسفل دون توقف ، وهكذا تم قتل العديد منهم ، لدرجة أن أربعين عربة Carts لم تستطع نقل جثث القتلى الأتراك الذين سقطوا قبيل اقتحام المدينة .

وشعرنا ، نحن المسيحيون ، فى ذلك الوقت بالرعب والفزع الشديدين . وأمر الامبراطور بدق الناقوس عبر كافة أرجاء المدينة ، وفى المواقع أعلى الأسوار، وأخذ الجميع، فى الصياح «الرحمة.. أيها الرب الخالد » وكان صراخ الراهبات والنسوة الشابات هو الأعلى، وساد النواح والعويل لدرجة أن اليهودى الذى تميز بقلبه الأكثر قسوة ، كان سوف يشعر بالشفقة تجاهنا[١].

كان جوان جستنان [٢]، ذلك الجنوى الذى قدم من بلده، قد قرر أن يترك موقعه [٣]، وأن يهرب إلى سفينته التى كانت راسية عند السلسلة .

١- تعبّر هذه الجملة عن موقف البنادقة تجاه اليهود، ويبدو أن اليهود فى الأيام الأخيرة للامبراطورية البيزنطية قد نافسوا التجار الايطاليين ، فى الامتيازات التجارية ، يدل على ذلك امتلاكهم للعديد من الثروات والمجوهرات وهو الأمر الذى أوغر نفوس البنادقة تجاههم . ويبدو أن العثمانيين كانوا يكرهون اليهود أيضًا ، ويعرفون أماكن اقامتهم بالقسطنطينية، حيث قاموا باقتحام الحى اليهودى بالقسطنطينية ... «حتى تكون لديهم فرصة أفضل للحصول على الغنائم ، «حيث تواجدت ثروات كبيرة فى منازل اليهود، وخاصة المجوهرات». انظر ما يلى، ص١٧٥ . وانظر أيضًا ما كتبه المؤرخ البيزنطى المعاصر دوكاس عن احتقار الأتراك واليهود للبيزنطيين. انظر:

"Decline and Fall of Byzantium ", p. 218 .

وعن اليهود داخل الامبراطورية البيزنطية انظر:

Sharf, A, Byzantium Jewry from Justinian to The Fouth Crusade, London, 1971 . Starr, J. Jews in The Byzantine Empire (641-1204) Athens, 1939 ; Charanis , p" The jews in The Byzantine Empire under the First Palaeologus" in , Sp. , 22 , 1947 , pp. 75-77 . Bowman , S. B, The Jews of Byzantium 1204-1453 . Alabama , 1985 .

٢- هوجيوفانى جستنيانى، القائد الجنوى الشهير، انظر ما سبق، ص١٠٣، ١٠٤ .

٣- ملاحظة هامشية: لأنه أصيب بسهم ، (الترجمة الانجليزية) والحقيقة أن المصادر التاريخية اختلفت ما بين اصابته بسهم خلف ذراعه ، أو بزخات من الرصاص .

وكان الإمبراطور قد عين جستنان قائدًا على قواته ، وبينما الأخير فى طريقه للهرب، توجه عبر المدينة صائحًا «لقد اقتحم الأتراك المدينة بالفعل» (١). ولم يكن ذلك دقيقًا تمامًا ، فقد كان يمتلك مقدرة كبرى على الكذب، لأن الأتراك لم يكونوا قد نجحوا بعد فى اقتحام المدينة.

وعندما سمع الناس كلمات قائدهم العسكرى حول اقتحام الأتراك للقسطنطينية أخذوا فى الهرب، وترك الجميع مواقعهم فى الحال ، واندفعوا باتجاه الميناء على أمل الهرب على متن السفن والشوانى.

وخلال لحظة الفوضى والارتباك هذه، التى حدثت لدى شروق الشمس، كان ربنا صاحب القدرة المطلقة قد وصل إلى قراره الأكثر قسوة وألمًا، وقرر أن أن يقوم بتحقيق كافة النبوءات، كما ذكرت سابقًا .

دخل الأتراك القسطنطينية ، عند شروق الشمس، من منطقة تقع بالقرب من بوابة القديس رومانوس، حيث كانت الأسوار التى جرى تدميرها تمامًا ، وتسويتها بالأرض بواسطة مدفعهم الضخم ، وقبل دخول الأتراك جرت معركة عنيفة مع المسيحيين داخل المدينة الذين قاموا بالتصدى لهم، وقُتل العديد منهم ، لدرجة أن عشرين عربة، امتلأت بجثث الأتراك المهاجمين.

وبعد الموجة الأولى للهجوم التركى، قاموا بالموجة الثانية، فاندفعوا نحو المدينة، وقاموا بقتل جميع من صادفهم من الرجال أو النساء ، سواء الطاعنين فى السن أو من هم فى شرخ الشباب، وبصرف النظر عن حالتهم أو وضعهم الاجتماعى .

استمرت عملية سفك الدماء من شروق الشمس حتى الظهر ، فكان الأتراك- فى موجة غضبهم العارم- يقومون بقتل كل من يقف فى طريقهم، وقام رجالنا من البنادقة التجار بالهرب، والاختباء فى أماكن سرية ، وعندما وضعت تلك المذبحة المجنونة أوزارها ، تمكّن الأتراك من العثور عليهم وأسْرهم ، حيث جرى بيعهم كالعبيد.

١- لم يقل جستنيانى تلك العبارة ، فقد أشادت كافة المصادر بشجاعته ، ويرى الباحث هنا أن نيقولو باربارو البندقى ، يريد أن يقوم بتشويه صورة جستنيانى الجنوى الذى لم ينسحب من المعركة إلا بعد اصابته المميتة، وصاح بالإمبراطور قائلاً «اثبت مكانك بشجاعة ، فسوف أذهب لتلقى العلاج بسفينتى وأعود بسرعة» ويمكن فهم ذلك فى إطار الصراع البندقى/ الجنوى، واتهام باربارو البندقى للجنوية بمساعدة محمد الفاتح على فتح القسطنطينية ، لدرجة أنه كثيرًا ما يصفهم «بالكفار .. أعداء الدين المسيحى».

كان الأتراك متلهفين إلى الوصول إلى الميدان الكبير بالمدينة، على مسافة خمسة أميال من النقطة التى دخلوا منها عند بوابة القديس رومانوس . وعندما وصلوا إليه، قام بعضهم فى الحال بتسلّق البرج الذى يرفرف عليه علما القديس مارك St. Mark ، والإمبراطور الأجلّ . وقاموا بتمزيقهما وطرحهما أرضًا . وبعد ذلك قاموا برفع علم السلطان على نفس البرج.

وعندما قام الأتراك بإنزال هذين العلمين، ورفع العلم التركى [١]، شعرنا ، نحن المسيحيين، الموجودين بالقسطنطينية بالحزن والأسى، وبأن المدينة قد سقطت كلها فى يد الأتراك .

سوف أقوم الآن بسرد الأحداث التى جرت فى البحر، لأننى قمت - فيما مضى - بسرد الأحداث التى جرت على البر.

قبيل الفجر بساعة ، اتخذ الأسطول التركى الذى كان راسيًا عند الأعمدة طريق صوب سلسلة الميناء ، فى انتظار المعركة المرتقبة فى هذا المكان، لكن قائدهم البحرى أدرك أن ميناءنا تمت حمايته بشكل جيد بواسطة السفن والشوانى، وخاصّة المنطقة التى توجد بها السلسلة ، التى خضعت لحماية عشر سفن كبيرة ، تزن حمولة الواحدة منها ثمانمائة botte ولأن القائد البحرى التركى كان يخشى قوة أسطولنا ، فقد قرر الرحيل، وأن يحارب معركته خلف المدينة، على ضفة الدردنيل، وأن يترك الميناء دون قتال.

وهكذا توجهت السفن التركية باتجاه اليابسة المطلة على الدردنيل ، ونزل بعض الأتراك بالقرب من Giudecca [٢] حتى تكون لديهم فرصة أفضل للحصول على الغنائم ، حيث تواجدت ثروات كبيرة فى منازل اليهود، وخاصة المجوهرات .

وهاجمت السبعين سفينة، التى تم سحبها وجرّها عبر وادى بيرا بقيادة زاجان باشا، القسطنطينية عند المكان المسمى بالفنار Fanari . ونجح المسيحيون فى الدفاع عن تلك المنطقة بشجاعة ، وقاموا بردّها على أعقابها .

عندما شاهد الرجال على متن السفن هزيمة المسيحيين (البيزنطيين) ، وفقدان القسطنطينية ، ورأوا أيضًا علم محمد بك التركى يرتفع مرفرفًا فوق البرج الرئيسى للمدينة ، وأن علمى القديس مارك والإمبراطور قد تمزقا ، وتمت الإطاحة بهما ، عندما شاهد الرجال ذلك نزلوا جميعًا من السفن . وفى نفس الوقت ، فإن جميع أولئك الذين كانوا على متن

١- الترجمة الحرفية لكلمات المؤلف « . . ورفع علم الكلب التركى».

١- يبدو للباحث أن منطقة Giudecca كانت تمثل الحى اليهودى فى القسطنطينية ١٤٥٣م.

الأسطول التركى فى الدردنيل ، تركوا سفنهم عند الساحل ، وقاموا جميعًا بالجرى والهرولة وهم فى حالة من الهياج الشديد(١)، وانتشروا فى المدينة من أجل البحث عن الذهب والمجوهرات ، والأموال، ومن أجل أخذ التجار كأسرى . وقصدوا إلى الأديرة ، وتم اقتياد كافة الراهبات إلى الأسطول، حيث قام الأتراك باغتصابهن وايذائهن جسديًا .

وبعد ذلك تم بيع الراهبات فى مزاد علنى للعبيد عبر الأراضى التركية. وتم أيضًا اغتصاب الفتيات البيزنطيات، ثم بيعهن بعد ذلك بأى مقابل . وعلى الرغم من هذا فقد فضل بعضهن القاء أنفسهن من فوق الأسوار، والموت غرقًا ، بدلاً من الوقوع فى أيدى الأتراك. وفعل الأمر نفسه عدد من النسوة المتزوجات .

قام الأتراك بحمل الأسرى إلى سفنهم(٢)، بالإضافة إلى كميات لاحصر لها من الغنائم والأسلاب ، وكان تصرفهم على النحو التالى:

١- الترجمة الحرفية للجملة «... وهم فى حالة من الهياج كالكلاب» .

٢- عن أسر العثمانيين لآلاف البيزنطيين من سكان القسطنطينية انظر المصادر المعاصرة التالية:

Lomellino , Op. cit, p. 132 , Reccherio, Op. cit, p. 123 .

الذى يذكر «أن الأتراك انتشروا فى كل مكان وأخذوا فى ذبح كل من يقابلهم ، ووجدوا متنفسًا لطبيعتهم الوحشية واللا انسانية عبر ارتكاب كافة الأعمال التى تتصف بالقسوة والشبق الجنسى».

ويمكن تفهم ما ذكره ريشيريو فى ضوء المرارة التى شعر بها كل مسيحى لسقوط القسطنطينية .

وأنظر أيضًا : Leonard of Chios , Op. cit, pp. 38.39 .

الذى يذكر أن العثمانيين أسروا ستين ألفًا من البيزنطيين واللاتين داخل القسطنطينية وأنهم قاموا بطرح كافة الصلبان التى وجدوها على أسطح وجدران الكنائس أرضًا وقاموا بوطئها بالأقدام ، فضلاً عن اغتصاب النساء ، وافتضاء بكارات العذارى و... ويبدو لنا أن هناك ثمة مبالغة من ليوناردو فى أعداد الأسرى المسيحيين الذين سقطوا فى أيدى الأتراك، علاوة على مبالغته الثانية حول التصرفات الجنسية للعثمانيين . على الرغم من اتفاق بعض المصادر الأخرى البيزنطية واللاتينية فى تلك النقطة . وانظر أيضًا المؤرخين البيزنطيين المعاصرين:

Chalcocandylas , Op cit , p. 52 ; Kritovoulus , Op. cit , pp. 71-74 ; Doukas ,, Op. cit , pp. 229 , 232 - 233 , 235, 239 .

وفى الصفحة الأخيرة يذكر دوكاس بقلم أدبى رفيع المستوى ما حدث للأسرى البيزنطيين . «... كيف للسان أن يصف كارثة سقوط القسطنطينية ووقوعها فى الأسر، وما عانته من رحيل العديد من السكان عنها، الذين لم يرحلوا هذه المرة من أورشليم إلى بابل وبلاد آشور ، لكنهم رحلوا من القسطنطينية إلى الشام، ومصر، وأرمينيا ، وبلاد فارس، والجزيرة العربية، وكذلك إلى أفريقيا. وتفرقوا عبر ايطاليا، وآسيا الصغرى =

إذا ما توجه أحدهم نحو أحد المنازل ، وقام بسرعة برفع علم فوقه ، أو أية علامة أو رمز تدل عليه ، يقوم الأتراك الباقون بترك هذا المنزل، ويتوجهون للبحث عن منزل آخر لايرتفع فوقه علم أو علامة (١). وهكذا قاموا بوضع أعلامهم في كل مكان بالمدينة ، حتى الأديرة والكنائس.

= وباقى البلاد الأخرى . كيف حدث ذلك ؟ كيف تم أخذ الزوج أسيراً إلى اقليم بافلاجونيا ، بينما سيقت الزوجة إلى مصر، وتناثر أولادهم فى أماكن أخرى، وقاموا بتبديل لسانهم من لغة إلى أخرى، وبدلّوا أحوالهم من التقوى والورع إلى مصاف الأشرار ، وقاموا بتغيير عقيدتهم من اتباع الكتاب المقدس إلى اتباع كتابات خرقاء».

وعن أسر العثمانيين للبيزنطيين فى القسطنطينية انظر المصادر العثمانية المعاصرة :

Asik Pasa Oglu , Op. cit , p. 138 ; Tursun Bey , Op. cit, pp. 59-63 .

حيث يذكر «كان العثمانيون يسوقون الفتيان والغلمان أمامهم قطعاناً كما تسوق النمور والأسود الغزلان ... » وأيضاً « قام أهل الايمان (الأتراك) بجمع الأطفال والغلمان ، وكذلك البنات اللاتى اتصفن بالحسن واستقامة القد، وتورد الخد، وتزجج الحاجبين ، ودقة الأنف، وليلية الشعر، وبدرية الوجه ، وبلورية السرر .. ».

١- جرى الأمر عند اقتحام المدن فى العصور الوسطى أن يسارع الغزاة إلى الاستيلاء ، على منازل المدينة التى تم غزوها، من أجل الحصول على ما بها من ثروات ومجوهرات وسلع وبضائع ، وهو الأمر الذى فعله الصليبيون لدى غزوهم لمدينة القدس ١٠٩٩م. إذ استولى الغزاة على كافة منازل السكان المسلمين فكان كل من يسبق الآخرين فى الاستيلاء على أحد المنازل ، يقوم بتعليق سلاحه أو مجنّه عليه ، حتى لايجوز للآخرين التوقف عنده، أو منازعته ملكيته انظر. وليم الصورى ، الحروب الصليبية ، ترجمة حسن حبشى ، ج٢ ، ١٩٩٢م، ص١٢٨ : فوشيه الشارترى ، الصليبيون فى الشرق العربى. ترجمة قاسم عبده قاسم، الكويت، ١٩٩٣مو ص١٥٤-١٥٥ .

وهو الامر الذى تكرر لدى غزو الحملة الصليبية الرابعة للقسطنطينية ١٢٠٤م ، إذ اتفق كبار الفرسان والأثرياء الصليبيين على أن يتقاسموا أفضل منازل القسطنطينية وأكثرها ثراء فيما بينهم من دون أن يخبروا باقى أفراد الحملة بذلك ، وبالفعل بدأوا فى الاستيلاء على أفضل بيوت القسطنطينية ، دون أن يعلم الفرسان والفقراء الصليبيين بذلك انظر: روبرت كلارى، فتح القسطنطينية على أيدى الصليبيين، ص١٢١-١٢٢ .

ومن الجدير بالذكر أن العثمانيين الذين اقتحموا القسطنطينية ١٤٥٣م ، وقاموا برفع اعلامهم على منازل المدينة، قاموا بالاستيلاء على ما بداخلها من سكان وثروات ، ولكنهم لم يستولوا على منازل القسطنطينية ذاتها، لانها كانت تقع فى نصيب السلطان محمد الفاتح، الذى منحهم كافة ما بداخل المدينة عدا أسوارها ومنازلها ، فهى ملك له بعد الفتح . كما أنه يذكر أن محمد الفاتح شعر بالمرارة والأسف والندم على ذلك الاتفاق، بعد أن رأى كمية الثروات التى تم الاستيلاء عليها من القسطنطينية ، وكذا العدد الهائل من الأسرى البيزنطيين . انظر : . Doukas, Op. cit , p. 231

وبقدر ما يمكننى أن أخمّن ، أنه كان هناك مائتا ألف من تلك الأعلام ترفرف فوق منازل القسطنطينية، فبعض المنازل كان عليها حوال عشرة أعلام ، وعاش الأتراك حالة من الاثارة والهياج بفضل النصر الذى تمكنوا من احرازه .

وظلت تلك الأعلام ترفرف فوق المنازل طوال ذلك اليوم . وابّان ذلك قام الأتراك بذبح المسيحيين فى أرجاء المدينة ، وفاضت الدماء فى المدينه كمياه الأمطار فى الميازيب بعد نهاية عاصفة مفاجئة، وتم رمى جثث الأتراك المسيحيين القتلى فى مياه الدردنيل ، حيث طفت كالبطيخ بطول المضيق.

لم يسمع أحد أية أخبار عن الامبراطور. ماذا حدث له ، أو ما إذا كان قد قُتل أم لا زال على قيد الحياة. لكن البعض ذكر أن جثة الامبراطور قد شوهدت بين جثث القتلى[١]. وقيل أنه قد شنق نفسه فى اللحظة التى قام فيها الأتراك باقتحام بوابة القديس رومانوس [٢].

الآن .. سقطت القسطنطينية ، ولأنه لم يعد هناك أية بارقة أمل ، فقد استعد شعبنا (البنادقة) لانقاذ أنفسهم، وانقاذ أسطولنا وجميع سفنه ، واخراجها من الميناء، وتحطيم السلسله الموجودة عبر مدخل الميناء.

١- بعد نجاح العثمانيين فى اقتحام القسطنطينية ، تساءل محمد الفاتح عمّا جرى للامبراطور قسطنطين الحادى عشر، هل هرب أم قتل . وتقدم جنديان عثمانيان فذكرا أنهما قاما بالاجهاز على الامبراطور. وبالفعل تم احضار رأس الامبراطور التى فصلت عن جسده حيث تعرف عليها القائد العسكرى الأعلى نوتاراس وتم تعليقها حتى المساء على عمود أغسطس ، قبل أن يتم انزالها ، وتحنيطها ، وارسالها - كدليل على النصر- إلى باقى بلاد المسلمين. انظر Doukas , Op. cit, p. 104 وكذلك المصادر التالية :

Asik Pasa, Op. cit , p. 138 , Chalcocondylas, Op cit , p. 52 ; Dolfin , Op. cit , p 129 .

Kretovoulus , Op. cit , p. 71 ; Sphrantzes, Op cit , p. 70 ; Tursun Bey , Op. cit , p. 59 .

الذى يذكر أن الإمبراطور قام بالهجوم على جندى تركى مصاب، فتعثر حصانه ليسقط الامبراطور تحت أقدامه . وعندها قام أحد الجنود المصابين من طائفة العزبان، بحز رأسه

٢- ملاحظة هامشية : توسل الامبراطور إلى أحد رجال حاشيته ليقوم بالاجهاز عليه ، واندفع فى القتال المستعر شاهراً سيفه ، حيث سقط، ثم نهض ، ثم سقط ثانية ومات .

وعندما رأى الوفيكس دييدو ، الضابط المسئول عن الميناء، وقائد الشينية القادمة من تانا، أن القسطنطينية قد سقطت تماماً ، هبط فى الحال من سفينته حيث توجه إلى بودستا بيرا[١]، وتباحث معه حول ما يجب عمله تجاه أسطولنا ، ما إذا كان يجب عليه الفرار ، أو اعداده لدخول المعركة بكافة سفنه وشوانيه .

وعندما طلب الوفيكس دييدو النصيحة من بودستا مدينة بيرا، أجابه قائلاً «أيها القائد، ابق هنا فى بيرا، وسوف أقوم بارسال مبعوث إلى السلطان، وسوف نرى ما إذا كنا نحن الجنوية والبنادقة سوف نقوم بقتاله ، أو باقرار السلام معه ».

وبينما كانت تجرى هذه المقابلة ، أمر البودستا الجنوى لمدينة بيرا باغلاق بوابات مدينته، وحجز القائد بداخلها ، مع بارتلوميو فيوريان Bartlomo Fiurian صانع الدروع على الشوانى القادمة من تانا. ونيقولو باربارو Nicolo Barbaro [٢]، الطبيب والجراح الخاص بالشوانى.

وأدركنا عند احتجازنا أننا أصبحنا فى وضع خطير . فقد فعل الجنوى ذلك كى يقوم بتسليم شوانينا وسفننا وممتلكاتنا إلى الأتراك . ولم يقم بارسال أية رسول إلى السلطان.

وبينما نحن محتجزين فى مدينتهم ، بدأت السفن فى فرد أشرعتها ، وبدأ مجدّفيها فى الاستعداد للإبحار دون قائدها الذى أدرك الآن أنه يقع تحت طائلة عقوبة السجن ، فتمكن – عبر كلمات مناسبة – من اقناع البودستا باطلاق سراحه وزملائه .

وبعد الخروج من بيرا بقليل بدأت السفن فى جر Kedge[٣] أنفسها حتى السلسلة الموجودة بالميناء .

١- كان البودستا الجنوى هو انجيلوا جيوفانى لوميللينو Angelo Giovanni Lomellino الذى قام بتسليم مفاتيح بيرا إلى السلطان محمد الفاتح . عن دوره فى الأحداث السابقة على اقتحام القسطنطينية انظر ما سبق ، ص١٣٥-١٣٦.

٢- هى المرة الأولى، التى يذكر المؤلف فيها اسمه ومهنته بالكتاب. ومن ناحية أخرى يدلنا هذا على ضرورة وجود الطبيب الجراح على متن السفن التجارية الايطالية فى نهايات العصور الوسطى.

٣- Kedge هى عملية جر السفينة بمخطاف نقالي، والتعبير الأصلى هو Caggar المشتق من Catch (بمعنى يعلق بالأرض) .

واستعملت الكلمة بخصوص السفن البحرية فى القرن الرابع عشر الميلادى ، ثم تطورت إلى Kedge عند نهاية القرن السادس عشر الميلادى. انظر: A Comprehensive Maritime Dictionary " , p. 295 ; The Oxford Companion to Ships & The Sea , pp. 442-443 .

عندما وصلنا إلى السلسلة ، لم نستطع اجتيازها بسبب امتدادها بطول المسافة بين مدينتى القسطنطينية ، وبيرا . لكن رجلين امتازا بالشجاعة قفزا إلى أسفل فوق أحد الأجزاء الخشبية من السلسلة ، وعبر استخدام فأسين حادين تمكنا من قطعها ، وقمنا بسرعة بتغيير اتجاه buried سفننا إلى خارج السلسلة . وأبحرنا إلى المكان المسمى بالأعمدة ، خلف بيرا، حيث كان الأسطول التركى قد ألقى مراسيه من قبل .

وهناك في ذلك المكان، انتظرنا حتى انتصف النهار، لنرى إذا ما كان أحد من تجارنا قد وصل إلى الشوانى . ولم يتمكن أحد منهم من فعل ذلك ، لأنه جرى أسرهم جميعًا .

وهكذا ، عند الظهر ، وبمساعدة من الرب، أعلن الوفيكس دييدو ربان السفن القادمة من تانا ضرورة الابحار على متن شوانيه ، وقام بعده جيروليمو موريكسينى والشينية القادمة من طرابيزون تحت قيادة وكيل الربان دولفين دولفين[1] باتخاذ نفس القرار.

ولاقت سفينة طرابيزون صعوبة كبرى فى الابحار ، بسبب فقدها لمائة وأربعة وستين من بحارتها، عندما غرق بعضهم وقتل البعض الآخر ابان عمليات اطلاق القذائف، أو ماتوا بأية طريقة ابان القتال المتواصل.

وفى النهاية ، استطاع رجالها بالكاد رفع أشرعتها، أما السفينة الخفيفة الخاصة بكابرييل تريفيكسان ، فقد أبحرت ، على الرغم من بقائه فى المدينة، حيث سقط فى قبضة الأتراك . كذلك أبحرت الشينية القادمة من كانديا برفقة زكريا جريونى الفارس ، بسبب أسر الربان. وخلف تلك السفن والشوانى أبحرت ثلاث سفن كانت قادمة من كانديا تحت قيادة جوان فانيير Zuen Vaner وانطونيو فيلا ماتى Antonio Filamati ، والثالث الذى لُقّب بالدجاجة The Hen.

وأبحرنا جميعًا من القسطنطينية بأمان وسلام عبر المضايق، وهبت رياح الشمال التى بلغت سرعتها أكثر من اثنتى عشر ميلاً فى الساعة ، مما ساعدنا لأنه لو كان الجو هادئًا، لكان قد تم اللحاق بنا وأسرنا جميعًا .

عندما ابحرنا من القسطنطينية ، كانت جميع سفن الأسطول التركى خالية من الرجال والسلاح، لأن جميع الربابنة والقادة البحريين توجهوا إلى داخل المدينة من أجل سلبها .

١- كان دولفين دولفين مسئولاً عن حراسة البوابة الامبراطورية إبان الهجوم العثمانى على القسطنطينية .

انظرما سبق ، ص١١٠ وكذلك Nicole, Op. cit , p. 400

ويجب أن تكونوا متأكدين أنه لو كان أسطولهم مستعداً وجاهزاً ، لما كانت سفينة واحدة من سفننا قد استطاعت الهرب، ولكان الأتراك قد استولوا عليها جميعاً كأسلاب وغنائم حرب، لأننا كنا محتجزين داخل السلسلة ، لكن الأتراك تركوا أسطولهم ونزلوا إلى المدينة.

بقيت خمس عشرة سفينة داخل الميناء ، وهى تخص الجنوية ، والامبراطور ، وسكان مدينة انكونا Ancona[١]، كذلك كان بالميناء كافة الشوانى الخاصة بالامبراطور، التى يبلغ عددها خمس شوانى ، غير مسلحة . بالاضافة إلى ذلك بقيت هناك آيضًا كافة السفن والشوانى الأخرى التى لم تستطع الهرب، وسقطت جميعها فى يد الأتراك.

وبصرف النظر عن تلك السفن الخمس عشرة، فقد هربت سبع سفن جنوية كانت بالقرب من السلسلة . كذلك سفينة تابعه لجورجى دوريا Zorzi Dona الجنوى كانت حمولتها تبلغ ٢٤٠ botte ، وتمكنت هذه السفينة من الهرب برفقة السفن السبع الأخرى، منتهزة حلول المساء.

استمر القتال من الفجر حتى الظهر ، وبينما كانت المذبحة تجرى فى المدينة ، ويتم قتل كل شخص ، قام الاتراك بعد ذلك بقليل بأخذ الباقين كأسرى حرب، وأمر السلطان محمد الفاتح بقطع رقبة قنصلنا جيروليمو مينوتو [٢].

١- مدينة انكونا Ancona هى ميناء ايطالى على البحر الادرياتى احتفظت بحالية وبحى لها فى القسطنطينية منذ العام ١١٩٩م. قام الامبراطور البيزنطى اندرونيكوس الثانى بمنح تجارها امتيازات تجارية بالقسطنطينية ١٣٠٨م كان أهمها أن يتساوى تجارها مع تجار جنوا والبندقية فى دفع جمرك يعادل ٢٪ من قيمة البضائع التى تدخل أو تخرج من ميناء القسطنطينية . قدم قنصل مدينة أنكونا مساعدة من أجل الدفاع عن أسوار القسطنطينية ابان الحصار العثمانى انظر: . O.D.B. vol , I, p. 91

٢- أمر السلطان محمد الفاتح بضرب عنق كل من قنصل البنادق جيروليمو مينوتو ، وكذلك قنصل القطلان بالقسطنطينية بيرى جوليا Péré Julia الذى كان على رأس الجاليه القطالونية فى القسطنطينية ، وساعد فى الدفاع عنها انظر: . Lomelline , Op cit , p. 134 ; Runciman Op. cit , p. 84

وعن الدور الذى لعبه القطلان فى الامبراطورية البيزنطية قبل ذلك، انظر:

Setton , K, " The Catalans in Greece 1311-1380 ", p. pp. 167-224 ; Idem , " The Catalans and Florentines in Greece 1380-1462 ", pp. 225-277 , in Setten & Hazard (eds.) A History of the Crusades , vol, 3 , Wisconsin , 1975 .

وانظر أيضًا : أحمد كامل عبد المقصود ، الجماعات القطالونية فى الامبراطورية البيزنطية ١٣٠٢-١٣٨٨م، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة المنصوره ، ١٩٩٦م.

تلك هى نهاية عملية غزو القسطنطينية التى حدثت فى يوم الثلاثاء [1]، الموافق التاسع والعشرين من مايو ، عام ألف وأربعمائة ثلاثة وخمسين.

إليكم اسماء لرجال البنادقة النبلاء ، الذين قتلوا فى الحرب ضد الأتراك:

١- السيد جيروليمو مينوتو البايل .

٢- السيد جورجى مينوتو ابن السيد جيروليمو [2].

٣- السيد زكريا دامولنى ابن السيد جوان.

٤- السيد فابروزى كورنر ابن السيد جوان .

٥- السيد جاكومو كوكو، ربان الشينية التى قدمت من مدينة طرابيزون . والذى كان قد مات غرقًا.

وهؤلاء هم النبلاء الذين هربوا بسفنهم وشوانيهم فى هذا اليوم :

١- السيد الوفيكس دييدو ربان الشينية .

٢- السيد سيلفسترو تريفيكس ، ربان الشينية .

٣- السيد جيروليمو موريكسينى ، ربان الشينية .

٤- السيد دولفين دولفين ، نائب ربان الشينية .

٥- السيد جوان فانيير ، ربان السفينة القادمه من كريت .

٦- السيد لوكاجريتى ابن السيد تريادان.

٧- السيد نيقولو موزينجو ابن السيد ليوناردو الأول .

٨- السيد توما موزينجو ابن السيد مارين .

١- ملاحظة هامشية : تم أسر ستين ألف شخص ووجد الأتراك كمية لاتصدق من الثروات. وبلغ مجموع المبالغ التى خسرها المسيحيون حوالى ٢٠٠ ألفًا من الدوكات البندقية ، بينما خسر الذين وردت أسماءهم بعد قليل ١٠٠ ألف دوكات . (الترجمة الإنجليزية) .

٢- ملاحظه هامشية : هو ابن البايل البندقى جيروليمو مينوتو . (الترجمة الإنجليزية) .

٩- السيد نيقولو جستنيان ابن السيد برناردو.

١٠- السيد ميشيل بولدو ابن السيد بينيو.

١١- السيو الوڤيكس دى بريولى ابن السيد بييرو.

١٢- السيد مارين كونتارينى ابن السيد برتوزى.

١٣- السيد بييرو كونتارينى ابن السيد جاكومو.

١٤- السيد جاكومو تاياببيرا ابن السيد بييرو.

١٥- السيد انطونيو دى بيزارو ابن السيد بييرو.

١٦- السيد الويز داكانال ابن السيد بورتولو.

١٧- السيد جيروليمو داكانال ابن السيد بورتولو.

١٨- السيد ماركو دييدو ابن السيد الويز.

١٩- السيد ڤيتور دييدو ابن السيد الويز.

٢٠- السيد نيكولو باربارو ابن السيد ماركو.

٢١- السيد برناردو جستنيان ابن السيد نيقولو.

٢٢- السيد ماركو اليزا ابن السيد فرانشيسكو .

٢٣- السيد دوناو ترون ابن السيد بييرو.

٢٤- السيد بولو مينوتو ابن السيد جيروليمو .

٢٥- السيد ماركو تريڤيكسان ابن السيد جابرييل.

٢٦- السيد نادال سالامون ابن السيد نيقولو.

٢٧- السيد جيروليمو ابرامو ابن السيد انطونيو .

٢٨- السيد انطونيو بيزامانو ابن السيد نيقولو .

٢٩- السيد جابرييل كونتارينى ابن السيد نيقولو .

٣٠- السيد دانييل ڤيتورى ابن السيد رينيه .

٣١- السيد انطونيو كويو ابن السيد جوكومو .

٣٢- السيد جوان لولين ابن السيد انزولو .

٣٣- اليساندرو لولين ابن السيد انزولو . من جزيرة كريت

المجموع : ٣٣

أما النبلاء الآتى أسماؤهم ، فقد سقطوا فى قبضة الأتراك كأسرى حرب :

١- السيد جابرييل تريفكسان ، نائب القبطان على السفينة.

٢- السيد زكريا جريونى، الفارس ، الذى تم ذكره سابقًا .

٣- السيد دومينيجو بالدى ابن السيد نيقولو.

٤- السيد كاتارين كونتارينى ابن السيد جوان .

٥- السيد بارتولو جورجى ابن السيد ...

٦- السيد فيليبو كونتارينى ابن السيد ...

٧- السيد الويز بيمبو ابن السيد بينيتو .

٨- السيد انطونيو بيمبو ابن السيد بينيتو .

٩- السيد مافيو دى بريولى ابن السيد بييرو.

١٠- السيد نيقولو بالبى ابن السيد مارين .

١١- السيد الويز نافاير ابن السيد ميشيل .

١٢- السيد الويز كونتارينى ابن السيد جاكومو .

١٣- السيد زكريا باربارو ابن السيد فاتيو.

١٤- السيد جيروليمو كورنر ابن السيد ..

١٥- السيد برناردو بالبى ابن السيد دومينجو.

١٦- السيد فرانشيسكو فانيير ابن السيد برناردو.

١٧- السيد فرانشيسكو ميشيل ابن السيد ...

١٨- السيد بييرو ميشيل ابن السيد دوناو

١٩- السيد فانتن جن ابن السيد انطونيو ٠

٢٠- السيد بييرو نانى ابن السيد جوان ٠

٢١- السيد باتيستا جريتى ابن السيد أوموبون،

٢٢- السيد بيرو تريڤيكسان ابن السيد جوان ٠

٢٣- السيد نيقولو موريكسينى ابن السيد جاكومو ٠

٢٤- السيد نيقولو بيزانى ابن السيد أندريا ٠

٢٥- السيدجوان لوريدان ابن السيد بولو ٠

٢٦- السيد اندريا ماليبييرو ابن السيد ٠٠

٢٧- ماركو أبرامو .

٢٨- بييرو بارباريجو. } من جزيرة كريت

٢٩- نادال سينول. }

المجموع : ٢٩

ومن الجدير بالذكر أن جميع أولئك التسعة والعشرين نبيلاً بندقيًا [١]، الذين أخذهم الأتراك كأسرى ، عادوا إلى البندقية فى غضون عام واحد ، بعد أن تم دفع فدية تتراوح ما بين ثمانمائة إلى ألفى دوكات لكل منهم.

أما التالي أسماؤهم ، فهم كافة نبلاء البندقية الذين كانوا موجودين يوم حدث الهجوم التركي على القسطنطينية ، وقتل بعضهم ، وتم أسر البعض الآخر، ونجح آخرون في الهرب عبر استخدام السفن والشوانى، كما تم ايضاحه سابقًا .

١- أنظر أيضًا . Nicol " Byzantium and Venice " pp. 405-406 حيث يذكر أسر العثمانيين لتسع وعشرين من النبلاء البنادقة الذين جرى افتداءهم فيما بعد بمبلغ يتراوح ما بين ٨٠٠-٢٠٠٠ دوكات بندقى

لكن البروفسير نيقول يذكر أن عدد البنادقة كان حوالى ٦٠٠ بندقى فى القسطنطينية وبينما قتل بعضهم فى الحرب، وأحداث اقتحام العثمانيين للمدينة ، فإن الباقين تم بيعهم كعبيد فى أسواق الرقيق .

انظر أيضًا المصادر التالية · Tedaldi , Op. cit , pp 9-10 ; Chalcocondylas, Op. cit , p. 52 .

ولكى يمكننا التعرف على جميع النبلاء الذين حضروا سقوط المدينة، وسوف أقوم بترتيب قائمة بأسمائهم .

١- السيد جيروليمو مينوتو ، بايل البنادقة فى القسطنطينية .

٢- السيد جورجى ابن السيد جيروليمو .   (ابنه)

٣- السيد بولو ابن السيد جيروليمو.

٤- السيد الوفيكس دييدو ، ربان الشينية .

٥- السيد ماركو دييدو ابن السيد الوفيكس.

٦- السيد فيتور دييدو ابن السيد الوفيكس .

٧- السيد جابرييل تريفيكسان ، نائب الربان على الشينيتين .

٨- السيد ماركو تريفيكسان ابن السيد جابرييل.

٩- السيد زكريا جريوتى الفارس، الذى جاء ذكره سابقًا .

١٠- السيد سلفسترو تريفيكسان، ربان الشينيه الكبيرة.

١١- السيد جيروليمو موريكسينى، ربان الشينيه الكبيرة .

١٢- السيد دولفين دولفين، نائب القبطان وابن السيد دومينيجو.

١٣- السيد جاكومو ، ربان الشينية الكبيرة .

١٤- السيد كاتارين كونتارينى ابن السيد جوان.

١٥- السيد مارين كونتارينى، ابن السيد برتوزى.

١٦- السيد بييرو كونتارينى ابن السيد جاكومو. ⎤ آخوان

١٧- السيد الويز كونتارينى ابن السيد جاكومو . ⎦

١٨- السيد جابرييل كونتارينى ابن السيد نيقولو .

١٩- السيد فيليبو كونتارينى ابن السيد ..

٢٠- السيد نيقولو موريكسينى ابن السيد جاكومو .

٢١- السيد نيقولو جستنيان ابن السيد برناردو.

٢٢- السيد برناردو جستنيان ابن السيد نيقولو .

٢٣- السيد دومينيجو بالبى ابن السيد نيقولو .

٢٤- السيد نيقولو بالبى ابن السيد مارين .

٢٥- السيد برناردو بالبى ابن السيد دومينيجو .

٢٦- السيد الويز بيمبو ابن السيد بينيتين. ⎤ أخوان

٢٧- السيد انطونيو بيمبو ابن السيد بينيتين . ⎦

٢٨- السيد نيقولو تافاير ابن السيد ميشيل .

٢٩- السيد نيقولو موزينجو ابن السيد ليونارد الأول.

٣٠- السيد توما موزينجو ابن السيد مارين.

٣١- السيد جيروليمو كورنر ابن السيد ...

٣٢- السيد انطونيو دى زادا بيزارو ابن السيد بييرو.

٣٣- السيد بييرو نانى ابن السيد جوان .

٣٤- السيد بييرو تريفيكسان ابن السيد جوان.

٣٥- السيد آدامو تريفيكسان ابن السيد ..

٣٦- السيد ميشيل بولدو ابن السيد بينيتو.

٣٧- السيد باتيستاجريتى ابن السيد اوموبون .

٣٨- السيد لوكا جريتى ابن السيد تريادان.

٣٩- السيد جوان فانير ، ربان السفينة القادمة من كريت.

٤٠- السيد فرانشيسكو فانيير ابن السيد برناردو .

٤١- السيد زكريا باربارو ابن السيد ماتيو.

٤٢- السيد نيقولو باربارو ابن السيد ماركو.

٤٣- السيد جوان لوريدان ابن السيد بولو .

٤٤- السيد مافيو دى بريولى ابن السيد بييرو . ⎤ آخوان

٤٥- السيد الويز دى بريولى ابن السيد بييرو . ⎦

٤٦- السيد انطونيو كويو ابن السيد جاكومو .

٤٧- السيد فابروزى ابن السيد جوان .

٤٨- السيد جيروليمو أبرامو ابن السيد انطونيو .

٤٩- السيد ماركو ابرامو الكريتى .

٥٠- السيد اليساندرو لولين ابن السيد انزولو. ┐ أخوان

٥١- السيد جوان لولين ابن السيد انزولو . ┘

٥٢- السيد نادال سيفولو الكريتى .

٥٣- السيد بييرو بارباريجو الكريتى.

٥٤- السيد دانيال ڤيتورى ابن السيد رينيه .

٥٥- السيد بورتولو جورجى ابن السيد فرانشيسكو.

٥٦- السيد اندريا ماليبيرو ابن السيد...

٥٧- السيد انطونيو بيزامانو ابن السيد نيقولو .

٥٨- السيد جاكومو تايا بييرا بان السيد بييرو .

٥٩- السيد فرانشيسكو ميشيل ابن السيد ...

٦٠- السيد بييرو ميشيل ابن السيد دونادو .

٦١- السيد نادال سالامون ابن السيد نيقول .

٦٢- السيد الويز دى كانال ابن السيد بورنولو. ┐ أخوان

٦٣- السيد جيروليمو دى كانال ابن السيد بورنولو . ┘

٦٤- السيد نيقولو بيزانى ابن السيد أندريا .

٦٥- السيد فانتن جن ابن السيد انطونيو .

٦٦- السيد دوناو ترون ابن السيد بييرو .

٦٧- السيد ماركو داليز ابن السيد فرانشيسكو .

٦٨- السيد زكريا داmolين ابن السيد جوان .

المجموع : ٦٨

أسماء الذين قتلوا من بين الثمانية والستين نبيلاً بندقيًا الذين شهدوا حصار وسقوط القسطنطينية :

١- السيد جيروليمو مينوتو، بايل البنادقة فى القسطنطينية.

٢- السيد جاكومو كوكو ، ربان الشينية القادمة من طرابيزون.

٣- السيد أدامو تريڤيكسان ابن السيد ..

٤- السيد فابروزى كورنر ابن السيد جوان .

٥- السيد زكريا دا مولين بن السيد جوان .

٦- السيد جورجى مينوتو ابن السيد جيروليمو .

٧- السيد فيليبو كونتاريني ابن السيد ..

٨- السيد ماركو دييدو ابن السيد الويز .

٩- السيد انطونيو دا كا دابيزارو ابن السيد بييرو.

١٠- السيد الويز بيمبو ابن السيد بيتتين.

١١- السيد الويز نافاير ابن السيد ميخائيل .

١٢- السيد الويز كونتاريني ابن السيد جاكومو.

١٣- السيد بولو مينوتو ابن السيد جيروليمو.

١٤- السيد زكريا جريونى الفارس .

١٥- السيد دوناد ترون ابن السيد بييرو .

١٦- السيد فيتور دييدو ابن السيد الويز.

١٧- السيد بورتولو جورجى ابن السيد فرانشيسكو .

١٨- السيد نيقولو بالبى ابن السيد مارين .

١٩- السيد جيروليمو كورنر ابن السيد ...

٢٠- السيد برناردو بالبى ابن السيد دومينجو.

٢١- السيد الويزى دييدو ابن السيد ماركو .

٢٢- السيد انطونيو بيزامانوا ابن السيد نيقولو .

٢٣- السيد فرانشيسكو فانير ابن السيد برناردو .

٢٤- السيد اليساندرو لولين ابن السيد انزولو.

٢٥- السيد نادال سينولو الكريتى .

٢٦- السيد دومينجو بالبى ابن السيد نيقولو .

٢٧- السيد جيروليمو دى كانال ابن السيد بورتولو.

٢٨- السيد بييرو نانى ابن السيد جوان .

٢٩- السيد جوان فانيير الكريتى.

٣٠- السيد ماركو ابرامو الكريتى .

٣١- السيد جوان لولين الكريتى.

٣٢- السيد بييرو بارباريجو الكريتى.

٣٣- السيد جابرييل تريفيكسان .

٣٤- السيد سيلفسترو تريفيكسان ، ربان الشينية .

٣٥- السيد دولفين دولفين ، نائب ربان الشينية .

٣٦- السيد نيقولو جستنيان ابن السيد برناردو.

٣٧- السيد بييرو ميشيل ابن السيد دونادو .

٣٨- السيد لوكا جريتى ابن السيد تريادان.

٣٩- السيد ميشيل بولدوو ابن السيد بينيوتو.

٤٠- السيد جاكومو تايابيرا ابن السيد بييرو.

٤١- السيد جيروليمو موريكسينى الربان.

٤٢- جابرييل كونتارينى ابن السيد نيقولو

٤٣- السيد زكريا باربارو ابن السيد ماتيو.

٤٤- السيد دانيال ڤيتورى ابن السيد رينيه .

٤٥- السيد فرانشيسكو ميشيل ابن السيد ..

٤٦- السيد نادال سالامون ابن السيد نيقولو .

٤٧- السيد بييرو تريفيكسان ابن السيد جوان .

٤٨- السيد ماركو داليز ابن السيد فرانشيسكو .

٤٩- السيد الويز دى بريولى ابن السيد بييرو.

٥٠- السيد جيروليمو أبرامو ابن السيد انطونيو .

٥١- السيد كاتارين كونتاريني الكبير.

٥٢- السيد مافيو دى بريولى ابن السيد بييرو.

٥٣- السيد اندريا ماليبييرو ابن السيد ....

٥٤- السيد انطونيو ماليبييرو ابن السيد بينيتن.

٥٥- السيد جوان لوريدان ابن السيد بولو.

٥٦- السيد باتيستا جريتى ابن السيد اوموبون .

٥٧- السيد انطونيو كوبو ابن السيد جاكومو.

٥٨- السيد برناردو جستنيان ابن السيد نيقولو.

٥٩- السيد مارين كونتاريني ابن السيد برتوزى الأول .

٦٠- السيد الويز دى كانال ابن السيد بورتولاميو.

٦١- السيد توما موزينيجو ابن السيد مارين .

٦٢- السيد نيقولو موزينيجو ابن السيد ليوناردو الأول .

٦٣- السيد نيقولو موريكسيني ابن السيد جاكومو.

المجموع : ٦٣

أنا نيقولو باربارو ، ابن ماركو باربارو ، كتبت بيدى هذه اليوميات، حول كافة الهجمات التى قام بها الأتراك على القسطنطينية ، حتى اليوم الذى تمكنوا فيه من الاستيلاء عليها. كما قمت بكتابة ما جرى بشكل كامل ، ووافٍ ، ومناسب ومرتب . ويرجع ذلك إلى وجودى شخصياً فى القسطنطينية ، عندما تم اقتحامها والاستيلاء عليها. فى فجر يوم الثلاثاء ، الموافق التاسع والعشرين من مايو لعام ١٤٥٣ م.

ملاحظات اضافية بواسطة ماركو باربارو

١٨ يوليه ١٤٥٣م

تم اتخاذ قرار بأن يقدّم أعضاء لجان تجارة الملح إلى أبناء جاكومو كوكو ، ربان الشينية التى كانت قادمة فى رحلة إلى بيزنطة ، والذى مات، كما جاء فى الصفحة رقم ٣٠ من هذا المخطوط * ٦٠ دوكات Ducats من أجل اعالتهم ، خلال العام القادم.

وخلال هذا العام ينبغى عليهم شراء سندات رسمية تبلغ قيمتها ٦٠٠ دوكات ذهبية من النقود العالية القيمة ، وأن يتم تخصيصها إلى بنات جاكومو ، الذى تم ذكره سابقًا ، من أجل توفير بائنات لهن. بحيث تظل معهن السندات كرأسمال حتى زواجهن . وإذا ما وافتهن المنيّة قبل الزواج ، فإن ملكية السندات يجب أن تنتقل إلى أخيهما . وخلال نفس الفترة ، يجب أن يتم شراء نفس العدد من السندات لكى تخصص من أجل ابن جاكومو كوكو (١).

كان الامبراطور، ابان حصار القسطنطينية فى أشد الاحتياج إلى الأموال، فسأل باروناته اقراضه بعض المال لكنهم اعتذروا بدعوى أنهم لايمتلكون أية أموال، وعلى الرغم من ذلك، فقد وجد الأتراك مبلغًا كبيراً بعد دخولهم المدينة ، حيث عثروا على ثلاثين ألف دوكات فى حوزة أحد هؤلاء النبلاء . الذين كانوا قد وجهوا النصح للامبراطور ، ابان حصار المدينة ، بضرورة أخذ الأوانى الفضية من الكنائس (٢)، بدلاً من فرض الضرائب العالية وقام الامبراطور بذلك بالفعل .

بعد أن تم الاستيلاء على المدينة ، أصدر السلطان بيانًا بأن أولئك الذين يمتلكون منازل بالقسطنطينية ، يجب أن يخبروه بذلك، حتى يقوم بتخصيصها لهم. وتوجه إليه العديد من البيزنطيين واللاتين لاخباره عن موقع منازلهم. وكان من بين هؤلاء البايل التابع للبندقية والقنصل الاسبانى .

---

* المقصود بالمخطوط هنا هو كتاب نيقولو باربارو الأصلى. عن مقتل جاكومو انظر ص٤١ فى الترجمة الإنجليزية ، وص١٢٨ فى الترجمة العربية. .

١- انظر أيضًا : Nicol, Op. cit, p. 406 . not 2

حيث توجد اشارة إلى الترتيبات التى وضعها السناتو البندقى من أجل أبناء جاكومو كوكو .

٢- عن ذلك انظر : Kritovoulos, Op. cit, p. 36 .

وبدلاً أن يقوم السلطان بتسليمهم ما يمتلكون من منازل ، أمر السلطان بقطع رقابهم، القنصل واثنين من موظفيه. وكذلك البايل وابنه ، واثنين آخرين من نبلائنا، كما جاء في الصفحة رقم ٦٠* من هذا المخطوط.

وأراد السلطان أن تُقطع رقبة كل شخص يحضر أمامه، وتم نصحه بأنه من الأفضل أن يتركهم أحياء .

وقيل أيضًا أن بارونًا بيزنطيًا من منزلة اجتماعية عالية، قد نال حظوة لدى السلطان ، وأرسل إليه اثنتين من بناته ، كل منهما تحمل طبقًا مليئًا بالمال في يدها .

وأظهر له السلطان الكثير من الشرف ، وبدأ أنه قد مال إليه بشكل كبير ، وعندما شاهد النبلاء الآخرون التأييد والاستحسان الذى تلقاه ، قام كل منهم باحضار مبالغ مالية كبيرة، كلُ على قدر استطاعته، وقاموا بتقديمها هدية للسلطان من أجل كسب وده واستمالته .

وافق السلطان على قبول الهدية، ودفع بهم إلى مواقع الشرف، لكنه، وعندما نفذت الهدايا المالية، أمر باحضارهم إليه وقطع رقابهم. وقال عنهم أنهم جبناء كالكلاب غير الأصيلة Curs (المهجنّة) . إذ لم يقوموا باقراض تلك الأموال إلى سيدهم الامبراطور، وتركوا مدينتهم تتجه نحو السقوط .

لم يصدق أعضاء السناتو Senators لدينا في البندقية ، أنه بمقدور الأتراك جلب أسطول بحرى قوى أمام القسطنطينية ، وقرروا ضرورة تسليح خمس عشرة شينية وسفينتين ، حمولة كل منهما ٨٠٠ botte، في يوم التاسع والعشرين من فبراير ١٤٥٣م، لكن لم يتم ارسالها نحو القسطنطينية حتى علمنا أن الأتراك قد بدأوا حصارهم للمدينة (١)

---

* كما جاء في الصفحة رقم ٧٠ من الترجمة الإنجليزية والصفحة رقم ١٨١ من الترجمة العربية .

١- وصل هذا الأسطول متأخرًا إلى القسطنطينية، وبعد سقوط المدينة بالفعل في ٢٩ مايو ١٤٥٣م. انظر ما سبق ص١٤٢ ، ١٤٤، ١٦١ عندما أرسل الامبراطور في٣ مايو سفينة لاستطلاع أخبار ذلك الأسطول البندقي، لكنها عادت في الرابع والعشرين من مايو بعد ما فقدت الأمل في ملاقاته . وانظر أيضًا ، ص١٤٣ ، هامش (٢) .

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المختصرات

- A . H . R American Historical Review . London .
- B Byzantion . Bruxelles.
- B . F Byzantinisch Förschungen . Amesterdam .
- B . H . M Bulletin of the History of Medicin .
- B . S ByzantinoSlavica . Prague .
- C. H . R Catholic Historical Review .
- C . M . H Cambridge Medieval History . Cambridge University .
- C . S . H . B Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae . Bonne .
- D . O . P Dumbartan Oaks Paper . Harvard Universty .
- Ire Irénikon .
- O . C . P Orientalia Christiana Periodica , Roma .
- O . D . B . Oxford University .
- R . E . I Revue des Etudes Islamiques. Paris .
- S P Speculum . Cambridge, Mass.
- S V Studi Veneziani, Venice .
- U.B.H.J. University of Birminghan Historical Journal , Birmingham

أولا : المصادر الأجنبية

١- المصادر البيزنطية :

- Anna Comnena , The Alexiad . Trans . by , Daws , E . London , 1928 .

- Ashburner , W (ed.) , The Rhodian Sea Law . Oxford, 1909 .

- Chalcocondylas, L, "Turkish History" , Book VIII, 201-214 , in , Jones (ed.) The Siege of Constantinople 1453 , Amesterdam , 1972 , pp. 42-55 .

- Choniates , N , O city of Byzantium. Annales of Niketas Choniates. Trani . by , Harry J. Magoulias, Detroit , 1984 .

- Constantine Porphyrogentus, De Adminstrando Imperio, Trans by , Jenkins , R . J . H, Washington, 1974 .

اعتمدت على الترجمة العربية للكتاب : قسطنطين السابع بورفيرو جنيتوس ، ادارة الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة محمود سعيد عمران ، بيروت ، ١٩٨٠م . وللترجمة الإنجليزية للكتاب جزء ثان ، يحتوى على التعليقات والهوامش. لم يترجم بعد .

Doukas , M, " Historia Turco - Byzantina ", Decline and Fall of Byzantium to Ottoman Turks Trans. by . Harry J. Magoulias , Detroit, 1975 .

وهناك ترجمة أخرى لبعض فصول هذا الكتاب :

- Ducas , Byzantine History . Ch. 33- 42. in , Jones (ed.) " The Siege of Constantinople", pp. 56-116 .

- Kinnamos , J. Deeds of John and Manuel Comnenus. Trans. by , Ch . Brand , New York, 1976 .

- Kritovoulos, History of Mehmed The Conqueror . Trans. by C.T. Riggs, Princeton, 1954 .

- Miklosich F. R & Müller , J, Acta Et Diplomata Graeca, III, Vien , 1865.

- Pachymers, G , De Michael Palaeologus, vol, I , Bekker (ed.) , in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae , Bonne , 1835 .

- Pesellus , M. Fourteen Byzantine Rulers, The Chronographia of Michael Pesellus , Trans . by , Sewter , E . R.A., London , 1966 .

- Sphrantzes, G, The Fall of Byzantine Empire . Achronicle by George Sphrantzes 1401-1477 . Trans . by , M . Philippides. Amherest , 1980 .

- Theodore Spandounes, On The Origin of the Ottoman Emperors. Trans. by , Nicol, D. Cambridge, 1997 .

- Theophanes, The Chronicle of Theophanes (6095-6305) (A.D 602-813) . Trans by , Harry Turtledove , Pennsylvania , 1982 .

واعتمدت أيضاً على ترجمة حديثة لهذا المصدر . انظر :

- Theophanes Confessor , The Chronicle of Theaphanes Confessor . Byzantine and Near Eastern History AD,284-813 . Translation with Introduction and Commentary by , Cyril Mango & Roger Scott, With The Assistance of Geoffrey Greatres, Oxford, 1997 .

٢- المصادر اللاتينية :

- Angelo Giovanni ; Lomellino , ex- Podesta of pera , to his brother , in , Jones (ed.) , The Sieg of Constantinople , pp. 131-135 .

- Anonymous , Deeds of The Franks and The Other Pilgrims to Jerusalem, R . Hill (ed.) London , 1962 .

اعتمدت على الترجمة العربية : المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة وتعليق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٥٨ م.

- Belgrano , L.T , Documenti riguadanti la Colonia Genovesi di Pera, Genoa, 1888 .

- Danduli , A Chronica Per Extensum Descripta a a 461-1280 d. C. A Cura di Ester Pastorello, Bologne , 1938 .

- Dölger, F, Regesten der Kaiserurkunden Des Oströmischen Reiches von 565-1453 , Teil IV , Munchen, 1925 .

- Fulcher of Charter , A History of Expedition to Jerusalem . H. Find (ed.), knoxille, 1969 .

اعتمدت على الترجمة العربية فوشيه الشارترى ، الوجود الصليبى فى الشرق العربى، ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم، الكويت، ١٩٨٨ م.

- Giacomo Tedaldi ; in Jones (ed.)" The Siege of Constantinople" , pp. 1-10 .

- Joinville , Vie de St. Louis , Paris, 1874 .

اعتمدت على الترجمة العربية : القديس لويس. حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة حسن حبشى، القاهرة، ١٩٦٨م.

- Jones (ed.) The Siege of Constantinople . Seven Contemporary Accounts . Amesterdam, 1972 .

- Jones (ed.), Mehmet's Treaty with The Genoese, pp. 136-137 .

- Leonard of Chios , in Jones (ed.) " The Siege of Constantinople" , pp. 11-41 .

- Raymond of Aguilers , Franks Conquerers of Jerusalem , J. H . Hill & L.L. Hill (eds.) , philadelphia , 1968 .

اعتمدت على الترجمة العربية : ريمونداجيل ، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة وتعليق حسين عطية ، الاسكندرية ، ١٩٩٠م.

- Riccherio, C, " The Capture of Constantinople in The Year 1453 , on the Twenty - ninth day of May", in Jones (ed.) The Siege of Constantinople, pp. 117-124 .

- Robbert Clari , la Conquéte de Constantinople , Philippe, L . (ed.) , Paris , 1924 .

اعتمدت على الترجمة العربية : روبرت كلارى ، فتح القسطنطينية على يد الصليبيين . ترجمة وتعليق حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٦٤م.

- Villehardowin, J. La Conquete de Constantinople . text et Traduction nouvelle avec notes et Glossaire 2 Toms . Paris , 1891 .

اعتمدت على الترجمة العربية : فلهاردوين ، فتح القسطنطينية ، ترجمة وتعليق حسن حبشى ، جدّة ، ١٩٨٢م.

- William of Tyre , A History of The Deeds done beyond The Sea Trans . by . E.A. Babcock, A. C. Krey , New York , 1947 .

اعتمدت على الترجمة العربية : وليم الصورى، الحروب الصليبيه ، ج١،ج٢ ، القاهرة ، ١٩٩١-١٩٩٢م.

- Zorzi Dolfin , " Cronaca, ff. 313-322 (Selections) in , Jones (ed.) "The Siege of Constantinople", pp. 125-130 .

٣- المصادر العثمانية :

- Asik Pasa Oglu , " Asik Pasa Oglu Tarihi " Hazirlayan, H. Nihal Atsiz , Ankara , 1985 .

- Tursun Bey , Tarih-i Ebul- Feth. Hazirlayan, Mertol Tulum , Istanbul , 1997 .

٤- المصادر الفارسية :

- ابن البيبى (ابن بى بى) (العلامة حسنى بن محمد بن على الجعفرى الرغدى) .
أخبار سلاجقة الروم . مختصر سلجوق نامة، ترجمة محمد السعيد جمال الدين، الدوحه ، ١٩٩٤م.

- البندارى (الفتح بن على البندارى الأصفهانى) .
تاريخ دولة آل سلجوق . بيروت د.ت .

- الحسينى (صدر الدين على بن ناصر)
زبدة التواريخ ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية.
تحقيق محمد نور الدين، بيروت ، ١٩٨٦م.

ثانيًا : المصادر العربية

- ابن آعثم (أبى محمد أحمد بن أعثم الكوفى) .
الفتوح ، ج١ ، بيروت . د.ت .

- ابن الأثير (أبى الحسن على بن ابى الكرم الملقب عز الدين)
الكامل فى التاريخ ج٢ ، ج٤ ، تحقيق يوسف الدقاق ، بيروت، ١٩٨٧م.

- ابن العبرى (أبى الفرج جمال الدين)
تاريخ الزمان. ترجمة الأب أسحق أرملة ، بيروت، ١٩٨٦م .

- ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى)
شذرات الذهب فى آخبار من ذهب، ج٧ ، بيروت ، د.ت .

- ابن القلانسى (أبويعلى حمزة بن أسد بن التميمى)
ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨م.

- ابن اياس (محمد بن أحمد بن اياس الحنفى).

صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٥١م.

- ابن اياس (محمد بن أحمد بن اياس الحنفى)

بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج٢ ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة، ١٩٨٤م.

- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج١٢ ، ج١٦ ، القاهرة ، د.ت .

- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)

حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، ج١ ، تحقيق فهيم شلتوت، القاهرة، ١٩٩٠م.

- ابن عربشاه (ابى العباس شهاب الدين بن محمد الدمشقى)

عجائب المقدور فى نوائب تيمور . تحقيق فايز الحمصى، بيروت ، ١٩٨٦م.

- ابن كثير (الحافظ عماد الدين أبو الفدا اسماعيل)

البدايه والنهاية ، ج٩ ، بيروت ، ١٩٦٦م.

- ابن مماتى (شرف الدين أبو المكارم بن ابى سعيد)

قوانين الدواوين ، جمع وتحقيق عزيز سوريال ، القاهرة ، ١٩٩١م.

- البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر)

فتوح البلدان. تحقيق عبدالله وعمر الصباغ . بيروت ، ١٩٨٧م.

- الطبرى (ابى جعفر محمد بن جرير)

تاريخ الرسل والملوك . ج٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨، ٩ . تحقيق محمد أبو الفضل ، القاهرة، ١٩٧٩) .

- القرمانى (ابى العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقى).

أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ . بيروت . د.ت .

- القلقشندى (ابو العباس أحمد بن على بن أحمد)

صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ج٣ ، القاهرة ، ١٩١٣م.

- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على)

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج١ ، القاهرة، ٢٠٠٠م.

ثالثًا : المراجع الأجنبية

- Alexanderescu - Dersca , La Campagne de Timur en Anatolia, 1402 . London , 1972 .

- Ali Sevim , Malazgirt. Maydam Savasi . Ankara , 1971 .

- Atiya , A .S , The Crusades in The Later Middle Ages . London , 1938 .

- Babinger , F , Mehmad The Conqueror and His Time Trans. by , R Manheim, W.C . Hickman . Princeton, 1978 .

- Barker, J . W . Manuel II Palaeologus 1391-1425 . A Study in Later Byzantine Statesmanship, New Jersey , 1969 .

- Bartusis , M , The Late Byzantine Army : Arms and Socity, 1204-1453, Philadelphica, 1992 .

- Bowman, S.B, The Jews of Byzantium 1204-1453 Alabama , 1985 .

- Cave . c.c & Coulson , H. Asource Book for medieval Economic History . New York , 1965 .

- Cemal Kafadar , Between Two Worlds. The Construction of the Ottoman State, London , 1995 .

- Charanis , p. "The Jews in The Byzantine Empire under The First palaeologus ", in, Sp, 22, 1947 .

- Charanis, p. "On The Date of The Occupation of Gallipoli by The Turks" in BS, XVI, Prague , 1955 .

- Charanis, p. "An Important Short Chronicle of The Fourteenth Century" in , B , XIII, 1938 .

- Day , G " Italian Churches in the Byzantine Empire to 1204", in C.H.R, Lxx, 1984 .

- Dennis , S.J " The Byzantine - Turkish Treaty in 1403. in O. C . P. XXXIII, 1967 .

- Dereksen , D, The Cresent and The Cross , New York , 1964 .

- Farouk Sumer & Ali Sevim, Islam Kaynaklarine gore Malazgirt Savasi . Ankara, 1971 .

Gill, J, Personalitics of the Council of Florence New York, 1964.

Goodwin, G, The Janissaries. London, 1997.

Hidden, A, The Ottoman Dynasty. New York, 1962.

Hignett, C, Xerxes invation of Greece. Oxford, 1963.

Inalcik, H, "Mehmed The Conquerors, (1432-1481) and his Time". in
ɔ, 35, 1960.

Inalcik, H. " The Policy of Mehmed II Toward The Greek Populations
' Istanbul and the Byzantine Buildings in the City ", in D.O.P, 23-24,
969-1970.

Inalcik, H, The Ottoman Empire. The Classical Age 1300-1600. Lon-
on, 1973.

Kielty, B, La Chute de Constantinople, Paris, 1961.

Kinross, L, The Ottoman Centuries. The Rise and fall if the Turkish
mpire. London, 1977.

Krajcar, J " Metropolitan Isidor's Journy to The Council of Florence.
ome remarks", in, O.C.P. 38, 1972.

Kristeller, P.O. The School of Salerno : its development and its Con-
bution to The History of Learning " in, B.H.M, XVII, 1945.

Lane, F " Venetian Shipping during The Commercial Revolution, in,
. H. R, XXXVIII, 1933.

Lane, F " The First Infidelities of the Venetian Lire" in, Miskimen &
erlihy & Udovich (eds.), The Medieval City. Yale, 1977.

La Valleé, The Histoire de L'Empire Ottoman, 1855.

Martin, M.E " Venetian Tana in the Later Fourteenth and Early Fif-
enth Centuries : in, B. F, 11, 1987.

Maltezou, ch, Ho Thesmos tou en konstantinoupoli Benetou bailou,
thens, 1970.

Menzies, S, History of the Ottoman Empire in Europe, London, 1977.

Miller, W, Trebizond. The Last Greek Empire, London, 1926.

- Millingen , V, Byzantine Constantinople . The Walls of The City and adjoining Historical sites London , 1899 .

- Nicol , D " A, Byzantine Emperor in England , Manuel's Visit to London 1400-1401" in, University of Birmingham Historical Journal, XII / 2, 1971 .

- Nicol, D, The Last Centuries of Byzantium 1261-1453 , London , 1972 .

- Nicol , D, Byzantium and Venice : A Study. in diplomatic and Cultural relations . Cambridge, 1988 .

- Pearse , E " The Ottoman Turks to The Fall of Constantinople ", in C. M . H , I, (4), 1927 .

- Pearse , E, The Destructian of the Greek Empire and The Story of the Capture of Constantinople by The Turks , New York , 1968 .

-Queller, D, Anote on the Reorganization of the Venetian Coinage by Doge Enrico Dandole " in , Medieval Diplomacy and the Fourth Crusade , London , 1980 .

- Robbert, L .B, "Venetian Money Market 1150-1229" in S.V XIII, 1971.

- Robbert , L. B, "Reorganization of The Venetin Coinage by The Doge Enrico Dandolo ", in, SP, XLIX, 1974 .

- Runciman , S, The Fall of Constantinople 1453 . Cambridge , 1965 .

- Sauli , D . L, Della Colonia Dei Genovesi in Galata . 2 Tomo . Turin , 1831 .

- Schlumberger , G, Le Siege la Praise et le Sac de Constantinople par Is Turces en 1453 . Paris , 1914 .

- Semavi Eyice, Malazgirt Savası kaybeden Romano IV Diogens . Ankara, 1971 .

- Setton , K, " The Catalans in Greece 1311-1380" in , Setton & Hazard (eds.) A, History of the Crusades , vol .3 , Wisconsin, 1975 .

- Setton , K, " The Catalans and Florentine in Greece 1380-1462 in , Setton & Hazard (eds.) A History of the Crusades . vol . 3 , Wisconsin, 1975 .

- Sharf , A , Byzantine Jewry from Justinian to the Fourth Crusade .London , 1971 .

- Starr, J, Jews in The Byzantine Empire 641-1204, Athens, 1939 .

- Wittek , P, De La defait D'Ankara a' la Praise de Constantinople. in Revue des Etudes Islamiques , XII , 1938 .

- Zacharıadou , E, " The Conquest of Adrianople by The Turks, in SV , XII, 1970 .

- Zachariadon, E, Trade and Crusade : Venetians Crete and The Emirates of Menteshe and Ayden, 1300-1415 . Venice , 1983 .

- Ziegler , A, W, Isidore de Kiev, A Portre de L'Union Florentine ", in, Irénikon, 13, 1936 .

رابعًا : المراجع العربية والمعربة

- أحمد رمضان أحمد ، تاريخ فن القتال البحرى فى العصر الوسيط. القاهرة . د.ت .

- اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، مراجعة حسن الزين . بيروت . د.ت .

- اسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج١ القاهرة ، ١٣١٢هـ .

- حاتم عبد الرحمن الطحاوى ، بيزنطة والمدن الإيطالية، (العلاقات التجارية) ١٠٨١-١٢٠٤م. القاهرة ، ١٩٩٨م.

- حاتم عبد الرحمن الطحاوى، الاقتصاد الصليبى فى بلاد الشام، القاهرة ، ١٩٩٩م.

- حاتم عبد الرحمن الطحاوى، «اقتحام العثمانيين للقسطنطينية . شهادة المؤرخ البيزنطى دوكاس» مجلة الاجتهاد ، العددان الواحد والأربعين والثانى والأربعين، السنة الحادية عشر، بيروت، ١٩٩٩م.

- حسن بيرينا ، مشير الدولة : تاريخ ايران القديم من البداية حتى نهاية العصر الساسانى. ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم، السباعى محمود السباعى، مراجعة وتقديم يحيى الخشاب ، القاهرة، ١٩٩٥م.

- حسين عطية، «عشر صلاح الدين وأصوله التاريخية فى غرب أوروبا ومملكة بيت المقدس»، بحث مستخرج من كتابه : دراسات فى الحروب الصليبية ، الاسكندرية، ٢٠٠٠م.

- حسين عطية، «معركة ميريا كيفالون ١١٧٦م ونهاية النفوذ البيزنطى فى آسيا الصغرى، مجلة كلية الآداب - جامعة طنطا .

- جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى ترجمة محمد فتحى الشاعر، القاهرة، ١٩٩٢م.
- رأفت النبراوى ، الدوكات الذهبية البندقية ، «مجلة الدارة» ، العدد٤ ، السنة السابعة عشرة ، رمضان ، ١٤١٢هـ .
- سمير فوزى ، القديس مرقص وتأسيس كنيسة الاسكندرية، ترجمة نسيم مجلىّ ، القاهرة، ١٩٩٩م.
- فايز نجيب اسكندر ، دراسه لاتفاقيه تجارية بين امبراطورية طرابيزون والبندقية ١٣٦٤م، الاسكندريه ،١٩٨٣م.
- عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، العلاقات المصرية العثمانية ٧٨٤-٩٢٣هـ / ١٣٨٢-١٥١٧م. القاهرة ١٩٩٥م.
- عبد الرحمن فهمى ، ابن اياس واستخدام الأسلحة النارية فى ضوء ما كتبه فى كتاب بدائع الزهور ، بحث مستخرج من كتاب ابن اياس : دراسات وبحوث ، اشراف أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة ، ١٩٧٣م.
- عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام فى الهند، القاهرة، ١٩٩٠م.
- على بن صالح المحاميد، الدانشمنديون وجهادهم فى بلاد الأناضول، الاسكندرية، ١٩٩٤م .
- على عوده الغامدى ، معركة ميريا كيفالون ١١٧٦م ، مجلة كلية الشريعة ، مكة ، جامعة أم القرى، ١٤٠٤هـ.
- محمد الوسيمى ، جامع القسطنطينية الأول ودوره السياسى، مجلة كلية الآداب- جامعة القاهرة، مجلد ٦٠ عدد (٢) أبريل ٢٠٠٠م.
- محمد فؤاد كوبريللى ، قيام الدولة العثمانية ترجمة أحمد السعيد سليمان ، القاهرة، ١٩٩٣م.
- محمود سعيد عمران ، السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية فى عهد الامبراطور مانويل الأول ١١٤٣-١١٨٠م . الاسكندرية ، ١٩٨٥م.
- محمود سعيد عمران ، الحملة الصليبية الخامسة على مصر ، القاهرة ، ١٩٨٥م.
- موفق سالم نورى ، العلاقات العباسية البيزنطية ١٣٢-٢٤٧ هـ / ٧٥٠-٨٦١م، بغداد ، ١٩٩٠م.
- نعيم زكى فهمى ، طرق التجارية الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٧٣م.

– نورمان كانتور ، التاريخ الوسيط ، قصة حضارة ، البداية والنهاية ج٢، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة، ١٩٨٦م.

– هاسكنز ، نشأة الجامعات فى العصور الوسطى، ترجمة جوزيف نسيم ، الاسكندرية ، ١٩٨٤م.

– هايد . ف ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى. ترجمة أحمد رضا ، ج٣ ، ج٤ ، القاهرة ، ١٩٩٤م.

– هسى . ج.م ، العالم البيزنطى، تقديم وترجمة وتعليق رأفت عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٩٧م.

– وسام فرج ، العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى، الاسكندرية، ١٩٨١م.

– وسام فرج ، الألقاب والمناصب الحكومية فى بيزنطة بين الاستمرارية والانقطاع . بحث مستخرج من الكتاب السنوى الثالث، الجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية، تحرير أحمد عتمان ، القاهرة ، ١٩٩٨م.

– يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية ، ج١ ترجمة عدنان سلمان ، مراجعة محمود الأنصارى، استانبول، ١٩٩٨م.

خامساً : الرسائل العلميه الجامعية

– أحمد كامل عبد المقصود ، الجماعات القطالونية فى الامبراطورية البيزنطية ١٣٠٣–١٣٨٨م. رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة المنصورة ، ١٩٩٦م.

– السيد محمد متولى، الدولة البيزنطية فى عالم القرن الخاس عشر للميلاد . رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة المنصورة ، ١٩٩٨م.

– صلاح محمد ضبيع ، العلاقات السياسية بين العثمانيين والامبراطورية والبيزنطية ١٢٦١–١٤٥٣م. رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب، جامعة جنوب الوادى ، ١٩٩٨ م

– ناهد عمر صالح ، السياسة الخارجية للدولة البيزنطية فى عهد الامبراطور أندرونيقوس الثانى باليولوغس ١٢٨٢–١٣٢٨م. رسالة دكتوراة غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٩م .

سادساً : المعاجم والقواميس المتخصصة :

- ادى شير ، معجم الألفاظ الفارسية المعربة ، بيروت ، ١٩٩٠م.

- بطرس عبد الملك & جون الكساندر طومسون & ابراهيم مطر . قاموس الكتاب المقدس ، القاهرة ، ١٩٩٩م.

- درويش النخيلى ، السفن الإسلامية على حروف المعجم . الاسكندرية، ١٩٧٤م.

- A Comprehensive Maritime Dictionary . Alexandria , 1989 .

- Attwater , D, The Penguin Dictionary of Saints. New York , 1983 .

- Bayerle, G, Pashas , Begs, and Effendies : A Historical Dictionary of Titles and Terms in the Ottoman Empire. Istanbul , 1997 .

- De Roover, E , F Glossary of Medieval Terms of Business., Italian Series 1200-1600, Cambridge, Mass. 1934 .

- Dozy , R, Supplement Aux Dictionnaire Arabes, Tome , 2 . Beyrouth , 1981 .

- Kelly , J . N . D The Oxford Dictionary of Popes . Oxford, 1986 .

- Kemp, p. (ed.) The Oxford Companion to Ships & The Sea. Oxford , 1976.

- Midhat Sert Oglu , Osmanli Tarıh Lügati. Istanbul , 1986 .

- Nicol , D ,A Biographical Dictionary of the Byzantine Empire . London , 1991 .

- Oxford Dictionary of Byzantium, 3 vols. Oxford University .

- Webester's New Collegiate Dictionary . New York .

- Webester New Geographical Dictionary . New York .

المحتويات

رقم الإيداع ٢٠٠٠/٧٩٧٢

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 6001 - 03 - 3

دار روتابريت للطباعة ت : ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤

مهندس / يوسف عز

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق



نيقولو باربارو

الفتح الإسلامى للقسطنطينية

يوميات الحصار العثمانى

١٤٥٣م

دراسة وترجمة وتعليق:
دكتور حاتم عبد الرحمن الطحاوى





للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES